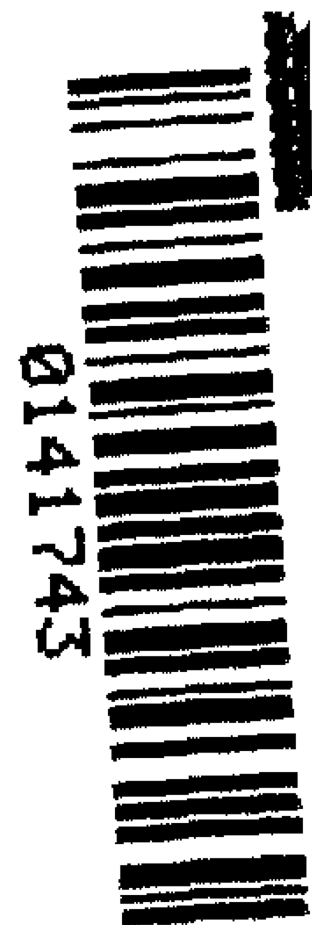
جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة
قسم البلاغة والنقد

علم المعاني

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني

تأليف
الدكتور
بسيوني عبد الفتاح فيود
المدرس بجامعة الأزهر



الجزء الثاني

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة . تليفون ٣٩١٧٤٧٠

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة
قسم البلاغة والنقد

علم المعاني

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني

تأليف

بسيوني عبد الفتاح فيود
المدرس بجامعة الازهر

الجزء الثاني

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين نبينا محمد وعلى آله وصحابته ومن سلك سبيله ومضى على نهجه إلى يوم الدين ...

أما بعـــد :

فهذا هو الجزء الثاني من كتاب : « علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية » ، وقد سبقه الجزء الأول الذي تناول دراسة أجزاء الجملة : « المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل » ، فكشف عن دقائقها ، وجلى أسرارها ، وأبرز مايكمن وراء أحوال كل جزء منها من لطائف ومزايا بلاغية ..

أما هذا الجزء فيتناول دراسة الجملة ومايكمن وراء أبنيتها وصياغاتها من دقائق وأسرار، كما يتعرض لعلاقة الجملة وارتباطها بغيرها من الجمل، فيكشف عن الضوابط والملاحظات التي ينبغي مراعاتها عند التقاء الجملة بغيرها .. وقد تكون من أربعة فصول :

الفصل الأول : دراسة أساليب القصر .

الفصل الثاني : دراسة أساليب الإنشاء .

الفصل الثالث : دراسة مواضع الفصل ومواضع الوصل .

الفصل الرابع : دراسة الإيجاز والإطناب .

وحتى يؤتي الكتاب ثمرته المرجوة ، ويحقق الغاية المنشودة ، والهدف المقصود ، فقد عرضنا في كل فصل من هذه الفصول لكثير من الشواهد

والأمثلة من التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة ، وأوضحنا مايكمن وراء الأبنية والصياغات فيها من مزايا وأسرار بلاغية ...

فالله عز وجل أسأل أن تتحقق الغاية المرجوة من هذا الكتاب ، وأن ينتفع به طلبة العلم ومحبو المعرفة ، وأن يجزينا خير الجزاء ، ويهدينا سواء السبيل ، إنه خير مسئول وهو نعم المولى ونعم النصير ...

المؤلف

د / بسيوني عبد الفتاح بسيوني
عنيزة - القصيم - المملكة العربية السعودية
في ١٧ رمضان سنة ١٤٠٧ هـ

الفصل الأول

اساليب القصر

أساليب القصر من الأساليب الغنية بالاعتبارات الدقيقة والملاحظات العديدة، فهو فن دقيق المجرى، لطيف المغزى، جليل المقدار، كثير الفوائد، غزير الأسرار.

انظر إلى قول عبد الله بن قيس الرقيات:

إنما مصعب شهاب من الله ... تجلت عن وجهه الظلماء

تجده يفيد المبالغة فى وصف مصعب بالشجاعة والإقدام بعبارة مختصرة، وأسلوب موجز، وقد آثر الشاعر التعبير بإنما ليدل على أن اتصاف مصعب بصفة الشجاعة أمر ظاهر بين، فتلك خصوصية من خصوصيات «إنما»، وبهذا يتضح لك أن أسلوب القصر فى البيت، قد حقق ثلاث مزايا: الإيجاز والمبالغة والدلالة على شهرة مصعب وذيوع شجاعته.

ويرجع ثراء أساليب القصر وكثرة فوائدها إلى تنوع طرقها وما بين تلك الطرق من فروق دقيقة، واعتبارات وملاحظات لطيفة.

هذا والقصر فى اللغة معناه: الحبس، يقال: قصرته أى حبسته، وهو مقصور أى: محبوس، قال تعالى (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)[1] أى: محبوسات قد قصرن أنظارهن على أزواجهن، فالمرأة قاصرة الطرف هى التى تحبس طرفها على بعلها وتخصه به فلا تمده إلى غيره.

---

(1) سورة الرحمن آية ٧٢

وفي اصطلاح البلاغيين : « هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص » فعندما تقول : زهير شاعر لا كاتب ، فإننا نخص زهيرا بصفة الشعر بحيث لا يتجاوزها إلى صفة الكتابة ، فزهير مقصور ، والشعر مقصور عليه . . . وقد قيد البلاغيون التخصيص « بالطريق المخصوص » ، ليخرج كل ما أفاد القصر بغير تلك الطرق المخصوصة ، فقولنا : زيد مقصور على العلم . . وجاء محمد وحده . . وعلي يختص بالشعر . . وخالد ينفرد بالشجاعة . . وقال أبو ذؤيب :

وإذا المنيـــة أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمـــة لا تنفع

هذه الأقوال وإن أفادت اختصاص شيء بشيء إلا أنها لا تدخل في نطاق دراسة البلاغيين وميدان بحثهم لأن التخصيص فيها لم يتم عن الطرق المعهودة التي حددوها . . وعند التأمل نجد أن إفادة القصر بغير الطرق التي حددها البلاغيون ، ليس وراءها اعتبارات بلاغية تستدعي الدراسة والبحث ، ولذا حصر البلاغيون دراسة القصر في تلك الطرق الفنية بالاعتبارات والملاحظات الدقيقة . . وهي : « التقديم » كقوله تعالى : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ »(١) . . « والعطف » نحو : محمد كاتب لا شاعر . . و « إنما » كقوله تعالى : « إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا »(٢) . . . والنفي والاستثناء كقوله عز وجل : « إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ »(٣) . . . وأضاف بعضهم : « تعريف المسند أو المسند إليه بأل الجنسية » ، « وتوسط ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر » نحو : محمد الجواد . . وعلي هو العالم . . . وزاد بعضهم طرقا أخرى حتى وصلت طرق القصر عندهم إلى أربعة عشر طريقا(٤) .

---

(١) سورة الفاتحة آية ٤ . (٢) سورة النازعات آية ٤٥ .

(٣) سورة فاطر آية ٢٣ . (٤) انظر الاتقان ج ٢ ص ٥٠

ولكن ما عليه جمهور البلاغيين هو الطرق الأربعة الأولى لأنها هي الغنية بالاعتبارات والملاحظات دون غيرها ..

والبلاغيون في دراستهم لأسلوب القصر ينظرون إلى غرض المتكلم من من الاختصاص ... وإلى حال المخاطب التي وقف عليها المتكلم فأحدث هذا التخصيص ... وإلى طرفى القصر أى المقصور والمقصور عليه ... ثم إلى طرق القصر المشهورة وما بينها من فروق واعتبارات .. فالقصر كما عرفوه : « تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص ، الشيء الأول هو المقصور والثانى المقصور عليه ، ومعنى اختصاص المقصور بالمقصور عليه : ألا يتجاوزه ويتعداه إلى غيره ... ففى قولنا : « ما شاعر إلا زهير » قصر للشاعرية على زهير بحيث لا تتعداه إلى غيره ... وهذا الغير الذى انتفت عنه صفة الشعر إن كان عاما فالقصر حقيقى ، وإن كان معينا فالقصر إضافى .. والعام إن كان مطابقا للواقع الخارجى فالقصر حقيقى تحقيقى ، وإن كان مبنيا على الادعاء والمبالغة فهو حقيقى ادعائى ... ثم القصر الإضافى ينظر فيه إلى حال المخاطب فهو إما أن يكون مترددا فى إثبات المقصور للمقصور عليه ونفيه عن المنفى عنه ... وإما أن يكون معتقدا الشركة أى : اشتراك المنفى عنه والمقصور عليه فى المقصور .. وإما أن يعتقد العكس أى : إثبات المقصور للمنفى عنه ونفيه عن المقصور عليه .. فالأول قصر التعيين والثانى قصر الإفراد والثالث قصر القلب ..

ثم ينظرون إلى طرفى القصر ، أى : المقصور والمقصور عليه ، لأنه لابد أن يكون أحدهما موصوفا والآخر صفة ، ولذا فالقصر إما أن يكون قصر صفة على موصوف أو قصر موصوف على صفة ..

هذا وليست طرق القصر سواء فى الدلالة عليه ، بل بينها فروق دقيقة — كما قلت — تحتاج من الدارس لكى يقف عليها إلى تأمل واع ونظر دقيق ثم إن تحديد المقصور والمقصور عليه ليس بالشيء الهين ، بل يحتاج من الدارس أيضا إلى نظر وتأمل فى أسلوب القصر ، فمثلا قولك : إنما ضرب محمد زيدا

يفيد قصر الضرب الواقع من محمد على زيد ، وقولك إنما ضرب زيداً محمد ، يفيد قصر الضرب الواقع على زيد ، على فاعله محمد ، وبينهما فرق كبير ... هذا إجمال مخل لما ذكره البلاغيون فى حديثهم عن أساليب القصر ، ولكى يتبدد هذا الإخلال نتقف على مزايا القصر وأسراره ودقائقه ، فإننا سنتبعه بالتفصيل والإيضاح والبيان فيما يلى إن شاء الله ..

القصر الحقيقى والإضافى :

ينقسم القصر باعتبار غرض المتكلم وما يقصد إليه إلى قسمين : قصر حقيقى ، وقصر إضافى ...

فالقصر الحقيقى : ما كان غرض المتكلم منه أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره أصلا ... وهذا يعنى أن المنفى عنه يكون عاما ، فالمقصور مختص بالمقصور عليه منفى عن كل ما عداه ... كما فى قوله تعالى : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ »(١) ، فى الآية طريقان من طرق القصر الأول التقديم « وعنده مفاتح الغيب » ، والثانى : النفى والاستثناء « لا يعلمها إلا هو » ، فمفاتح الغيب عنده وليست عند غيره ، وعلمها مقصور عليه تعالى ، منفى عن كل ما عداه ، وتكرار القصر أفاد تأكيد هذه الحقيقة وتقريرها ، وهى أن العلم بالغيب مختص به تعالى ، لا يتعداه إلى أحد من خلقه ... ومنه قولنا : « ما خاتم الأنبياء إلا محمد » ، فالمراد : أن ختم النبوة مقصور على محمد - صلى الله عليه وسلم - لا يتعداه إلى غيره من الرسل ... وقوله عز وجل : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا »(٢) ، فالمراد قصر العبادة على الله تعالى بحيث لا تتعداه إلى غيره مطلقاً .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٩ (٢) سورة آل عمران الآية ٦٤

والقصر الإضافى : أن يختص المقصور بالمقصور عليه بالنسبة إلى شىء معين ، أى بالإضافة إليه ، بحيث لا يتجاوزه إلى ذلك المعين .. كما فى قولنا : زهير شاعر لا كاتب ، فالمراد : قصر زهير على صفة الشعر ، بحيث لا يتجاوزها إلى صفة معينة محددة ، وهى صفة الكتابة ... وهذا لا ينافى أن يكون لزهير صفات أخرى كالخطابة مثلا ، ففى القصر الإضافى يكون المنفى معينا محدداً ، والمراد ألا يتجاوز المقصور المقصور عليه إلى هذا المنفى المعين ، وإن أمكن أن يتجاوزه إلى غيره ... ومنه قولنا : الشاعر ذو الرمة لا زياد ، فصفة الشعر مقصورة على ذى الرمة ، لا تتعداه إلى زياد ، وإن صح أن تتعداه إلى نصيب والكميت وجرير والفرزدق وغيرهم من الشعراء ...

هذا وينقسم القصر الحقيقى إلى قسمين : حقيقى تحقيقى وحقيقى ادعائى .. فالتحقيقى : ما كان المنفى فيه عاما يتناول كل ما عدا المقصور عليه من حيث واقع الحال وحقيقة الأمر ، فالمقصور مختص بالمقصور عليه لا يتعداه إلى غيره فى واقع الأمر وحقيقة الحال ، كما فى الشواهد التى مرت بنا وكما فى قولك : ما أكرمت إلا زيداً ، إذا كان الإكرام لم يقع منك إلا على زيد فى واقع الأمر وحقيقته ... ومنه قولنا : « لا يحج إلى مكة إلا المسلمون » ، فالواقع يطابق هذا ، لأن الحج إلى مكة مقصور على المسلمين . ومنفى عن كل من عداهم من أصحاب الملل الأخرى ... ومنه قوله تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »(١) ، فالملك مختص بالله فى الحقيقة والواقع ، ومنفى عن كل ما عداه . وقوله تعالى : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ »(٢) ، فالعبادة وطلب العون مختصان بالله ، ومنفيان عن كل ما عداه فى واقع الأمر وحقيقته ... وقوله عز وجل : « وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ »(٣) ، فغفران الذنوب مختص بالله تعالى ، منفى عما عداه

(١) سورة الملك الآية ١ (٢) سورة الفاتحة الآية ٤

(٣) سورة آل عمران الآية ١٣٥

فى الواقع والحقيقة ... ونلاحظ أن المقصور فى الشواهد المذكورة صفة، والمقصور عليه موصوف، فالقصر الحقيقى التحقيقى يقع كثيرا فى الكلام إذا كان المقصور صفة، ويقل فى قصر الموصوف على الصفة، لأن الغالب فى الموصوف أن يتصف بعدة صفات ولا يوقف على صفة واحدة ... أما الصفة فيجوز وقفها على موصوف واحد وحصرها فيه ... وقد غالى بعض البلاغيين فقالوا إن قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا تحقيقيا لا يتأتى لأنه ما من موصوف إلا وله صفات كثيرة تتعذر الإحاطة بها أو تتعسر، فإذا قلنا: ما زهير إلا شاعر .. وما زياد إلا كاتب .. لا يتأتى أن يكون زهير مقصورا على صفة الشعر لا يتجاوزها إلى غيرها ... ولا يمكن يكون زياد موقوفا على الكتابة لا يتعداها إلى غيرها ... كيف وهما يأكلان ويتكلمان ويمشيان، ويتصفان بالحياة، وبالبياض أو السواد وبالقصر أو الطول وبالذكاء أو الغباء .. إلى آخر ما يمكن أن يتصف به الحى؟ ... بل إن البعض خرج بالمسألة عن نطاق الدراسة البلاغية. فقالوا: إن الصفة المنفية لها نقيض البتة، وهذا النقيض من الصفات، فإذا نفيت جميع الصفات لزم ارتفاع النقيضين ... واحتدم النقاش واشتد الأخذ والرد، ودخلت المسألة فى مماحكات كلامية ينبغى أن ينزه عنها الدرس البلاغى، لأنها من الشوائب التى تعكر صفوه وتكدر عذبه(١) ... ولو تنبه هؤلاء إلى قول عبد القاهر: «واعلم أن قولنا فى الخبر إذا أخر نحو ما زيد إلا قائم، أنك اختصصت القيام من بين الأوصاف التى يتوهم كون زيد عليها، ونفيت ما عدا القيام عنه. فإنما نعنى أنك نفيت عنه الأوصاف التى تنافى القيام نحو أن يكون جالسا أو مضطجعا أو متكئا أو ما شاكل ذلك ولم ترد أنك نفيت ما ليس من القيام بسبيل، إذ لسنا ننفى عنه بقولنا ما هو إلا قائم أن يكون أسود أو أبيض أو طويلا أو قصيرا أو عالما أو جاهلا. كما أنا إذا قلنا ما قائم

(١) انظر إن شئت شروح التلخيص والمطول.

إلا زيد لم ترد أنه ليس فى الدنيا قائم ســـواه وإنما تعنى ما قائم حيث نحن وبحضرتنا وما أشبه ذلك .(١) لو تنبهوا إلى هذا القول ما خرجوا بالمسألة عن نطاق الدرس البلاغى وخاضوا بها الخوض الذى خاضوه ...

وخلاصة القول أن المنفى عنه فى القصر الحقيقى التحقيقى، ما هو بسبيل من المقصور عليه ، وواقع فى دائرته ، ويتبادر إلى الذهن عند سماع أسلوب القصر ، « فإذا قلت ما شاعر إلا زيد فإنك لا تعنى نفى الشاعرية عن كل من ولدته حواء فى كل العصور وكل الأمم ، وإنما تعنى نفى الشاعرية فى حدود ما يشير السياق والقرائن »(٢) وكذا إن قلت ما زهـــير إلا شاعر ،لا يعنى أنك تنفى عن زهير كل صفة غير الشعر ، وإنما يعنى أنك تنفى عنه كل ما هو بسبيل من صفة الشعر كالخطابة والكتابة .وكل ما هو فى نطاق القول والإبداع عما يحدده السياق وتشير إليه القرائن ...

أما القصر الحقيقى الادعائى ، فهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره ، ادعاء ومبالغة ، فالمقصور يختص بالمقصور عليه وينفى عن كل ما عداه مما هو بسبيل منه نفيا يقوم على المبالغه والتجوز ، ولا يقوم على المطابقة الحقيقية للواقع .. كما فى قوله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »(٣) ، فقد قصرت خشية الله على العلماء ونفيت عن كل ما عداهم ... ولا يعنى هذا أن غير العالم لا يخشى الله تعالى ، بل قد يكون غير العالم أشد خشية لله من العالم ، ولكن سياق الايات فى التنويه بشأن العلماء وتعظيم منزلتهم ،والحث على النظر والتأمل اقرأ : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٢٥ .
(٢) دلالات التراكيب ص ٤٢ .
(٣) سورة فاطر آية ٢٨ .

وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُود . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ . » ، ولذا كانت خشية الله مقصورة على العلماء دون غيرهم ، لأن خشية غيرهم لا يعتد بها في هذا المقام .. ومن ذلك قوله تعالى: « قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ... »[1] ، أثبت موسى عليه السلام ، ملكيته لنفسه ولأخيه ونفاها عن كل ما عداها ، والمراد : لا أملك في سبيل الله والدفاع عن كلمة الحق إلا نفسي وأخي ، والسياق يرشد إلى أنه كان هناك رجلان يخافان الله ، قد أنعم الله عليهما بالإيمان ، ولكن موسى لم يعتد بإيمانهما ، نظرا لتقلب قومه وتغير أحوالهم ولذا قال : « فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ .. » .

ومن ذلك قولنا : ما شاعر إلا زهير ... وما الرثاء إلا رثاء ابن الرومي .. وما خطيب إلا زياد ... فقد بني القصر على الادعاء والمبالغة وعدم الاعتداد بغير زهير في الشعر : وبغير ابن الرومي في الرثاء الحزين المؤلم ، وبغير زياد في الخطابة وحسن البيان ... ومنه قول الشاعر :

لا سيف إلا ذو الفقا ر ولا فتى إلا على

فالمراد إثبات القوة والمضاء لذي الفقار وهو سيف الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ ونفيها عما عداه ، وإثبات الفتوة له ـ رضى الله عنه ـ ونفيها عن غيره ، ادعاء ومبالغة في قوته وشجاعته ، فهناك سيوف كثيرة ماضية نفاذة وهناك ألوان من الفتوة والبطولة لا تقل عن بطولته ـ كرم الله وجهه ـ ، ولذا كان القصر في البيت من قبيل الادعاء والمبالغة . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ... » فقد قصر الحسد

(١) سورة المائدة آية ٢٥ .

بمعنى الغبطة على هاتين الصفتين ، ونفى عما عداهما ادعاء ومبالغة ؛ لأن الغبطة تكون فى غير الاثنتين المذكورتين ولكنه نزل غيرهما منزلة العدم على سبيل الادعاء ... هذا والقصر الادعائى كثير فى كلام العرب ، ويرد فى مقامات المبالغة والمدح والتعظيم نحو قولهم : ما مؤدب إلا فلان ... ما عالم إلا فلان .. ما شاعر إلا امرؤ القيس .. ما خطيب إلا صحار العبدى .. ما كاتب إلا فلان .. يبنون الكلام فى ذلك على المبالغة وعدم الاعتداد بغير المذكور فى تلك الصفات ..

قصر الإفراد والقلب والتعيين :

تقدم أن القصر الإضافى ، ما يكون المنفى فيه معيناً ومحدداً ، فالمقصور يختص بالمقصور عليه لا يتجاوزه إلى ذلك المعين كما فى قوله تعالى : « وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِى الْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ »(١) ، حيث قصر الرسول صلى الله عليه وسلم على صفة الإنذار ، دون أن يملك تحويل القلوب عما هى عليه من العناد والمكابرة .. وكما فى قول الشاعر :

إلى الله أشكو لا إلى الناس أننى
أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

فقد قصرت الشكوى على « الله » عز وجل بحيث لا تتعداه إلى شىء معين وهو « الناس » ... وهذا القصر الإضافى ينقسم باعتبار حال المخاطب ، واعتقاده الذى وقف عليه المتكلم ، إلى ثلاثة أقسام : قلب ... وإفراد ... وتعيين .

فقصر القلب : هو تخصيص أمر بأمر مكان آخر .. ويخاطب به من يعتقد العكس ، كقولك : جاءنى زيد لا عمرو ، مخاطبا من يعتقد أن عمراً هو الذى

---

(١) سورة فاطر آية ٢٢ ، ٢٣

جاءك دون زيد ، فأنت تعكس وتقلب ما يعتقده ولذا سمى قصر قلب ، ومنه قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ »(١) ، لأن المنافقين يعتقدون أن المؤمنين هم السفهاء دونهم ، فقلب الله عز وجل اعتقادهم وبين أن المنافقين هم السفهاء ولكن لا يعلمون .. وقوله تعالى : « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ .. »(٢) فالنصارى يعتقدون أن الله ثالث ثلاثة « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ .. » ، فقلب الله تعالى اعتقادهم : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل .. » فالمسيح مقصور على كونه رسولا يخلو كما خلت الرسل من قبله ، ولا يتجاوز ذلك إلى كونه إلهاً كما اعتقد الكفرة ، ولذا فالقصر فى الآية الكريمة قصر قلب .. وتأمل قول أبى تمام :

والعلم فى شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا فى السبعة الشهب

تجده قد قصر العلم على كونه فى قوة الجيش والعتاد ، ونفاه عن كونه فى علم المنجمين الذين نصحوا المعتصم بألا يقبل على الجهاد فى ذلك الوقت ، لأن النجوم تنبىء بأن يتريث ولا يتعجل ، ولكن المعتصم لم يعبأ بما قالوا ، وأقبل إلى الجهاد ، فانتصر وفتح عمورية ، وأنشد أبو تمام هذه القصيدة مشيدا بنصره ، ومشيرا إلى قصور علم المنجمين ... فالقصر فى البيت المذكور قصر قلب ، لأنهم اعتقدوا أن العلم فى السبعة الشهب لا فى قوة الرماح والجيش ، فنفى أبو تمام هذا وأثبت عكسه كما ترى .

---

(١) سورة البقرة آية ١٣ (٢) سورة المائدة آية ٧٥

وقصر الإفراد : هو تخصيص أمر بأمر دون آخر ، ويخاطب به من يعتقد الشركة ، كقولك : محمد الجواد لا علي لمن اعتقد أنهما يشتركان في صفة الجود ومنه قوله تعالى : « لَقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُوا : إنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إلَهٍ إلا إلَهٌ وَاحِدٌ . . »(١) ، فهم يعتقدون الشركة وأن الله ثالث ثلاثة ، وأفاد أسلوب القصر أن الإله واحد ، « وما من إله إلا إله واحد » فهو قصر إفراد . . وتأمل قوله تعالى (وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفَإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقَابِكُمْ)(٢) ، فالصحابة رضوان الله عليهم لشدة تعلقهم وحبهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، نزلوا منزلة من يعتقد أن محمداً عليه الصلاة والسلام يجمع بين صفتي الرسالة والخلد ، فجاء أسلوب القصر مفيدا أنه عليه الصلاة والسلام مقصور على صفة الرسالة ، فهو رسول يخلو كما خلت الرسل من قبله ، لا يتجاوز صفة الرسالة إلى التخليد في الدنيا . وخذ قوله تعالى : (وَمَا يَسْتَوِي الأحْيَاءُ وَلاَ الأمْوَاتُ إنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُورِ . إنْ أنْتَ إلاَّ نَذِيرٌ)(٣) فلما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتمنى هداية قومه ، حريصا بل شديد الحرص على قبولهم الهداية ، نزل عليه الصلاة والسلام ، منزلة من يعتقد أنه يجمع بين صفتي الإنذار والقدرة على خلق الهداية في النفوس التي أصرت على الضلال والمكابرة ، فجاء أسلوب القصر : « إن أنت إلا نذير » محدداً مهمة النبي صلى الله عليه وسلم وقاصرا له على صفة الإنذار ، لا يتعداها إلى القدرة على إسماع من في القبور . .

ويشترط في قصر الموصوف على الصفة إفرادا ، عدم تنافي الوصفين حتى يتصور اجتماعهما لموصوف واحد في ذهن المخاطب ، فلا يقال في قولك : محمد أبيض لا أسود ، إنه قصر إفراد ، إذ لا يتصور أن يعتقد معتقد أن

---

(١) سورة المائدة آية ٧٣ . (٢) سورة آل عمران آية ١٤٤

(٣) سورة فاطر آيتا ٢٢ ، ٢٣ .

محمدا يتصف بالبياض والسواد معا .. كما اشترط الخطيب القزوينى فى قصر الموصوف على الصفة قلباً ، تنافى الصفتين حتى يكون إثبات إحداهما مشعراً بانتفاء الأخرى كقولك محمد طويل لا قصير ، زيد ذكى لا غبى ، عمرو شجاع لا جبان ، حاتم كريم لا بخيل . . . ورد عليه بأن قصر القلب يرد كثيرا فى الصفات غير المتنافية - كما مر بك - فلا وجه لهذا الاشتراط . .

قصر التعيين : وهو تخصيص أمر بأمر دون آخر ، ويخاطب به المتردد بين شيئين . كقولك لمن يتردد شاكا فى الناجح أعمرو أم بكر ، إنما الناجح عمرو ، وقولك لمن يشك فى أمر زيد أمقيم أم مسافر ، زيد مقيم لا مسافر ، وتأمل قول الشاعر :

فإن كان فى لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمده والحمائل

تجده قصرا إضافيا صالحاً لأن يكون قصر قلب أو إفراد أو تعيين ، وذلك حسب تصورك لحال المخاطب ، فإن كان يعتقد أن الشرف فى اللبس والزينة دون الفضائل النفسية ، فهو قصر قلب ، وإن اعتقد أن الشرف فيهما معاً فهو قصر إفراد ، وإن تردد وشك فى مرجع الشرف ، أإلى اللبس والزينة يرجع أم إلى الفضائل النفسية فهو قصر تعيين ، والأرجح أن يكون قصر تعيين ، لأن الشاعر يريد أن يقرر أن مرد الشرف إلى ما يتصف به الإنسان من الفضائل لا إلى الشكل والزينة ، فهـذا من الأمور الواضحة الجلية ، ولا يرتاب فيها إلا من ارتاب فى الأمور البديهية ، كمن يرتاب مثلا فى مزية السيف وجودته أ إلى حدته وشدة قطعه ترجع أم إلى غمده والحمائل ، فمن ارتاب فى هذا الأمر البين ، فقل له موبخا ، ومشيرا إلى ضعف عقله ، وقلة تفكيره ، وشدة غبائه : ما السيف إلا غمده والحمائل . .

هذا ومراد البلاغيين بحال المخاطب : ما وقف القارىء للتعبيرات الجيدة عليه من قرائن الأحوال وسياقات الكلام ، فالسياق وما به من قرائن

هو الذي يبرز لك حال المخاطب . . تأمل قوله تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ..)(١)، وقوله عز وجل : (مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . . .)(٢)، فالعبارات واحدة والبناء هو البناء ، وعلى الرغم من ذلك نقول : إنَّ القصر في الآية الأولى قصر إفراد، وفي الثانية قصر قلب ، والذي جعلنا نقول هذا القول الوقوف على أحوال المخاطبين من خلال تأمل سياق الآيتين . . اقرأ سياق الآية الأولى : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ . وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ . .) فهو ينبئك بمدى حب الصحابة رضى الله عنهم للرسول عليه الصلاة والسلام ، وتغلغل هذا الحب في نفوسهم ، إلى درجة أنهم قد غفلوا عن أمر موته ، ولم يخطروه ببالهم : وها هو ذا عبد الله ابن عباس - رضى الله عنهما - يقول : « والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها » . . . وهذا هو عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يقول : « والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت حتى ما تقلني رجلاي ، وحتى هويت إلى الأرض » .

فلشدة حب الصحابة لرسول الله وتعلقهم به نزلوا منزلة من يستبعد موته ، وكأنهم يعتقدون أنه يجمع بين الرسالة والتبري من الهلاك ، ولذا كان القصر قصر إفراد . . ثم اقرأ سياق الآية الثانية (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤ (٢) سورة المائدة الآية ٧٥

ثالثُ ثلاثةٍ وما مِنْ إلهٍ إلا إلهٌ واحدٌ ، وإنْ لمْ ينتهوا عمّا يقولونَ ليمسّنَّ الذينَ كفروا منهم عذابٌ أليمٌ . أفلا يتوبونَ إلى اللهِ ويستغفرونَهُ واللهُ غفورٌ رحيمٌ . ما المسيحُ بنُ مريمَ إلا رسولٌ قدْ خلتْ مِنْ قبلِهِ الرسلُ وأمُّهُ صدّيقةٌ كانا يأكلانِ الطعامَ انظرْ كيفَ نبيّنُ لهمُ الآياتِ ثمَّ انظرْ أنّى يؤفكونَ)، فستقف منه على حال هؤلاء ، فهم اعتقدوا أن عيسى – عليه السلام – إلها ، وأن الله ثالث ثلاثة ، ولذا كان القصر هنا قصر قلب ، حيث قلب اعتقادهم وأفاد أن المسيح مقصور على كونه رسولا يخلو كما خلت الرسل من قبله ، لا يتجاوز ذلك إلى مرتبة الألوهية التي اعتقدوها .

وتتكون حال المخاطب لدى المتكلم وترسم في ذهنه من خلال خبرته ومعرفته بشئون مخاطبه ، فعند التأمل تجد أن حال المخاطب تئول إلى المتكلم وما قد علمه ووعاه عن مخاطبه .. وفي كثير من الشواهد لا تستطيع أن تحدد مخاطبا أو تعين حالا له ، بل تجد القصر منظوراً فيه إلى حال المتكلم وما يحكيه عن نفسه .. تأمل قول الشاعر :

وكنت امرأ ألقى الزمان مسالما   فآليت لا ألقاه إلا محاربا

تجد القصر فيه قصر قلب ، فالشاعر قد تغير وتبدل وانقلب من امرىء يلقى الزمان مسالماً إلى امرىء لا يلقاه إلا محارباً ، وأنت إن ذهبت تفتش عن حال هنا لا تجد إلا حال المتكلم وحديثه عن نفسه .

وقد انشغل كثير من البلاغيين والدارسين بمسألة المخاطب هذه ، وخاضوا فيها خوضا ، وقالوا أقوالا كثيرة ، ولا نرى داعيا لإثارة مثل هذه الأمور أو الانشغال بها ؛ لأنها لا تعود على الدارس بفائدة ، والأمر مآله – كما قلت لك – إلى المتكلم وما يرتسم في ذهنه ويعلمه عن مخاطبه ... ونحن عندما

ندرس مسائل البلاغة فى التعبيرات الجيدة ، والأساليب الرفيعة ، إنما نتأمل السياق لنقف على قرائن الأحوال فيه ، وعندئذ نعرف الغرض من الكلام وما نهدف إليه التراكيب ، وعلى ضوء هذا يتحدد المراد من القصر وغيره من فنون البلاغة .

قصر الصفة على الموصوف ، والموصوف على الصفة : وينقسم القصر باعتبار طرفيه : المقصور والمقصور عليه إلى قصر صفة على موصوف ، وقصر موصوف على صفة ، والمراد بالصفة هنا الصفة المعنوية التى هى معنى قائم بالغير سواء كان فعلا أو مصدرا أو مشتقا أو ظرفا أو جارا ومجرورا أو غير ذلك ، وليس المراد بها النعت النحوى ؛ لأنه لا يقع قصر بين نعت ومنعوته ، كقولك : جاء رجل فاضل ، ففاضل نعت نحوى للرجل . لا يفصل بينهما ولا يتصور بينهما قصر . . . كما أن المراد بالموصوف هنا كل ما قام به غيره ، وإن كان هو فى نفسه صفة ، تقول فى قصر الصفة على الموصوف : ما شاعر إلا زهير ، ما كتب فلان إلا الشعر ، ما أكرمت إلا زيدا . . . وفى قصر الموصوف على الصفة : ما شوقى إلا شاعر إنما أنت والد . . . محمد فارس لا عالم ، ما حاتم بخيلا بل جواد .

فقصر الصفة على الموصوف معناه : ألا تتجاوز الصفة ذلك الموصوف إلى موصوف آخر أصلا . إذا كان القصر حقيقيا . أو إلى موصوف آخر إذ كان القصر إضافيا ، ولا يمنع هذا أن يتصف الموصوف المقصور عليه بصفات أخرى غير تلك الصفة المقصورة تقول : الخالق هو الله ، فتقصر صفة الخالق على الله سبحانه وتعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا ، ومنه قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)(١) حيث قصرت صفة العبادة وكذلك صفة الاستعانة على الله تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا ، ومنه قوله تعالى : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ

---

(١) سورة الفاتحة الآية ٥

لا يعلمها إلا هو ..)[1] حيث قصر العلم بمفاتح الغيب على الله تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا فهو قصر صفة على موصوف .

ومنه قول أبي تمام :

لا يطرد الهم إلا الهم من رجل   مقلقل لبنات القفرة النعب[2]

فقد قصر الشاعر طرد الهم وهو صفة على الهم من رجل مقلقل لبنات القفرة وهو موصوف قصرا حقيقيا ادعائيا ؛ لأن الناس يطردون همومهم بأمور كثيرة ، ولكن الشاعر لم يعتد بشيء منها إلا بالرحلة التي غيرته وأضنته والتي كانت سببا في حزن صاحبته وانسكاب عبرتها ، فأراد أن يبين لها أن تلك الرحلة هي الوسيلة الوحيدة لطرد الهموم والأحزان . . . قال :

رأت تشنشه فاهتاج هائجها
وقال لاعجها للعبرة انسكبي
لا تنكري منه تخديدا تجلله
فالسيف لا يزدرى إن كان ذا شطب
لا يطرد الهم إلا الهم من رجل
مقلقل لبنات القفرة النعب

فهو لم يعتد بغير الرحلة في طرد همومه وأحزانه ، على الرغم من وجود وسائل كثيرة لطرد الهموم - كما قلت - ولذا كان القصر حقيقيا ادعائيا ..

ومنه قول الآخر :

---

(١) سورة الأنعام آية ٥٩ .

(٢) المراد بالهم الأول : ما يجده الرجل في صدره من أحزان ، والمراد بالهم الثاني : الهمة والعزيمة ، ومقلقل : من القلقلة وهي الحركة العنيفة ، وبنات القفرة : الإبل التي تقطع القفار ، والنعب مفردها نعوب ، والنعبان : تحريك الناقة رأسها في السير وهذا دليل النشاط والقوة .

إلى الله أشكو لا إلى الناس أنني
أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

قصرت صفة الشكوى على الله تعالى بحيث لا تتجاوزه إلى الناس فهو قصر إضافى ... وقول المتنبى فى رثاء جدته :

ولم يسلها إلا المنايا وإنما   أشد من السقم الذى أذهب السقما

فقد قصر سلوها على المنايا قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً تحقيقيا ، لأن جدته كانت قد اشتاقت إليه فى غيبته فلما وصلها كتابه قبلته وفرحت ثم أخبرت كذبا أنه قد مات فحمت وماتت، فرثاها بتلك القصيدة .. أما قوله : « وإنما أشد من السقم الذى أذهب السقم» فلك أن تجعله قصر صفة على موصوف، أى: قصر «أشد من السقم» على «الذى أذهب السقم»، والمراد بأشد من السقم : صفات الكآبة والألم والفقدان والوجع التى تغلب السقم وتقهره وتعلوه؛ لأنه لا يقهر الشىء إلا ما هو أشد منه وأقوى ؛ فهو يتخيل صفات كآبة أقوى من السقم ، ويقصرها على ما أذهب السقم، وهذا إغراب فى الخيال ...(١) .

ولك أن تجعله من قصر الموصوف على الصفة ، أى : قصر الذى أذهب السقم وهو المنايا على كونه أشد من السقم ، ويكون طريق القصر عندئذ هو التقديم ، و «إنما» ملغاة ، كما فى قوله :

أساميا لم تزده معرفة   وإنما لذة ذكرناها ..

وسيأتى تفصيل القول فى هذا ، وهو ما أراه وأرجحه ؛ لأن فى الأول تدقيقا وإغرابا فى الخيال ما أظن أن المتنبى قد قصد إليه .

---

(١) انظر دلالات التراكيب ص ٧٠

وقصر الموصوف على الصفة معناه : ألا يتجاوز الموصوف تلك الصفة إلى صفة أخرى أصلا ، إذا كان القصر حقيقيا . أو إلى صفة أخرى معينة إذا كان القصر إضافيا . وهذا لا يمنع أن تكون تلك الصفة المقصور عليها وصفا لموصوف آخر غير المقصور . فقولك ماعمرو إلا شجاع ، قصر لعمرو على صفة الشجاعة بحيث لا يتعداها إلى صفة أخرى ، أما الشجاعة ، فليس هنالك مايمنع من أن يتصف بها غير عمرو ، وتقول : زيد كاتب لا شاعر ، فتقصر زيداً على صفة الكتابة بحيث لا يتجاوزها إلى صفة الشعر ، فهو قصر إضافى وتقول : ماشوقى إلا شاعر ، فتقصر شوقيا على صفة الشعر بحيث لا يتجاوزها إلى صفة أخرى ، فهو قصر حقيقى ، ولا يقال : كيف يوقف الموصوف على صفة واحدة ؟ هـــذا محال ولا يتأتى ؟ . . . لأننا نقول : المراد بالصفات المنفية ، تلك الصفات التى تتصل بالمعنى المذكور ، فالصفة المقصور عليها فى المثال ، صفة الشعر ، ومعنى قصر شوقى عليها قصرا حقيقيا ، أنك نفيت عنه كل مايتصل بها ويدور فى فلكها أو كما يقول عبد القاهر ، كل ما هو بسبيل منها ، كالكتابة والخطابة والفقه والحديث والنحو وما إلى ذلك ، فهو ليس بارعا فى فرع من فروع المعرفة إلا فى الشعر الذى قصر عليه ، وليس المراد أنك نفيت عنه كل صفة يمكن أن يوصف بها ، ككونه مصريا أو فقيرا أو أو مطيا معافا أو أبيض أو كريما أو شجاعاً . ليس هذا مراداً بل المراد ـ كما قلت ـ ماهو بسبيل من صفة الشعر المقصور عليها .

ومن شواهد قصر الموصوف على الصفة قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ)(١) ، حيث قصر الرسول صلى الله عليه وسلم على صفة الإنذار ، لا يتجاوزها إلى أن يملك تحويل القلوب المشركة ، عما هى عليه من العناد والمكابرة . . . وقوله عليه

(١) سورة فاطر الآية ٢٢ ، ٢٣

الصلاة والسلام : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم والله عز وجل يعطى ... » .

فقد قالوا فى معناه : كان بعض الصحابة يسمع الحديث ولا يفهم منه إلا الظاهر الجلى ، ويسمعه آخرون منهم فيستنبطون منه المسائل الكثيرة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حين يحدثهم يكون كلامه مقسوما بينهم ، شركة بين الجميع ، أما الفهم والاستنباط فهو من عطاء الرحمن ، ففى الحديث قصر للرسول عليه الصلاة والسلام على كونه قاسما لا يتجاوز تلك الصفة إلى الإعطاء فالإعطاء وتحقيق الفهم من الله تعالى ، وكأن الصحابة رضوان الله عليهم لفرط اعتقادهم فى هدايته عليه الصلاة والسلام ـ رأوا أنه يقسم ويعطى ، ولذا بين لهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه لا يملك إلا القسم ، وأما الإعطاء فمن الله تعالى ، فالقصر قصر موصوف على صفة قصرا إضافيا إفراديا .

ومنه قول دريد بن الصمة :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد

حيث قصر الشاعر نفسه على كونه من تلك القبيلة لا يتعداها إلى غيرها من القبائل ، فهو قصر حقيقى تحقيقى . وقول شوقى :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فقد قصر الأمم على الأخلاق قصر موصوف على صفة قصرا حقيقيا ادعائيا ، فهناك أمور كثيرة تكون بها الأمم كالقوة والمال والرقى والحضارة وغير ذلك ، ولكن الشاعر لم يعتد بها وجعل الأمم مقصورة على صفة الأخلاق لا تتعداها إلى غيرها ، فإذا وجدت الأخلاق وسادت كانت الأمم وإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا .

ومثله قول الآخر :

هل الجود إلا أن تجود بأنفس
على كل ماضى الشفرتين صقيل

حيث قصر الجود على الجود بالأنفس قصر موصوف على صفة قصرا حقيقيا ادعائيا ، فالشاعر لم يعتد بما عدا الأنفس مما يمكن أن يبذل كالمال والرأى والجهد وغير ذلك من ضروب البذل. وجعل الجود مقصورا على كونه بالأنفس فقط ، إذ الجود بالنفس أسمى غاية الجود .

ولا يخفى عليك أن قصر الموصوف على الصفة يفيد بلوغ الموصوف الغاية ، ووصوله حد النهاية فى تلك الصفة ، فقولك « مازهير إلا شاعر » يفيد كال المبالغة فى شاعريته ، وأنه قد بلغ الغاية فى الشعر . ووصل إلى حد جعلنا لانعتد بالصفات الأخرى التى يمكن أن يتصف بها ، وذلك لقصور تلك الصفات عن صفة الشعر التى تفوق فيها ووصل إلى حد النهاية ... ولذا كان قولنا : « مازهير إلا شاعر » أبلغ فى وصفه بالشاعرية من قولنا « ماشاعر إلا زهير » أو بمعنى آخر : يكون قصر الموصوف على الصفة أبلغ وأكمل وأقوى فى اتصاف الموصوف بتلك الصفة من قصر الصفة على الموصوف ، لاحتمال كون هذه الصفة التى قصرت على الموصوف دون المستوى الأمثل إذ لم تصل إلى حد الكمال كل ما هنالك أنها وجدت فى زهير دون غيره من الناس ...

هذا والمراد بالصفة - كما قلت - الصفة المعنوية التى هى معنى قائم بغيره كما أن المراد بالموصوف ماقام به غيره وإن كان هو فى نفسه صفة ، وقد نظر البلاغيون فى جملة القصر ووضعوا لك ضوابط تعينك على تحديد كل من الصفة والموصوف ، حيث ذكروا أن القصر إذا وقع بين ركنى الجملة الاسمية ، فإن قصر المبتدأ على الخبر يكون من قصر الموصوف على الصفة كقولك: مازيد إلا أخوك وإنما محمد كاتب، وقوله تعالى: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

إلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ)[1] وقولك : إنما زيد فى الدار ، وما الجود إلا أن تجود بالنفس، إلا إذا كان الخبر اسما جامدا والمبتدأ مشتقا، فإن القصر يكون من قصر الصفة على الموصوف كقولك: ما الكاتب إلا زيد، وما القائم إلا عمرو، لأنك أردت الحكم على الكاتب بأنه زيد، وعلى القائم بأنه عمرو ، فالكاتب مبتدأ خبره زيد والقائم مبتـــدأ خبره عمرو ، والقصر قصر صفة على موصوف .

وقصر الخبر على المبتدأ من قصر الصفة على الموصوف كقوله تعالى : (مَا عَلَى الرَّسُولِ إلاَّ الْبَلاَغُ)[2]، وقوله عز وجل (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)[3] فقد قصرت مهمة الرسول على البلاغ قصر صفة على موصوف ، أما قوله : « وعلينا الحساب » فهو قصر للمبتدأ « الحساب » على الخبر « علينا » ، قصر موصوف على صفة قصرا حقيقيا تحقيقيا .

وإذا وقع القصر بين أجزاء الجملة الفعلية ، فإن قصر الفعل على الفاعل يكون من قصر الصفة على الموصوف كقولك: ما كتب إلا محمد ، لا ينال العلا إلا المجد، ومنه قول القائل: لا يطرد الهم إلا الهم من رجل». وقوله جل وعلا: (لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ)[4] وقوله تعالى: (هَلْ يُهْلَكُ إلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)[5] وقوله : (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ)[6] ، وقوله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)[7] .

وقصر الفعل على المفعول كقولك : ما ضرب محمد إلا زيدا ، وإنما أكرم

---

(١) سورة الحديد آية ٢٠ (٢) سورة المائدة آية ٩٩

(٣) سورة الرعد آية ٤٠ (٤) سورة الأنعام آية ٥٩ .

(٥) سورة الأنعام آية ٤٧ (٦) سورة آل عمران آية ١٣٥

(٧) سورة فاطر آية ٢٨ .

زيد عمراً وكما فى الآيات الكريمة : « مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ » . . « إِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ » . . « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ » ، وكقولهم: إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ، يجوز أن يعد من قبيل قصر الصفة على الموصوف أى : قصر الفعل الواقع من الفاعل على المفعول فيكون المعنى عندئذ : ما مضروب محمد إلا زيد ، ما مكرم زيد إلا عمرو ، ما مقولى إلا ما أمرتنى به ، ما مهلكهم إلا أنفسهم، ما متبوعهم إلا الظن، ما مأكول الذئب إلا الغنم القاصية ، فتؤول الصفة المقصورة اسم مفعول . لأن الحدث لم يقع من المفعول المقصور عليه وإنما وقع عليه . . . ويجوز أن يعد من قبيل قصر الموصوف على الصفة ، أى : قصر الفاعل على الفعل الواقع على المفعول ، ففى الأمثلة المذكورة قصر محمد على ضرب زيد ، وزيد على إكرام عمرو ، وعيسى عليه السلام على قول ما أمره الله به . . . إلى آخر تلك الشواهد . . . وتلاحظ مدى التكلف فى الوجه الأول ، وأن الوجه الثانى غير ممكن إذا كان طريق القصر « إنما » ، لأنه يؤدى إلى أن المقصور عليه قد ولى إنما ، ومعلوم أن المقصور عليه بإنما هو المؤخر . . . والأولى من هذين الوجهين أن يجعل الفعل مقصوراً على تعلقه بالمفعول ، تقول فى الشواهد المذكورة ، قصر ضرب محمد على تعلقه بزيد ، وإكرام زيد على تعلقه بعمرو ، وقول عيسى على تعلقه بما أمره الله به ، وأكل الذئب على تعلقه بالغنم القاصية ، وهكذا فى بقية الشواهد المذكورة .

وقصر الفاعل على الظرف نحو : ماسافر خالد إلا يوم الخميس ، أو على المفعول لأجله نحو : مازرتك إلا محبة ، وقوله عز وجل : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ)[١]، أو على المفعول المطلق نحو : ماقلت إلا قول المخلصين ، ماحججت إلا حجتين ، وقوله تعالى : (إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا)[٢] أى : ظناً ضعيفاً ، أو على التمييز كقولك : ماطاب محمد إلا نفساً، أو على الجار

(١) سورة الزمر آية ٣ (٢) سورة الجاثية آية ٣٢

والمجرور نحو : ما عملت إلا فى بيتك ، وما دافعت إلا عنك ، أو على غير ذلك من المتعلقات التى يقع فيها القصر ، فإن القصر فيها يكون إما من قصر الموصوف على الصفة ، أو من قصر الصفة على الموصوف بالاعتبارات الموضحة فى قصر الفاعل على المفعول .

وقصر صاحب الحال على الحال من قصر الموصوف على الصفة نحو ما جاء على إلا راكبا ، ومالقيته إلا ضاحكا ... ما انتصر المسلمون إلا وهم متحدون .

وقصر الحال على صاحبها من قصر الصفة على الموصوف نحو ما جاء راكبا إلا خالد ، مالقينى مرحبا إلا عمرو ، ما انصرف غاضبا إلا زيد .

وأما المفعول المطلق المؤكد لعامله ، والمفعول معه فلا يتأتى فيهما القصر إذ لا يقال . « ماضربت إلا ضربا ، ولا « ماسرت إلا والنيل ، أما قوله تعالى: (إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا) ، فمعناه : إن نظن إلا ظنا ضعيفاً . فهو مصدر مبين للنوع .

ما الفرق بين القصر الحقيقى الادعائى والقصر الإضافى : وكما مر بك فى أنواع القصر ، فإن القصر الحقيقى الادعائى المنفى فيه عام . إذ يشمل كل ماعدا المقصور عليه ادعاء ومبالغة ، فقولك : ماشاعر إلا زهير ، قصر لصفة الشعر على زهير بحيث لاتتعداه إلى غيره من الشعراء على سبيل المبالغة ، وكذا قولك: مازهير إلا شاعر ، قصر لزهير على صفة الشعر لايتعداها إلى غيرها أصلا ، وهذا يعنى أنه قد تفوق فى هذه الصفة وبلغ فيها الغاية ، إلى درجة جعلتك لاتعتد بأى صفة أخرى غيرها . أما القصر الإضافى فالمنفى فيه محدد وليس عاماً ، تقول : زهير شاعر لا كاتب ، فتقصر زهيرا على الشعر وتنفى عنه الكتابة ، إفراداً أو قلباً أو تعييناً حسب اعتقاد المخاطب وتقول حاتم جواد لا على فتقصر صفة الجود على حاتم وتنفيها عن على .

هذا وعند التحقيق والتأمل تجد أن القصر الإضافي بأنواعه الثلاثة ، إما أن يكون تحقيقيا وإما أن يكون ادعائيا ، لأن قولك : حاتم جواد لا علي ، إذا كان مطابقا للواقع بمعنى إن يكون حاتم هو الكريم فعلا ، وعلى هو البخيل ، كان القصر تحقيقيا ، وإن كان علي كريما و لكنك لم تعتد بكرمه لأمر ما، فجعلت حاتما هو الجــواد دونه كان القصر ادعائيا مبنيا على المبالغة . . . وكذا القول في قصر الموصوف على الصفة ، فقولك : زهير شاعر لا كاتب . إن كان فعلا لا يجيد الكتابة ولا يعرف طرقها وفنونها ، كان القصر تحقيقيا . وإن كان يعرفها ولكنك لم تعتد بتلك المعرفة لكونه في الشعر أفصح وأبلغ كان القصر مبنيا على الادعاء والمبالغة.

طرق القصر :

عرفت فيما سبق أن طرق القصر التي اصطلح عليها البلاغيون أربعة ، العطف والنفي والاستثناء وإنما والتقديم وأضاف بعضهم طريقين آخرين وهما : توسط ضمير الفصل وتعريف أحد ركني الإسناد بأل . وقد اشتهرت هذه الطرق عند البلاغيين ، ولكن إفادة القصر ليست مقصورة عليها ، فهناك طرق كثيرة غيرها ، وقد ذكر السيوطي أن طرق القصر بلغت أربعة عشر طريقا ، كما أن القصر يفاد بغير تلك الطرق المعهودة على نحو ما مر بك ، ولكن ليس وراء إفادة القصر بغير طرقه المعهودة اعتبارات تذكر ، ولذا لم يلتفت البلاغيون لغير هــذه الطرق المشهورة ، الغنية بالاعتبارات والملاحظات البلاغية . . . وإليك بيان تلك الطرق وما يكمن وراء دلالتها على القصر من مزايا وأسرار بلاغية .

١ ــ العطف بلا وبل ولكن : تقول : زيد كريم لا عمرو ، وفلان جواد لا بخيل ، وهو يدعوك إلى الخير لا إلى الشر ، وخالد ينصحك مخلصا لا مرائيا ، وجاء خالد لا عمرو ، وليس حاتم بخيلا بل جواد ، ولم ينصحني عمرو لكن صديقه . . . فتجد أن القصر قد أفيد بأحد الحروف المذكورة

وواضح أن طريق العطف يصرح فيه بكل من المثبت والمنفى ، أى : المقصور عليه والمنفى عنه ، ولذا كان أقوى طرق القصر وآكدها ، لأن غيره من الطرق لا يصرح فيها بالنفى بل يفهم ضمنا كما سترى .

وعلى الرغم من أن فائدة التأكيد أقوى فى هذا الطريق ، فإن مزية الإيجاز فيه تتضاءل للتصريح فيه بالإثبات والنفى كما قلت .

و « لا » صالحة لكل أنواع القصر ، والمقصور عليه بها هو المقابل لما بعدها ويشترط لدلالتها على القصر أن يكون المعطوف بها مفردا وألا يتقدمها نفى أو نهى وألا يكون ما بعدها داخلا فى عموم ما قبلها ، تقول : زيد شاعر لا غير فتفيد قصر زيد على صفة الشعر قصرا حقيقيا . . . وتقول : زيد شاعر لا كاتب فتفيد قصره على الشعر قصرا إضافيا .

وتأمل قول أبى تمام :

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى
متونهن جلاء الشك والريب (١)

تجده قد قصر السيوف التى حققت النصر وفتحت عمورية على كونها بيض الصفائح ، مشرقة لامعة ، ونفاها عن كونها سود الصحائف : سوداء مظلمة ، فالمقصور عليه - كما ترى - هو المقابل لما بعد لا ، ثم قصر جلاء الشك والريب ، على كونه فى متون هذه السيوف أى : جوانبها ، ونفاه عن كتب المنجمين ، وطريق هذا القصر هو التقديم الآتى بيانه . . . ولا يخفى عليك

---

(١) بيض الصفائح : كناية عن السيوف وسود الصحائف : كناية عن كتب المنجمين ، متونهن : جوانبهن ، جلاء : كشف وإزالة ، الريب : الظنون ، يقول : إن السيوف البيضاء هى التى تزيل الشك وتظهر الحقيقة ، أما صحائف المنجمين السوداء فإنها تضيع الحقائق وتنشر الأباطيل ، والبيت من قصيدة له فى فتح عمورية .

ما وراء أسلوب القصر في البيت من توبيخ وتحقير لهؤلاء المنجمين وما تخبر به صحفهم .. ومثله قوله في هذه القصيدة أيضا ، محقرا كتب المنجمين :

والعلم في شهب الأرماح لامعة
بين الخميسين لا في السبعة الشهب

حيث قصر العلم على كونه في شهب الارماح ونفاه عن النجوم التى يستقى منها المنجمون « السبعة الشهب » .

وانظر إلى قول الآخر :

عمر الفتى ذكره لا طول مدته
وموته خزيه لا يومه الدانى

فقد قصر عمر الفتى وحياته على ما يخلفه من أثر طيب وذكر حسن ونفاه عن طول مدته وامتداد أجله في الدنيا كما قصر الموت على ما يرضى به بعض الأحيا من خزى وهوان ونفاه عن اليوم الدانى ومفارقة الحياة ، ولعلك تشعر بما وراء القصر من حث على الأعمال الصالحة التى تنفع الإنسان وتبقى بعد حياته ، ومن تنفير من الذل والهوان والخزى ، فلا يقبل مثل هذا ويرضخ له إلا فاقد الحياة . .

و « لا » صالحة لكل أنواع القصر ـ كما ذكرت ـ تقول في قصر الصفة على الموصوف زهير شاعر لا عمرو ، وفي قصر الموصوف على الصفة : زهير شاعر لا كاتب وفي القصر الحقيقى : زهير شاعر لا غيره . . . وفي القصر الإضافى : خالد جواد لا عمرو ، فيكون قصر قلب أو إفراد أو تعيين حسب اعتقاد المخاطب على نحو ما مر بك . . . فإذا سبقت « لا » بنفى نحو : ما جاء زيد ولا عمرو أو نهى نحو : لا تفعل هذا ولا ذاك ، أو كان المعطوف بها

جملة نحو : زيد مقدام لا أبوه كريم ، والفقير يعطى من الصدقة لا أحد ينكر هذا ، أو كان ما بعدها داخلا فى عموم ما قبلها نحو : عاد الحجاج لا إبراهيم ، ونجح الطلاب لا خالد ، فعندئذ لا تدل على القصر ، لأنها لا تفيد إثبات أمر لآخر ونفيه عن غيره ، كما هو واضح فى الأمثلة .

و « بل » تفيد القصر إذا وليها مفرد ، وتقدمها نفى أو نهى ؛ لأنها فى هذه الحال تقرر حكم ما قبلها وتثبت ضـــده لما بعدها فتتضمن النفى والإثبات وذلك عماد القصر ، فقولك : ماجاء زيد بل عمرو ، يفيد نفى المجىء عن زيد وإثباته لعمرو ، فالمقصور عليه بل هو مابعدها . ويرى البلاغيون أنها صالحة للقصر الإضافى إفراداً وقلبا وتعيينا ، ولا تصلح للقصر الحقيقى ، لأن المنفى معها يكون أمرا محددا دائما . فإن جاء عاما لا يكون منفيا بل يكون مسكوتا عنه نحو : ماجاءنى أحد بل زيد فلا تفيد هذه الجملة سوى إثبات المجىء لزيد ، أما ماقبل «بل» وهو أحد فمسكوت عنه والمسكوت عنه لا يوصف بنفى ولا إثبات ، بل يرى الجمهور أن ماقبل « بل » مسكوت عنه حتى ولو كان محددا نحو : ماجاءنى زيد بل عمرو ، مازيد قائما بل قاعد .

ولذا فهى لاتفيد قصرا ، ويرى البعض أن النفى لما قبل « بل » ولما بعدها ، فقولك : ماجاء زيد بل عمرو ، يفيد نفى المجىء عنهما معاً ولذا فهى لاتفيد القصر ، لأن النفى والإثبات غير محقق[1] .

والذى أراه أن « بل » تفيد القصر بأنواعه ، الإضافى : قلبا وإفرادا وتعيينا ، والحقيقى : تحقيقيا وادعائيا ، فهذا مايفهم من الأساليب والتعبيرات ولا يمكن دفعه ولا إنكاره . تقول : ما جاء زيد بل عمرو ، فيكون قصر صفة على موصوف قصرا إضافيا ، وتقول : مازيد قائما بل قاعد[2] ، فيكون

---

(١) ارجع إلى شروح التلخيص ج ٢ ص ١٩٠ .

(٢) قاعد : لاتعرب نصبا عطفا على لفظ « قائما » ، لأن « ما » لا تعمل فى =

قصر موصوف على صفة قصرا إضافيا ، وتقول : ماجاءنى أحد بل عمرو ، فيكون قصرا حقيقيا ؟ ولا أرى معنى لكون ماقبلها مسكوتا عنه ، ولا لتوجه النفى لما بعدها . . أما إذا وقعت « بل » بعد الإثبات نحو جاء زيد بل عمرو ، فلا تفيد القصر ؛ لأن المعنى على أنك نقلت المجىء إلى التابع « عمرو » وجعلت المتبوع « زيد » فى حكم المسكوت عنه ؛ فالجملة لاتفيد سوى مجرد إثبات المجىء لعمرو وعندئذ فـلا قصر ، لأن القصر نفى وإثبات كما علمت .

ومن شواهد القصر ببل قول الشاعر :

ليس اليتيم الذى قد مات والده
بل اليتيم يتيم العلم والأدب

فقد قصر الشاعر اليتيم على صفة الحرمان من العلم والأدب ونفاه عن فقدان الوالد قبل بلوغ مبلغ الرجال ، فهو قصر موصوف على صفة قصرا إضافيا ، وأراه قصر قلب ، لأنه قلب ماهو راسخ فى الأذهان من أن اليتيم هو الذى قد مات والده قبل بلوغ سن الرجال ، وفيه حث على التزود بالعلم والتحلى بالأخلاق والآداب الرفيعة ، ففاقدهما هو اليتيم . . .

ومنه قول عبد الله بن المعتز :

ليس التعجب من مواهب ماله
بل من سلامتها إلى أوقاتها

حيث قصر التعجب على سلامة الأموال إلى أوقات الاحتياج ونفاه عن المواهب والعطايا ، لأن هباته وعطاياه ثابتة وواقعة فهى لا تستحق التعجب ، . . .

= المثبت وإنما تعمل فى النفى ، وتعرب رغما عطفا على محل « قائما » عند ابن ربيان وعليه أفاد الأسلوب القصر ، فإن أعربت خبرا لمبتدأ محذوف فلا قصر ، لأن ما بعد بل عندئذ يكون جملة .

وإنما التعجب من إصابة المحز وبلوغ الهدف المنشود حيث تبذل الأموال إلى مستحقيها وفى أوقاتها وتسلم لهذا .

و « لكن » تفيد القصر إذا سبقها نفى أو نهى ووليها مفرد ، « كبل » مثل : ما أكرمنى زيد لكن عمرو ، فقد قصر الإكرام على عمرو ونفى عن زيد ، فالمقصور عليه بلكن هو الواقع بعدها مثل « بل » تماما وهى صالحة للقصر الإضافى قلبا وإفرادا وتعيينا حسب اعتقاد المخاطب وللقصر الحقيقى بنوعيه ، ويرى بعض البلاغيين أنها لا تصلح للقصر الحقيقى ، لأن المنفى معها دائما يكون أمراً خاصا ، ويشترط البعض للقصر بلكن بالإضافة إلى ماذكر ألا تقترن بالواو ، وهذا ليس بشىء لأنا نراها فى الأساليب الجيدة والتراكيب الممتازة قد اقترنت بالواو وأفادت القصر ، انظر إلى قوله تعالى : (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)(١) ، فقد قصر النبى عليه الصلاة والسلام على الرسالة والختم لا يتجاوزهما إلى أبوة زيد ، قصر موصوف على صفة قصراً إضافيا ، ولكن مقرونة بالواو كما ترى .

ومنه قول الشاعر :

إن الجديدين فى طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس

فقد قصر الإفساد على الناس ونفاه عن الجديدين وهما الليل والنهار .

وقول عروة بن الورد :

وما شاب رأسى من سنين تتابعت على ولكن شيبتنى الوقائع

حيث قصر التشييب على الوقائع ونفاه عن تتابع السنين(٢) . . . ومن مجىء لكن مفيدة للقصر وهى غير مقرونة بالواو قول الشاعر :

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

(٢) لا يخفى عليك أن مابعد لكن فى البيتين جملة فدلالة لكن على القصر فيهما ، بناء على رأى بعض البلاغيين كما سترى .

ما نال فى دنياه وإن بغيـــة   لكن أخو حزم يجد ويعمل

فقد قصر نيل البغية على « أخو حزم » ونفاها عن المتراخى الكسول وفيه حث على الجد والاجتهاد ، فالدنيا كفاح وميدان تسابق والذى يصل إلى هدفه ويحقق غايته هو الجاد الذى يكد ويكدح ويسابق ويغالب .

وهذا الذى ذكرته لك هو أرجح الآراء وأولاها بالقبول فى دلالة تلك الحروف على القصر ، وهناك خلافات كثيرة حول هذه الدلالة ، فمن البلاغيين من يرى أن « لكن » لاتفيد القصر ، ومنهم من يرى أن « بل » مسكوت عما قبلها سواء سبقت بنفى أم لم تسبق ، — كما ذكرت لك — ومنهم من يرى أن « بل » لا ترد فى فصيح الكلام ، ومنهم من يرى أن لكن لقصر القلب دون الإفراد ، ومن يرى أنها للإفراد دون القلب ، ومنهم من يرى أن لكن وبل تدلان على القصر ولو كان معطوفهما جملة كما فى قول الشاعر :

ما افترينا فى وصفه بل وصفنا   بعض أخــــلاقه وذلك يكفى

وكما مر بك فى قول عروة :

وما شاب رأسى من سنين تتابعت   عــــلى ولكن شيبتنى الوقائع

وقول الآخر :

إن الجديدين فى طول اختلافهما   لايفسدان ولكن يفسد الناس

فمنهم من يرى أن « بل ولكن » فى الأبيات تدلان على القصر ، ومنهم من يرى أنهما يفيدان معنى القصر ، وليس ما فى الأبيات قصرا ، أى : ليس طريقا من طرقه ، لأنه مفاد من جملتين ومثله قولك : جاء عمرو لكن زيدا لم يأت ، وقلت لك هذا لكن ذلك لم أقله . . . وحتى « لا » التى هى رأس هذا الطريق

لم تسلم من تلك الخلافات ، فقد ذكر عبد القاهر أنها تفيد عكس ما يعتقد المخاطب ولا يؤتى بها إلا لذلك ، فهي عنده لقصر القلب دون غيره ، وقد رأيت أنها صالحة لكل أنواع القصر . . . إلى غير ذلك من الخلافات فهي كثيرة ، وقد أعرضنا عن مناقشتها لعدم الجدوى من تلك المناقشة .

٢ — النفي والاستثناء : تقول : ما القادم إلا زيد ، وما أنت إلا مصيب ، فتفيد قصر الصفة على الموصوف في الأول ، والموصوف على الصفة في الثاني ، ويستخدم هذا الطريق فيما ينكره المخاطب ويدفعه أو فيما يشك فيه ويرتاب . . . يقول عبد القاهر : « وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو : ما هذا إلا كذا ، وإن هو إلا كذا فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه ، فإذا قلت : ما هو إلا مصيب أو ما هو إلا مخطىء قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته ، وإذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت : ما هو إلا زيد لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد وأنه إنسان آخر ، ويجد في الإنكار أن يكون كذلك . . . »(١) .

تأمل قوله تعالى : (قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ ، وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ)(٢) ، تجده قد قصر الاتباع على الوحي لا يتجاوزه إلى غيره ، فهو قصر حقيقي ، وقد أوثر التعبير بالنفي والاستثناء ، إذ المخاطبون ينكرون ذلك ويدفعونه ، فهم يعتقدون أنه شاعر أو ساحر أو كاهن ، لا يقرون بالوحي ، بل يقولون : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا فلما كان المشركون منكرين أن يكون الرسول — عليه الصلاة والسلام — متبعاً لوحي يوحى إليه ويجحدون ذلك ويدفعونه ، جاء القصر « بإن وإلا » ليبدد هـــذا الإنكار ويدفع ذلك الجحود . . . ومثله قوله تعالى :

---

(١) دلائل الإعجاز ١٢٧ . (٢) سورة الأنعام آية ٥٠ .

(إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ)[1]، وقوله عز وجل : (حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)[2] فقد جاء القصر بالنفي والاستثناء فى الآيتين ، لأن المخاطب ينكر الحكم ويدفعه ، إذ الكفرة لا يقرون بالوحدانية ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - يدفع وينكر كون ما جاء به أساطير الأولين ، ويوقن إيقانا راسخا أنه حق من عند الله .

فهذا الطريق - النفي والاستثناء - يستخدم عندما ينكر المخاطب ويجحد الحكم أو عندما ينزل تلك المنزلة ، وسيتضح لك هذا عند الحديث عن أوجه الاختلاف بين طرق القصر .

ومثـــل النفي فى إفادة القصر ، النهى والاستفهام ، كما فى قوله تعالى : وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[3] ، فقد قصر غفران الذنوب على الله سبحانه وتعالى قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا تحقيقيا ، وطريقه هو النفي والاستثناء ، لأن الاستفهام فى الآية الكريمة مراد به النفي ، إذ المعنى : لا يغفر الذنوب إلا الله ومثله قوله تعالى : (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)[4] ، حيث قصر جزاء الإحسان على الإحسان قصر موصوف على صفة ، وطريقه هو النفي والاستثناء ، لأن الاستفهام بمعنى النفي .. وتقول : لا تفعل إلا الخير .. لا تصاحب إلا الوفى . . . لا تعتمد إلا على الله ، فتقصر الفعل على الخير والمصاحبة على الوفى والاعتماد على الله ، وطريق القصر - كما ترى - هو النهى والاستثناء .

---

(١) سورة آل عمران آية ٦٢ (٢) سورة النساء آية ٢٥ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٣٥ . (٤) سورة الرحمن آية ٦٠ .

والمقصور عليه فى طريق النفى والاستثناء هو المستثنى أى : الواقع بعد أداة الاستثناء ، سواء تقدم أو تأخر تقول : ماجاء إلا زيد فتقصير المجىء على زيد ، ويقول زهير بن أبى سلمى :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم

فقد قصر الحرب على الذى علموه وذاقوه من ويلاتها ، قصر موصوف على صفة . . . ويقول المتنبى :

لايدرك المجد إلا سيد فطن لما يشق على السادات فعال

قصر إدراك المجد على السيد الفطن الذى يستطيع إدراك مايشق على السادة الكرماء . . . وتقول : لا أختار الوفى إلا منكم . . . ولا أختار منكم إلا الوفى ، فتفيد بالأول : قصر اختيارك الوفى على كونه منهم ، ففيه مدح لهم وتنويه بشأنهم ، وأن من أراد الوفى فعليه بالاتجاه إليهم فهم جميعا أوفياء ، وتفيد بالثانى : قصر اختيارك منهم على الوفى ، وهذا يعنى أن فيهم الوفى وغير الوفى ، فأنت تختار الوفى وتترك غيره ، ولا يخفى عليك بعد مابين القولين .. وتأمل قول الشاعر يمدح بنى هاشم :

لو خـــير المنبر فرسانه ما اختار إلا منكم فارسا

تجده قد قصر اختيار الفارس على كونه منهم ، وهذا يعنى أنهم جميعا فرسان وأن المنبر لايتجه إلا إليهم حين يتاح له أن يختار فارسه ، ولو قال الشاعر : ما اختار منكم إلا فارسا ، لتغير المعنى ، إذ يصبح المراد : قصر اختيار المنبر منهم على الفارس دون غيره ، فهم ليسوا جميعا فرسانا . . . وتلاحظ فى البيت تقديم إلا وما وليها على المفعول « فارسا » وهو جزء من المقصور ـ كما عرفت ـ إذ المراد قصر اختيار المنبر فارسه عليهم دون غيرهم ، وهذا التقديم قد منعه بعض البلاغيين وقالوا : إنه يؤدى إلى قصر الفعل قبل تمامه ، وذهب البعض إلى أنه كلامان وليس كلاما واحدا ، فالمفعول المؤخر ،

مفعول لفعل محذوف دل عليه المذكور، والمعنى: ما اختار إلا منكم.. اختار فارساً، وتقول: ما أعطيت إلا زيداً درهماً؛ والمعنى: ما أعطيت إلا زيداً.. أعطيت درهماً، وكأنك لما قصرت الإعطاء على زيد، شعرت بحاجة السامع إلى نوع العطاء، فأردت أن تبينه فقلت: درهماً وحذفت الفعل والفاعل لدلالة ماتقدم عليهما . . . وبعضهم أجازه إذ صرح بالمستثنى منه، كأن يقال: ماضرب أحد أحداً إلا زيد عمراً، فزيد مستثنى من أحد الأول وعمرو مستثنى من أحد الثاني[1] . . . ومنهم من أجاز ذلك التقديم مطلقاً من غير تصريح بالمستثنى منه، وإن كان هذا التقديم قليلا في التعبيرات الجيدة، وحجتهم أن أداة الاستثناء لايخرج بها إلا شيء واحد وهو ما يليها، فلا يقع لبس فيما بعدها، فإذا قلت: ماضرب إلا محمد زيداً، لا يتوهم أن محمداً هو المستثنى وهو المقصور عليه وكذا قولك: ماشرب إلا اللبن محمد، لا يتوهم أن اللبن هو المقصور عليه المستثنى . . . وهذا هو الأولى بالقبول لوروده في التعبيرات الجيدة، وطالما قد عرف موضع المقصور عليه وحدد، إذهو دائما الواقع بعد أداة الاستثناء، فلا ضير بعدئذ أن تتقدم به الأداة أو تتأخر، وليس ثمة مانع من أن يتأخر جزء من المقصور عن المقصور عليه، لأن الأخير قد حدد وعين موطنه، والمهم ألا تتخلى أداة الاستثناء عن المستثنى وألا تزحزح عنه، لأن زحزحتها وتقديمها أو تأخيرها بدونه يغير المعنى.. وعد إلى الأمثلة المذكورة: ما اختار إلا منكم فارساً ما أعطيت إلا زيداً درهماً .. ما ضرب إلا محمد زيداً .. ما شرب إلا اللبن محمد .. ثم زحزح «إلا» وحدها وقل: مااختار منكم إلا فارساً.. ما أعطيت زيداً إلا درهماً.. ماضرب محمد إلا زيداً . . . ماشرب اللبن إلا محمد . . . تجد أن المعنى قد تغير وتبدل بتلك الزحزحة.

وخلاصة الأمر أن المقصور عليه هو ما يلي أداة الاستثناء سواء تقدمت به الأداة أو تأخرت، فالراجح أنه لامانع من هذا التقديم لوضوح

(١) انظر شروح التلخيص ٢/٢٢٧.

المراد وزوال اللبس بمعرفة موضع المقصور عليه . . . وتأمل قول المتنبي يتحدث عن نفسه في قصيدته التي رثى فيها جدته :

تغرب لا مستعظما غير نفسه ... ولا قابلا إلا لخالقه حكما
ولا سالكا إلا فؤاد عجاجة ... ولا واجدا إلا لمكرمة طعما

فقد قصر الاستعظام على نفسه ، والسلوك على فؤاد العجاجة وقبول الحكم على خالقه ، ووجود الطعم على المكرمة ، وواضح تقديم إلا بالمقصور عليه - في القصرين الأخيرين - على المفعول (حكما وطعما) وهو جزء من المقصور ، ولم يؤد هذا التقديم إلى خفاء ولا لبس لوضوح كل من المقصور والمقصور عليه ومثله قول الآخر :

الناس إلب علينا فليس لنا ... إلا السيوف وأطراف القنا ورد

والأصل : فليس لنا ورد إلا السيوف وأطراف القنا .

وجه دلالة النفي والاستثناء على القصر : النفي والاستثناء هو رأس باب القصر ، وهو الطريق الأم بين طرقه ، إذ نراهم يقيسون عليه غيره فيقولون مثلا . قولك : إنما زهير شاعر ، معناه : مازهير إلا شاعر . وقولك : لك هذا ، معناه : ماهذا إلا لك فلامنازعة في أن النفي والاستثناء يدل على القصر ، ولم يذهب أحد من البلاغيين إلى خلاف ذلك ؛ لأن دلالة الطريق على القصر دلالة واضحة وضوحا تاما وظاهرة ظهورا قويا ، وعلى الرغم من ذلك نرى البلاغيين يتحدثون عن وجه هذه الدلالة ، فيقولون : إن وجه دلالة النفي والاستثناء ، على القصر هو أن النفي في الاستثناء المفرغ وهو الذي ترك فيه المستثنى منه ففرغ الفعل الذي قبل إلا وشغل عنه بالمستثنى المذكور بعدها نحو : ماضرب إلا زيد وما فعل زيد إلا هذا وما كسوته إلا جبة ، يقولون النفي في هذا الاستثناء متوجه إلى مقدر عام وهو المستثنى منه ، لأن إلا للإخراج ، والإخراج يقتضي مخرجا منه ، ولابد أن يكون عاما ليتناول المستثنى وغيره ، فيتحقق الإخراج ، وأن يكون مناسبا للمستثنى في جنسه

وصفته فيقال فى الأمثلة المذكورة : ماضرب أحد إلا زيد .. ما فعل زيد شيئًا من الأشياء إلا هذا .. ما كسوته من اللباس إلا جبة ، وإذا كان النفى متوجها إلى هذا المقدر العام المناسب للمستثنى فى جنسه وصفته فعندما توجب من ذلك المقدر شيئاً بإلا أو غيرها من أدوات الاستثناء يكون القصر ، لأن ماعدا هذا المثبت يظل باقيا على صفة الانتفاء ، وكل قصر يفيد إثباتا ونفيا ، أى : إثبات المقصور للمقصور عليه ونفيه عما سواه ، على الإطلاق فى القصر الحقيقى ، أو عن معين فى القصر الإضافى ...

ويذكر السيوطى أن قولك : ماقام إلا زيد ، صريح فى نفى القيام عن غير زيد ويقتضى إثبات القيام لزيد ، قيل بالمنطوق ، وقيل بالمفهوم وهو الصحيح ، ولكنه أقوى المفاهيم(١) ..

أما جمهور البلاغيين فيرون أن « النفى والاستثناء » مثل التقديم و إنما ، الدلالة فى ثلاثتها نص على المثبت دون المنفى ، والخطب فى ذلك يسير ، لان البلاغيين نظروا إلى الجملة بعد تمامها ، والسيوطى نظر إلى مايتبادر إلى الذهن أولا ، فالذى يتبادر إلى ذهنك عند سماعك : ماقام إلا زيد ، هو نفى القيام عن غير زيد ، ثم يأتى بعد ذلك إثباته لزيد ، وكأنه تحقيق له وتحديد ، وتلك دقيقة جيدة فى تحليل دلالة العبارة ...

هذا وعندما تقول : مازيد إلا شاعر ، فتدخل النفى على الذات ، لا يكون القصد إلى نفى الذات ، لأن أنفس الذوات لا تنفى ، وإنما يتجه النفى إلى أوصافها وأحوالها التى يحددها السياق ، ففى المثال المذكور ، حيث لانزاع فى طول زيد وقصره ، ولا فى كرمه وشجاعته وما شاكل ذلك ، وإنما النزاع فى كونه شاعرا أو كاتبا أوخطيبا تناول النفى هذه "صفات" التى هى موضع النزاع فإذا قيل إلا شاعر ، جاء القصر(٢) ..

---

(١) انظر الإتقان ٢ / ٥٢٠ (٢) انظر الإيضاح ج ٢ ص ١٢ .

هل يفيد الاستثناء التام القصر ؟ . . لا خلاف بين البلاغيين فى أن الاستثناء التام المنفى نحو قولك : ما جاءنى أحد إلا زيد ، وما أكرمت أحداً إلا عمرا ، وقول المتنبى :

كأن لم يمت حى سواك ولم يقم　　على أحد إلا عليك النوائح

لا خلاف بينهم فى أنه يفيد القصر ، ولكن الخلاف فى جعله من طرق القصر الاصطلاحية ، فالبعض يرى أنه ليس قصراً اصطلاحيا بل هو قيد يصحح الحكم المنفى ، فإذا قلت : ما جاءنى أحد إلا زيد ، كان استثناء زيد قيدا مصححا للحكم ، لأن قولك : ما جاءنى أحد ، حصل به الحكم المنفى ، لكن لما كان هذا الحكم شاملا لزيد وهو لم يأت قيد المجىء بغير زيد ليصحح الحكم المنفى ، وحجتهم أن ماقبل الأداة كلام تام يحسن السكوت عليه ، فمناط الفائدة وهو الحكم قد حصل قبل الأداة ، وعندئذ يكون مابعدها كأنه قيد مصحح ... ويرى آخرون أنه قصر اصطلاحى كالاستثناء المفرغ ، ولكنه جاء على خلاف الأصل ، حيث صرح فيه بالمثبت له والمنفى عنه معاً ، والجمهور على أن الأصل فى طريق النفى والاستثناء النص على المثبت له فقط (١) . .

أما الاستثناء التام الموجب كقولك : جاء القوم إلا زيد ، وأكرمت الطلاب إلا المهمل ، فالصواب أنه ليس قصراً ، بل هو قيد مصحح للحكم لا غير ، وكأنك قلت : جاء القوم المغايرون لزيد ، وأكرمت الطلاب المغايرين للمهمل ، كما تقول : جاء القوم الصالحون . . . وقيل : إنه قصر لأن المعنى على قصر عدم المجىء على زيد ، وعدم الإكرام على المهمل ، وهذا ليس بقول ، والصواب هو الأول وهو أن الاستثناء التام الموجب يفيد القصر أى : الإثبات والنفى ولكنه ليس طريقا من طرقه ...

وخلاصة القول أن الاستثناء المفرغ كقولك : ماجاء إلا زيد ، قصر

(١) انظر شروح التلخيص ٢ / ٢٠٧

اصطلاحى باتفاق البلاغيين ، والاستثناء التام المنفى كقولك : ماجاء أحد إلا زيد، قصر اصطلاحى على الراجح ، والاستثناء التام الموجب كقولك : قام القوم إلا زيد يفيد القصر وليس قصراً على الراجح من أقوالهم ..

هل يجوز اجتماع «النفى والاستثناء» والعطف بلا ؟ . . طريق النفى والاستثناء لا يجتمع والعطف بلا ، فلا يجوز أن تقول : ما جاء إلا زيد لا عمرو ، وذلك لأن المنفى فى قولك : ما جاء إلا زيد ، عام فهو يشمل ما عدا زيدا : وعمرو داخل فى دائرة المنفى ، و «لا» العاطفة وضعها القوم لأن ينفى بها الشىء ابتداء ، لا لأن ينفى بها شىء قد نفى بغيرها ، يقول شيخ البلاغة : « ليس من كلام الناس أن يقولوا : مازيد إلا قائم لا قاعد ، وإن ذلك إنما لم يجز من حيث إنك إذا قلت : مازيد إلا قائم فقد نفيت عنه كل صفة تنافى القيام ، وصرت كأنك قلت : ليس هو بقاعد ولا مضطجع ولا متكىء ، وهكذا حتى لا تدع صفة يخرج بها من القيام، فإذا قلت من بعد ذلك : لا قاعد كنت قد نفيت بلا العاطفة شيئا قد بدأت فنفيته ، وهى موضوعة لأن تنفى بها ما بدأت فأوجبته ، لا لأن تفيد بها النفى فى شىء قد نفيته . . »[1] . . . ولذا عيب قول القائل :

لعمرك ما الإنسان إلا ابن يومه   على ما تجلى يومه لا ابن أمسه

وينبغى أن تفرق بين « لا » العاطفة و « لا » الداخلة على الجملة ، فإن الأخيرة يجوز أن تجتمع « والنفى والاستثناء » نحو : ما زهير إلا شاعر ، لا يقول أحد غير ذلك ، ماهذا إلا لك ، لا يشاركك فيه أحد ، ليس السكوت عن العيوب إلا جبنا ، لا يرى أحد غير ذلك ، وإنما كان هذا جائزا ، لأنك لم تنف « بلا » شيئا قد نفى قبل ، بل نفيت بها جملة مستقلة وأكدت بها جملة القصر السابقة ..

٣ - إنما : ودلالة إنما على القصر دلالة وضعية وعلى الرغم من ذلك

---

(١) دلائل الإعجاز ١٢٦

لم يفت البلاغيون أن يتحدثوا عن وجه دلالتها على القصر ، فقد ذكروا أنها تدل على القصر لتضمنها معنى « ما وإلا » ، واستدلوا على ذلك بوجوه ، منها : قوله تعالى : (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ)[1] بالنصب ، حيث ذكر المفسرون الذين يحتج بهم فى اللغة كابن عباس ومجاهد ونحوهما من الصحابة والتابعين ، أن المعنى : ماحرم عليكم إلا الميتة وهو المطابق لقراءة الرفع حيث يفاد القصر فى هذه القراءة بتعريف الطرفين ، فالآية فيها ثلاث قراءات وكلها تفيد القصر ، القراءة الأولى : « إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ » ، ببناء « حرم » للمعلوم ورفع « الميتة » ، وعلى هذه القراءة تكون « ما » اسم موصول وعائده محذوف والمعنى : إن الذى حرمه عليكم هو الميتة ، وهو قصر التحريم على الميتة وما بعدها وطريق القصر تعريف الطرفين ، والقراءة الثانية : « إنما حرم عليكم الميتة » ، ببناء « حرم » للمفعول ورفع الميتة ، وعلى هذه القراءة ، فما إما اسم موصول والمعنى : إن الذى حرم عليكم هو الميتة ، وإما كافة لإن والمعنى : ما حرم عليكم إلا الميتة ، وهذا قصر أيضا للتحريم على الميتة وما تلاها وطريقه تعريف الطرفين فى الأول وإنما فى الثانى ، والقراءة الثالثة : « إنما حرم عليكم الميتة » ببناء « حرم » للفاعل ونصب « الميتة » فما كافة لإن ، والمعنى : ما حرم عليكم إلا الميتة ، فهو قصر طريقه إنما ، وبهذا يتضح لك تطابق القراءات الثلاث فى إفادة القصر ، سواء كانت « ما » كافة لإن أو موصولة .

ومنها : قول من يحتج بقولهم من النحاة وهم من أخذوا اللغة من كلام العرب مشافهة : إن إنما لإثبات ما يذكر بعدها ونفى ما سواه ، أى : لإثبات الحكم المتضمن لما بعدها ونفى ما سوى ذلك الحكم ، وهذا القول من النحاة يقتضى تضمنها الإثبات والنفى كما وإلا ، إما فى قصر الموصوف على الصفة كقولك :

---

(١) سورة النحل آية ١١٥ .

إنما زيد قائم ، فهو لإثبات قيام زيد ونفى ماعداه من القعود ونحوه ، وإما فى قصر الصفة على الموصوف كقولك : إنما يقوم زيد ، فهو لإثبات قيام زيد ونفى ما سواه من قيام عمرو وخالد وبكر وغيرهم ، وهذا هو القصر الذى يدل عليه النفى والاستثناء …

ومنها : صحة انفصال الضمير معها كقولك : إنما يقوم أنا ، وإنما يكرم أنت ، وإنما يعطى نحن ، وذلك لأنه متى أمكن اتصال الضمير فلا يعدل إلى انفصاله إلا لغرض ، فلا يجوز أن تقول: يكرم أنت ولا يقوم أنا ولا يعطى نحن ، لإمكانك أن تقول : تكرم وأقوم ونكرم ونعطى ، فلما صح انفصال الضمير مع « إنما » دل ذلك على أنها بمعنى « ما وإلا » ، لأن إلا لا يليها سوى الضمير المنفصل كقولك : مايقوم إلا أنا ، « وما يكرم إلا نحن » وكقول عمرو بن معديكرب :

قد علمت سلمى وجاراتها ماقطر الفارس إلا أنا (١)

ومن ورود الضمير منفصلا بعد إنما قول الفرزدق وهو من الذين يستشهد بشعرهم على صحة التراكيب وبلاغتها :

أنا الذائد الحامى الذمار وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أومثلى (٢)

فقد قصر الدفاع عن أحسابهم عليه هو أو مثله ، قصر صفة على موصوف قصراً حقيقيا ادعائيا ، ولو قال ، إنما أدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى لكان قصراً لدفاعه على كونه عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم قصر موصوف على صفة ، ويكون قوله : « أنا أو مثلى » توكيدا لا مقصورا عليه ، وليس

---

(١) قطر بمعنى صرعه صرعة شديدة .

(٢) الذائد : من الذود وهو الدفاع ، والذمار : مايلزم الشخص حمايته من أهل ومال ونحوهما مأخوذ من الذمر وهو الحث .

هذا مراد الشاعر ، لأنه قصد إلى الفخر والاعتداد بنفسه وأنه هو المدافع عن أحسابهم دون غيره، ولم يقصد أنه يدافع عن أحساب قومه دون أحساب غيرهم، لأن هذا يتنافى ومقام المدح والفخر، تقول: إنما يفهم البلاغة المتذوق، فتجده أبلغ من قولك: إنما يفهم المتذوق البلاغة، لأن الأول أفاد قصر فهم البلاغة على الذواقة دون غيره ، والثاني أفاد قصر فهم المتذوق على البلاغة دون غيرها من العلوم ، فالأول هو المناسب لمقام المدح والتعظيم كما ترى ، ولا يقال : إن القصر في البيت طريقه تعريف الطرفين وأن « ما » موصولة وليست كافة لإن، والمعنى إن الذي يدافع عن أحسابهم هو أنا أو مثلي ، فيكون الداعي لفصل الضمير وقوعه خبراً وليس وقوعه بعد « إنما » التي بمعنى « ما وإلا » وذلك لأن المقام مقام فخر كما قلنا فهو يقتضي « من » الموصولة التي للعاقل ، وليس هنالك سر بلاغي ولا ضرورة شعرية تقتضي العدول عن « من » إلى « ما » ، ولذا فليست « إنما » إلا مركبة من « إن » وما الكافة ...

وأضاف السكاكي وجها لطيفا لإفادة « إنما » القصر ، يسند إلى علي بن عيسى الربعي وهو أنه لما كانت كلمة « إن » لتأكيد إسناد المسند إلى المسند إليه ثم اتصلت بها « ما » المؤكدة ، وليست ما النافية كما يظنه من لا وقوف له على علم النحو ، ناسب أن يضمن معنى القصر ، لأن القصر ليس إلا تأكيدا على تأكيد ، وعلى الرغم من لطافة هذا الوجه فإنه لا يصلح دليلا لإفادة إنما القصر ، لعدم اطراده في كل الأساليب التي يجتمع فيها مؤكدان نحو : إن زيداً لقائم(١) . .

وأضاف بهاء الدين السبكي أن من الأدلة على إفادة « إنما » القصر قوله تعالى : (إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ) ، وقوله عز وجل : (إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ . .) ، وقوله جل وعلا : (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي . .) ، فإنه إنما يحصل مطابقة الجواب إذا كانت إنما للحصر ليكون معناه لا آتيكم

(١) انظر الإيضاح ١٤/٢

به إنما يأتى به الله ، ولا أعلمها إنما يعلمها الله[1] ..

وتلك إضافة جيدة ، فقد نظر ابن السبكى إلى استعمالات إنما فى التراكيب ولم ينظر إلى ما قاله العلماء وأهل صناعة الكلام فى شأنها ، وعندما نتأمل سياق الآيات الكريمة التى أشار إليها تجد أن « إنما » يتحتم أن تكون للحصر، تأمل سياق الآية الأولى : (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالُوا : أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ : إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)[2] ، تجد أن القوم قد طلبوا العذاب الذى أنذرهم به هود ـ عليه السلام ـ واستعجلوا وقوعه ، فأجابهم بأن مهمته إنما هى تبليغ ما أرســـل به وأن العلم بوقوع العذاب عند الله وحده ، لا يتعداه إلى هود فما هود إلا مبلغ ، وبهذا يتضح لك أن قوله تعالى : « إنما العلم عند الله » يدل على القصر لا محالة... وتأمل سياق الآية الثانية : (قَالُوا . يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ : إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ)[3] فالمراد يأتيكم به الله إن شاء لا أنا ، لأن مهمته ـ عليه السلام ـ تقف عند حد التبليغ. وانظر فى سياق الآية الثالثة : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ)[4] ، أريد : علمها عند ربى وليس عندى ، فالسياق ـ كما رأيت ـ يقتضى أن تكون « إنما » للقصر لإفادتها النفى والإثبات معاً ..

---

(١) انظر شروح التلخيص ١٠٣/٢

(٢) سورة الأحقاف آية ٢١ ـ ٢٣

(٣) سورة هود آية ٣٢ ـ ٣٣ (٤) سورة الأعراف آية ١٨٧

هذا والمقصور عليه « بإنما » هو المؤخر دائماً، تقول فى قصر العلم على محمد ، إنما العالم محمد ، وفى قصره على العلم ، إنما محمد عالم ، وتأتى « إنما » لإفادة كل أنواع القصر ، فهى تفيد القصر الحقيقى بقسميه التحقيقى والادعائى كما تفيد القصر الإضافى بأنواعه الثلاثة: القلب والإفراد والتعيين. اقرأ قوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)(١)، تجد إرادة الشيطان قد قصرت « بإنما » على إيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين فى الخمر والميسر وصدهم عن الذكر والصلاة ، فهو قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً غير تحقيقى ، لأنه مبنى على المبالغة ، إذ الشيطان يسلك كل طريق لكى يبعد العبد عن طاعة ربه ، ولكن لما كانت هذه الأمور وهى الخمر والميسر والصلاة والذكر من الخطورة بمكان فقد قصرت إرادة الشيطان عليها وكأن ماعداها لا يعتد به إذا ماقورن بها . ولما كانت « إنما » تستعمل فى الأمور المعلومة التى لا تنكر ولا تدفع - كما سيأتى - فقد أوثرت بالتعبير هنا لتنبيه بأن هذا الأمر من الأمور المعلومة التى لا ينكرها أحد ولا يدفعها مدافع . . ومثله قوله تعالى : (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)(٢) ، حيث قصر مايأمر به الشيطان على السوء والفحشاء والقول على الله بلا علم قصراً حقيقياً وقوله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)(٣) ، حيث قصر خشية الله على العلماء قصراً حقيقياً غير تحقيقى ، لأن غير العلماء يخشون الله تعالى ، بل قد يكون غير العالم أشد خشية لله من العالم ، ولكنه لم يعتد بذلك ، لأن المقام مقام حث على العلم والنظر والتأمل فى عجيب صنع الله ، وقد مرت بك هذه الآية الكريمة ، فارجع إلى ماقلناه فيها . . وقوله تعالى : (فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ

(١) سورة المائدة آية ٩١ (٢) سورة البقرة آية ١٦٩

(٣) سورة فاطر آية ٢٨

عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[1] إذ المراد أن من بدل الوصية وحرفها وغير حكمها ، فالإثم واقع عليه وحده ، والله سبحانه وتعالى مطلع عليه وكاشف أمره ، وواضح أن القصر فى الآية قصر صفة الإثم أو العقاب على الذين يبدلون . قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا تحقيقيا .

وانظر إلى قول شوقى :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

تجده قد قصر الأمم على الأخلاق قصر موصوف على صفة قصرا حقيقيا ادعائيا ، وهذا القصر ينبىء بقيمة الأخلاق وأهميتها فى بناء الأمم والشعوب حيث لم يعتد الشاعر بما سواها مما يمكن أن يساهم فى بناء المجتمعات . . وتقول : إنما زهير شاعر ، فتفيد قصر زهير على صفة الشعر لا يتعداها إلى صفة الكتابة ، فيكون قصرا إضافيا إما قصر قلب أو إفراد أو تعيين ، حسب اعتقاد المخاطب ـ كما مر بك ـ وتأمل قوله تعالى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)[2] ، تجد قصر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صفة الإنذار لا يتعداها إلى الإتيان بالآيات ، فهو قصر إفراد ، إذ يعتقد الكافرون أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يجمع بين صفتى الإنذار والإتيان . . . وقد ذكر عبد القاهر[3] أن « إنما » لا تستعمل إلا فى قصر القلب ، والصواب ماذكرناه وهو أنها تستعمل فى كل أنواع القصر كما رأيت فى الشواهد وهو ماعليه جمهور البلاغيين .

<u>هل تفيد « أنما » القصر ؟</u> : يرى بعض العلماء كالزمخشرى والبيضاوى والتنوخى ، أن « أنما » من طرق القصر ، فهى كإنما بالكسر فى الدلالة على

---

(١) سورة البقرة آية ١٨١ (٢) سورة الرعد آية ٧ .

(٣) ارجع إلى دلائل الإعجاز ٢٢٠ .

القصر، لأنها فرع عنها، وما ثبت للأصل يثبت للفرع.، ومن ذلك قوله تعالى (قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ)[1]، وقوله عز وجل: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ)[2] والذى أراه - والله أعلم - أن «ما» فى «أنما» زائدة للتأكيد وأن المراد فى الآية الأولى: قصر «يوحى إلى» على «أنما إلهكم إله واحد» والمعنى ما يوحى إلى فى أمر الإله إلا وحدانيته، والمراد فى الآية الثانية قصر الرسول - عليه الصلاة والسلام - «أنا» على بقية الجملة، أى على كونه بشراً مثلهم يوحى إليه أن إلههم إله واحد..

ح - التقديم: ومن طرق القصر «التقديم» وهو باب واسع من أبواب البلاغة، تكمن وراءه العديد من المزايا والأسرار البلاغية، وعد إلى تقديم المسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل فى الجزء الأول. فقد تكفل بيان هذه المزايا وتلك الأسرار، ومرادنا هنا أن نبرز دلالة التقديم على القصر.. تأمل قولك: ما أنا قلت هذا الشعر، فقد دل تقديم المسند إليه وإيلاؤه أداة النفى على القصر، أى: نفى قول الشعر عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره. ومن ذلك قول المتنبي:

وما أنا أسقمت جسمى به ولا أنا أضرمت فى القلب نارا

وقوله أيضا:

وما أنا وحدى قلت ذا الشعر كله
ولكن لشعرى فيك من نفسه شعر

فتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى بعد أداة النفى، يفيد - غالبا - الاختصاص، ولذا كان من الخطأ أن تقول: ما أنا قلت هذا ولا قاله أحد

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٨ (٢) سورة الكهف آية ١١٠

غيرى ، أو تقول : ما أنا قلت شعراً ، أو ما أنا أكرمت إلا زيداً(١) ..

وكذا تقديم المسند إليه فى الإثبات كقولك : أنا سعيت فى حاجتك ، ومحمد يقرى الضيف ، فإنه يفيد القصر أو التقوية وتأكيد الحكم ، حسبما يقتضيه السياق وقرائن الأحوال ، والنكرة فى هذا كالمعرفة تقول : ما رجل جاءنى ، فيفيد تقديم النكرة : القصر أى : نفى المجىء عن جنس الرجال وقصره على جنس النساء ، والمعنى : ما رجل جاءنى بل امرأة ، أو نفيه عن الواحد وإثباته لغيره ، والمعنى : ما رجل جاءنى بل أكثر .. وتقول : رجل جاءنى ، فيفيد تقديمها تقوية الحكم وتأكيده أو القصر ، أى قصر المجىء على جنس الرجال ونفيه عن جنس النساء ، والمعنى : رجل جاءنى لا امرأة ، أو قصره على العدد ، والمعنى : رجل جاءنى لا رجلان ..

ومن تقديم المسند الذى أفاد تقديمه القصر قوله جل وعلا : (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)(٢) ، وقوله تعالى : (لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ)(٣) وقوله عز وجل : (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)(٤) .. ومنه قول عمرو بن كلثوم :

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

وقول الآخر :

رضينا قسمة الجبار فينا لنا علم وللأعداء مال

وقوله :

لنا القلم الأعلى الذى بشباته يصاب من الأمر الكلى والمفاصل(٥)

(١) ارجع إلى الجزء الأول لتعرف وجه الصحة والصواب لتلك الأقوال..
(٢) سورة الكافرون آية ٦ (٣) سورة الصافات آية ٤٧
(٤) سورة آل عمران آية ١٨٩
(٥) شباة كل شىء حدة طرفه وجمعها شبوات بفتح الشين فى المفرد والجمع ، والمراد أنهم يصيبون الحز بما يكتبون ويقولون فالبيت كناية عن الفصاحة وإجادة القول ، والكلى : جمع كلية بضم الكاف .

ومن تقديم أحد المتعلقات على الفعل قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)(١) وقوله جل وعلا : (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)(٢)... ومنه قول شوقى فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة بالحق من ملل الهدى غراء

وقول الآخر :

إلى الله أشكو لا إلى الناس أننى

ارى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

وتقول : ما بهذا أمرتك .. ما زيداً أكرمت . فيكون كلاما مستقيما ، لأنك قصرت الأمر والإكرام المنفيين على المقدم أى: نفيت الأمر عن الجار والمجرور المقدم وأثبته لغيره ، ونفيت الإكرام عن زيد وأثبته لغير زيد ، فإن قلت : ما بهذا أمرتك ولا بغيره .. ا زيدا أكرمت ولا أحدا من الناس قلت ما ليس بقول(٣): .

هذا والمقصور عليه بهذا الطريق هو المقدم دائما : وهو صالح لكل انواع القصر ، فقوله تعالى : « إياك نعبد » قصر للعبادة على الله قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا تحقيقيا ، وقول عمرو: « لنا الدنيا ومن أضحى عليها » قصر للدنيا ومن عليها على كونها لهم قصر موصوف على صفة قصرا حقيقيا ادعائيا ، وقول الآخر : « إلى الله أشكو لا إلى الناس » قصر إضافى صالح لأن يكون قلبا أو إفراداً أو تعيينا حسب اعتقاد المخاطب . .

---

(١) سورة الفاتحة الآية ٥

(٢) سورة هود الآية ١٢٣

(٣) ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب

٥ ـ ضمير الفصل : ومن طرق القصر التي أقرها بعض البلاغيين ضمير الفصل وهو أن يعقب المسند إليه بضمير الفصل لتخصيصه بالمسند بمعنى جعل المسند مقصورا على المسند إليه ، كقولك : زهير هو الشاعر ، ففيه قصر لصفة الشعر على زهير ، لا تتعداه إلى غيره ، وطريق القصر هو الفصل بالضمير ، وهذا الضمير حرف باتفاق جمهور النحاة وليس اسما ، والقائلون بأنه اسم أكثرهم على انه لا محل له من الإعراب ، وهو يقع كثيرا بين المبتدأ والخبر كما في المثال المذكور أو بين ما أصلهما المبتدأ والخبر كقولك : صار امرؤ القيس هو الشاعر وعلمت أن حاتما هو الكريم ، والمقصور عليه بهذا الطريق هو المبتدأ والمقصور الخبر ، ونلاحظ في الأمثلة المذكورة أن ضمير الفصل قد أفاد بالإضافة إلى القصر : تأكيد نسبة الخبر إلى المبتدأ ، وتلك الإفادة تراها وراء كل أسلوب من أساليب القصر . كما أفاد أيضا الدلالة على أن ما بعد المبتدأ خبر له وليس صفة . لأن قولك : زهير الشاعر ، فيه إيهام أن الشاعر صفة لزهير ، فإذا قلت : زهير هو الشاعر ، اندفع هذا التوهم ، وأصبحت الجملة دالة دلالة بينة على أن الشاعر خبر لزهير لا صفة . .

ومن شواهد القصر بضمير الفصل قوله تعالى : (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ)[1] . التوفية في الآية بمعنى الرفع ، فقد جاءت التوفية في كتاب الله على ثلاثة أوجه : بمعنى الموت كما في قوله عز وجل : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)[2] ، وبمعنى النوم كما في قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ)[3] وبمعنى الرفع كما في قوله جل وعلا : (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي . .)[4]

---

(١) سورة المائدة آية ١١٧
(٢) سورة الزمر آية ٤٢
(٣) سورة الأنعام آية ٦٠
(٤) انظر فتح القدير ٢/٩٥

وفى الآية الكريمة قصر لصفة المراقبة بمعنى : المراعاة والحفظ والعلم على موصوف وهو الله تعالى ، وطريق القصر هو ضمير الفصل : « أنت » ولو لم يكن ضمير الفصل فى الآية الكريمة للدلالة على القصر لما حَسُن ، لأن الله لم يزل رقيبا عليهم فى جميع الأحوال ، وإنما الذى حصل بتوفيته عيسى عليه السلام ـ وقد كان شهيدا عليهم يراقبهم ويأمرهم بعبادة الله ، أنه لم يبق لهم رقيب غير الله تعالى ، ولذا ينبغى أن يتعين إعرابه فصلا دالا على القصر[1] ..

ومن ذلك قوله تعالى : (لاَ يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ)[2] ، فقد قصرت صفة الفوز على أصحاب الجنة قصرا إضافيا ، وهى لا تتعداهم إلى أصحاب النار ، وطريق القصر هو ضمير الفصل . وذلك لأن الآية الكريمة تقرر عدم الاستواء بين أهل الجنة وأهل النار ، فأهل الجنة هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه ، وهذا لا يحسن إلا بأن يكون ضمير الفصل « هم » للاختصاص ، ولا يتأتى إعرابه مبتدأ ثانيا ولا تأكيدا للجملة .. ومثله قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)[3] ، حيث قصرت صفة الرزق على الله تعالى قصراً حقيقيا . وقوله تعالى : (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)[4] قصرت صفة « الأبتر » على « شانئك » ، والمعنى : إن عدو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو المحروم من رحمة الله ، المقطوع من كل خير .. ويمكن أن يكون طريق القصر فى الآيات الكريمة تعريف المسند بأل الجنسية وعندئذ يكون ضمير الفصل لتأكيد القصر .. وتأمل قوله عز وجل : (أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[5] تجد أن

(١) انظر شروح التلخيص ٢ / ٣٨٧

(٢) سورة الحشر آية ٢٠

(٣) سورة الذاريات آية ٥٨

(٤) سورة الكوثر آية ٣

(٥) سورة الشورى آية ٩

صفة الولاية قد قصرت على الله تعالى لا تتعداه إلى تلك المعبودات التى اتخذوها من دونه ، فهو سبحانه وتعالى الخالق الرازق ، الضار النافع ، المحى المميت ، القادر على كل شىء ، الحقيق أن يتخذ وليا . . وطريق القصر : أن تجعله ضمير الفصل « هو » ، وذلك أن تجعله تعريف المسند بأل الجنسية ، ويكون الضمير تأكيدا للقصر . .

٢٦ – تعريف المسند أو المسند إليه « بأل » الجنسية : إذا كان المبتدأ والخبر معرفتين فالراجح أن السابق منهما هو المبتدأ ، واللاحق هو الخبر ، تقول : محمد الشجاع ، فتخبر عن محمد بالشجاعة ، وتقول : الشجاع محمد فتخبر عن الشجاع بمحمد ، وتقول : زيد أخوك ، وأخوك زيد ، فالأول إخبار عن زيد بأنه اخوه ، والثانى إخبار عن أخيه بأن اسمه زيد . . وعندما يكون أحد طرفى الإسناد معرفا « بأل » التى للجنس ، فإن هذا التعريف يدل على القصر ، إذ هو طريق من طرقه عند بعض البلاغيين – كما عرفت – تقول : محمد الكريم ، والكريم محمد ، فتفيد بهذا قصر الكرم على محمد فى الموضعين ، فالمقصور هو المعرف « بأل » الجنسية سواء تقدم أو تأخر ، والمقصور عليه هو الآخر . وتقول : خالد الأمير ، والأمير خالد ، فتفيد قصر الإمارة على خالد قصرا حقيقيا تحقيقيا إذا لم يكن ثمة أمير سواه . . وتقول : محمد الشجاع ، والشجاع محمد فتفيد قصر الشجاعة على محمد قصرا حقيقيا ادعائيا لأنك تجعله الكامل فى الشجاعة ، ولا تعتد بشجاعة غيره لقصورها عن رتبة الكمال ، وتقول محمد القوى ، والقوى محمد ، فتفيد قصر القوة على محمد قصراً إضافيا إذا أردت أنه القوى دون زيد أو عمرو مثلا ، وتقول الأمة المقدام ، وهو المطاع ، ونحن الأبطال ، فتفيد قصر الصفات المذكورة على موصوفيها ، قصراً حقيقيا أو إضافيا حسب مرادك بتلك الأقوال . . . فإن كان طرفا الإسناد معرفين « بأل » الجنسية كقولك : العالم المنطلق ، فإن السياق هو الذى يحدد المقصور والمقصور عليه ، إذ هو صالح لقصر العلم على المنطلق ولقصر الانطلاق على العالم ، والسياق هو الذى يحدد ويعين المراد ويبين المقصور

بهـــذا الطريق وهو المعرف بأل ، أو الذي يحدده السياق إذا كان الطرفان معرفين معا بها ، قد يكون على إطلاقه كما فى الأمثلة السابقة ، وقد يقيد بقيد، كقولك : محمد المطاع فى قومه ، وأنت القائد الجرىء ، حيث قصرت الطاعة المقيدة بالجار والمجرور على محمد وقصرت القيادة المقيدة بالجرأة على المخاطب. ومن ذلك قولهم : هو الوفى حين لا تظن نفس بنفس خيرا . وهو الجواد حين يبخل الناس ... ومنه قول الأعشى :

هو الواهب المائة المصطفا　　ة إما مخاضا وإما عشارا

فالمخاض : الحوامل من النوق ، والعشار جمع عشراء ، وهى التى مضى لحملها عشرة أشهر . . والشاعر قد قصر الهبة على الممدوح، ليس مطلقا، وإنما مقيدة بكونها من النوق وبكونها مائة وبكونها مصطفاة ، وبكونها إما مخاضا وإما عشارا ، وهـــذا أبلغ فى مقام المدح من قصر الهبة المطلقة ، كما لا يخفى . . .

هذا وقد يأتى التعريف بلام الجنس لإفادة التأكيد وتقرير الحكم ، دون الدلالة عن القصر ، كما فى قول الخنساء :

إذا قبح البكاء على قتيل　　رأيت بكاءك الحسن الجميلا

فليس المعنى على إرادة القصر ، وإنما مرادها أن تقرر الحسن والجمال لبكائها صخراً ، وأن تدل على أن حسنه حسن ظاهر وجماله جمال بين ، فلا أحد يستطيع أن ينكره أو يشك فيه ، وإذا استقبح البكاء على قتيل ، ظل بكاؤك الحسن الجميل الذى لا يستقبحه أحد ، فالناس لا يترددون فى حسن بكاء وقبح آخر ، حتى يكون المعنى على القصر ، وإنما هم يستقبحون البكاء على القتلى ، ويستحسنون بكاءها صخرا . وبهـذا يتضح لك أن المراد بتعريف المسند فى البيت « بأل » الجنسية « الحسن الجميل » هو تقرير الحسن والجمال وتأكيدهما ، وإبراز بكائها صخراً حسنا دائما وجميلا أبدا ، وليس المراد به الدلالة القصر

أوجه الاختلاف بين طرق القصر : ومن أهم ما ينبغى أن تتجه إليه عناية الدارس لأسلوب القصر ، أن يقف على ما بين طرقه من فروق وأوجه اختلاف : فإن هذه الطرق على الرغم من اشتراكها فى الدلالة على معنى القصر فإنها ، تختلف من عدة أوجه ، ويوجد بينها فروق دقيقة ينبغى على الدارس أن يلم بها ... وأهم هذه الأوجه :

١ ـ أن دلالة التقديم ، وضمير الفصل ، وتعريف الطرفين أو أحدهما « بأل » الجنسية ، على القصر ليست دلالة وضعية ، وإنما هى دلالة تذوقية تفهم من فحوى الكلام وسياقاته وقرائن أحواله ، فصاحب الذوق السليم ، والطبع العربى الأصيل يستطيع إذا تأمل التقديم بين أجزاء الكلام أن يدرك ما يكمن وراءه من أسرار ودقائق ، وأن يميز بين تقديم قصد به الدلالة على القصر وتقديم الغاية منه مزية أخرى ، فليس كل تقديم يدل على القصر ، وإنما يقع التقـــديم بين أجزاء الكلام لإفادة أغراض شتى ومزايا عديدة(١) ...

وكذا توسط الضمير بين طرفى الإسناد ، قد يكون لتأكيد مضمون الكلام ويعرب مبتدأ ثانيا؛ فليس دائما لإفادة الاختصاص.. وتعريف الطرفين أو أحدهما ، بأل الجنسية قد يكون للتقرير وتأكيد نسبة المسند إلى المسند إليه ، كما مر بك فى بيت الخنساء :

إذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا

وبهذا يتضح لك أن دلالة هذه الطرق الثلاثة على القصر مرجعها إلى السياق ومعرفة قرائن الأحوال ، والمتأمل الواعى ، ذو الذوق السليم ، الخبير بدلالات الكلام وخصائص التراكيب ، هو الذى يميز بين ما يدل على القصر منها وبين ما يقصد به إلى غاية أخرى ... أما « النفى والاستثناء » و « إنما »

(١) ارجع إلى أغراض التقديم فى الجزء الأول من هذا الكتاب..

« العطف بلا وبل ولكن » فدلالتها على القصر دلالة وضعية ، وعلى الرغم من ذلك خاض البلاغيون في بيان وجه تلك الدلالة ، وقد مر بك وجه دلالة كل منها على القصر ، ولا تنافى الدلالة الوضعية لهذه الطرق الثلاثة مع دراستها ، والبحث عنها في علم المعاني ، لأنه لا يبحث فيه عن دلالتها على القصر وإنما يبحث فيه أصلا عن مزايا القصر وأحواله وعن المقامات التي تدعو إلى التعبير بأساليب القصر وما من شك في أن هذا من صميم علم المعاني ..

٣ ـ أن الأصل في طريق « العطف بلا وبل ولكن » ، النص على المثبت والمنفي معا ، تقول : زهير شاعر لا كاتب ، ماشوقي كاتبا بل شاعر ما عمرو جوادا لكن حاتم ، ولا يترك النص على المثبت والمنفي في هذا الطريق إلا كراهة الإطناب في مقام الإيجاز ، كما إذا قال القائل : زيد يعلم البلاغة والنحو والصرف والعروض والأدب . أو زيد يعلم البلاغة وخالد وعمرو وبكر وحاتم ، فتقول له : زيد يعلم البلاغة لا غير ، والمعنى في الأول : قصر زيد على علم البلاغة ، أى : زيد يعلم البلاغة لا غيرها ، وفي الثاني : قصر علم البلاغة على زيد أى : زيد يعلم البلاغة لا غيره . . ومثله قول الشاعر :

جوابا به تنجو اعتمد فوربنا   لعن عمل أسلفت لا غير تسأل

فقد نص في القصرين : « زيد يعلم البلاغة لا غير » . . . « عن عمل أسلفت لا غير تسأل » ، على المثبت فقط دون المنفي خشية الإطناب ؛ إذ المقام مقام إيجاز واختصار . .

أما بقية الطرق فالأصل فيها أن ينص على المثبت فقط دون المنفي ، تقول : ما شاعر إلا زهير في قصر صفة الشعر على زهير ، فقد صرح بالمثبت وهو زهير دون المنفي وهو من عداه وكذا القول في : مازهير إلا شاعر ، إنما أنت أب ، إياك أكرمت ، محمد الشجاع ، خالد هو الوفي ، ففي هذه الطرق قد نص على المثبت فقط ، أما المنفي فيفهم من القصر بمعرفة سياقات الكلام

وقرائن أحواله . . وقد يصرح فى بعض هذه الطرق بالمنفى دون المثبت كقولك فى التقديم : ما أنا قلت هذا ، ففيه نفى للقول عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره ، فالمقصور عليه الذى صرح به هو المنفى عنه دون المثبت له كما ترى ، وقد ينص على المثبت والمنفى معا كقولك فى الاستثناء التام : ماقام القوم إلا زيد ، وقد مر بك أن الاستثناء المفرغ هو الأصل فى الدلالة على القصر . .

٣ - اجتماع طريقين من طرق القصر : لايجوز أن يجتمع طريق النفى « بلا » العاطفة وطريق النفى والاستثناء - كما مر بك - لأن « لا » موضوعة لأن ينفى بها ما أوجب للمتبوع كقولك : زيد كريم لا شجاع فهى موضوعة للنفى ابتداء ، لا لأن تعيد بها النفى فى شىء قد نفيته . وهذا الشرط مفقود فى النفى والاستثناء ، لأن قولك : ما زيد إلا قائم ، يفيد نفى كل صفة وقع فيها التنازع عن زيد وإثبات صفة القيام له ، فلو قلت : « لا قاعد » ، فقد نفيت « بلا » العاطفة شيئا هو منفى قبلها بما النافية ، ولذا عيب قول الحريرى :

لعمرك ما الإنسان إلا ابن يومه على ما تجلى يومه لا ابن أمسه

هذا إذا كانت « لا » العاطفة داخلة على المفرد ، فإن دخلت على الجملة كقولك : ماهذا إلا لك لا يشاركك فيه أحد ، فهو جائز ، لأنك عندئذ لا تنفى « بلا » شيئا قد نفى أولا ، وإنما تنفى بها جملة مؤكدة لجملة القصر المتقدمة عليها . .

أما بقية الطرق فتجتمع والنفى « بلا » ، تقول فى اجتماعه وإنما : « إنما زيد كريم لا شجاع » ، وفى اجتماعه والتقديم : « إلى الله أشكو لا إلى الناس » وفى اجتماعه والتعريف بأل : زيد الكريم لا عمرو ، وذلك لأن النفى فى هذه الطرق ليس نفيا صريحا ، فأنت لم تنف « بلا » ما قد نفى من قبل نفيا صريحا بأداة من أدوات النفى الموضوعة له ، بل نفيت بها ما قد فهم نفيه فى الجملة

المتقدمة بغير أداة ، والقصر عندئذ طريقه « إنما » و « التقديم » و « التعريف بأل » ، أما العطف « بلا » فتأكيد للقصر ، وينبغي مراعاة ذلك عند بناء الجمل وصياغتها ، فلا تبنى بناء تتناقض فيه أجزاؤها .. لا تقول : « إنما هذا لك لا ذاك » ، لأن المقصور عليه بإنما هو المؤخر ، والمقصور عليه بلا هو المقابل لما بعدها — وإنما « تقتضي أن يكون المقصور عليه هو « لك » و « لا » تقتضي أن يكون المقصور عليه « هذا » ، وذا تدافع وتناقض في القول ، فالصواب أن يقال : « إنما هذا لك لا لغيرك » ، « إنما أخذ زيد لا عمرو » ، إنما زيد يأخذ لا يعطي » ، « إنما أكرمت عمرا لا زيدا » ... وتقول : زيد الكريم لا عمرو ، وحاتم هو الثري لا خالد ، وبهذا تشتغل لا بذلك ، وبهذا تأمر لا بغيره ، فتراه كلاما مستقيما ، إذ لا تدافع بين التعريف بأل ، أو « التقديم » وبين العطف « بلا » ، فإن قلت زيد الكريم لا البخيل ، وعمرو هو الشجاع لا الجواد وبهذا تأمر لا تنهى ، تناقض قولك وتدافع ، فإن سألت : ألا يجوز أن يكون التقديم في المثال الأخير للتأكيد وتقوية الحكم ، وعندئذ يكون طريق القصر « لا » والمقصور عليه : « تنهى » ؟ قلت : لا غبار على ذلك حيث لا تدافع في الدلالة عندئذ ، ولا تناقض في القول ، فالذي ينبغي مراعاته هو التنبه لما بين طرق القصر من فروق دقيقة حتى لا تبنى الجمل بناء تتناقض فيه أجزاؤها ، فقد تجتمع — مثلا — « إنما » وضمير الفصل أو التعريف بأل ، فيقال : إنما الجواد أنت ، إنما العالم هو محمد ، وتجده كلاما مستقيما ، إذ المقصور عليه بالتعريف ، أو بضمير الفصل هو الخالي من « أل » ، والمقصود عليه بإنما هو المؤخر ، فلا تناقض في بناء العبارة ، كما ترى بل إن طريق القصر يؤكد كل منهما الآخر ، فإن قلت : إنما أنت الجواد ، إنما محمد هو العالم ، تدافع الطريقان ، ولو جعلت ضمير الفصل أو التعريف للتأكيد وتقوية الحكم وتقريره فلا تدافع ، إذ يكون القصر مدلولا عليه بإنما ، والتعريف وضمير الفصل مؤكدان له . . .

وقد يجتمع طريق « إنما » وطريق « التقديم » كقولك : إنما زيدا أكرمت وإنما بهذا أمرتك . . وإنما عليك المعول . . . فعندئذ يتحتم إلغاء دلالة أحد

الطرق يقوى على القصر ويبقى الآخر، وذلك لأنه لا يمكن أن تلاحم بين طريق « إنما » وطريق التقديم، إذ المقصور عليه بـ « إنما » هو المؤخر، والمقصور عليه في التقديم هو المقدم، والذي يحدد ذلك هو السياق وقرائن الأحوال وما يقتضيه المعنى. مثال قول المتنبي :

أجزني إذا أنشدت شعرا فإنما ... بشعري أتاك المادحون مرددا

فالمعنى يقتضي أن يكون المقصور عليه هو الجار والمجرور « بشعري » لأنه أراد أن شعره قد احتوى كل فنون المديح واشتمل على كل الخصال والمناقب التي يمكن أن تحوم حولها أخيلة الشعراء ولذا فإن الشعراء إذا أتوا الممدوحين فإنما يمدحون بشعره ويكررون قوله. فالمعنى يقتضي أن يكون طريق القصر هو التقديم، وأن تكون « إنما » ملغاة. وخذ قول الآخر :

ألا فليمت من شاء بعدك إنما ... عليك من الأقدار كان حذاريا

فالمعنى يقتضي أن يكون حذر الشاعر مقصوراً على مرثيه « عليك » لا يتعداه إلى غيره. فالمقصور « الحذر من الأقدار » والمقصور عليه الجار والمجرور « عليك ». وهذا مما يدلنا على أن طريق القصر هو التقديم. ومثال قوله تعالى: « وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب »(١) فالمعنى يقتضي أن يكون الجار والمجرور « عليك » مقصوراً، و« البلاغ » مقصوراً عليه، لأن المراد : قصر مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم على التبليغ لا تتعداه إلى المحاسبة ونحوه. والمعنى من « إنما » قصر البلاغ على الرسول. وهذا معناه: أن طريق القصر هو « إنما ». وأن دلالة التقديم على القصر ملغاة فهو للتأكيد وتقوية الحكم. أما قوله: « وعلينا الحساب » فهو قصر للحساب على الله تعالى لا يتجاوزه إلى

---

(١) سورة الرعد آية ٤٠.

غيره وطريقه : التقديم ، ومعنى الآية الكريمة : فإما نرينك بعض الذى نعدهم من الإهلاك والعذاب أو نتوفينك قبل تعذيبهم ، فإن الذى عليك هو الإنذار وتبليغهم الرسالة ، وعلينا نحن الحساب والجزاء لا عليك . . وهذا المعنى قد اقتضى أن يكون طريق القصر فى الجملة الأولى ـ كما وضحنا ـ هو « إنما » وفى الجملة الثانية هو التقديم . . واقرأ قول المتنبى فى مدح عضد الدولة :

وقد رأيت الملوك قاطبة　　　وسرت حتى رأيت مولاها
ومن مناياهم براحته　　　يأمرها فيهم وينهاها
أبا شجاع بفارس عضد الدو　　　لة فناخسرو شهنشاها
أساميا لم تزده معرفة　　　وإنما لذة ذكرناها

فقد عدد أسماء آباء الممدوح ، ولما كانت العادة قد جرت على أنه لا تعدد أسماء الآباء إلا عند إرادة التعريف بشخص قاصر الذكر ، قليل الشهرة ، تدارك الشاعر ذلك فقال :

أساميا لم تزده معرفة　　　وإنما لذة ذكرناها

أى : ما ذكرناها إلا من أجل اللذة ، « فلذة » مقصور عليه مقدم ، و « إنما » ملغاة . . وقد يحتمل المعنى أن يكون القصر بأى من الطريقين ، على نحو ما ترى فى قول العباس بن الأحنف :

كان لى قلب أعيش به　　　فاصطلى بالنار فاحترقا
أنا لم أرزق مودتكم　　　إنما للعبد ما رزقا

فجائز أن يكون ما للعبد مقصورا على رزقه ، لا يتعداه إلى رزق غيره ، وجائز أن يكون : « ما رزقا » مقصورا على « كونه للعبد » لا يتعداه إلى كونه لغيره . فعلى الأول يكون طريق القصر « إنما » ودلالة التقديم ملغاة ، وعلى الثانى يكون طريق القصر « التقديم » ودلالة « إنما » ملغاة ، فالبيت ـ كما ترى ـ يحتمل المعنيين . .

هذا ويرى البعض أنه إذا أدى اجتماع أى طريقين من طرق القصر إلى تدافع أجزاء الكلام ألغى أحدهما حسبما يقتضى السياق وتحدد القرائن ، ولا يحكم على الكلام بالتناقض والتدافع ، فلو قلت : إنما هذا لك لا ذاك وجدت « إنما » لاتستقيم مع « لا » فعليك أن تلغى أحد الطريقين حسبما يملى عليك السياق ، ولو قلت: إنما لك هذا لا لغيرك ، فوجدت « إنما » متدافعة مع « التقديم » و« لا » ، فإما أن تلغيها وإما أن تلغى التقديم و« لا »(١) .

ولعل هذا البعض قد نظر إلى اجتماع « إنما والتقديم » ، وإلى إلغاء أحدهما حسبما يقضى السياق ، فرأى أن ما يجرى على « إنما والتقديم » عند اجتماعهما يمكن أن يجرى على أى طريقين،فليس هنالك ما يدعو إلى التفرقة بين اجتماع « إنما والتقديم » واجتماع غيرهما . .

والذى أراه أنه لا يمكن التعويل على مثل هذه الأمثلة المصطنعة فى إصدار هذه الأحكام ، بل ينبغى أن يعتمد فيها على التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة من أقوال البلغاء،وأن ينظر إلى اجتماع طرق القصر فى تلك التعبيرات الجيدة ، ويقر عندئذ ما يقضى به سياقها، على نحو ما رأيت فى اجتماع « إنما » والتقديم فى النظم الكريم وفيما مر بك من شواهد . .

٤ ـ أن الأصل فى طريق « النفى والاستثناء » أن يستعمل فيما شأنه أن يجهله المخاطب وينكره ، والأصل فى « إنما » أن تستعمل فيما شأنه أن يعلمه المخاطب ولا ينكره : . يقول عبد القاهر : « وأما الخبر بالنفى والإثبات نحو ما هذا إلا كذا وإن هو إلا كذا ، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه ، فإذا قلت : ماهو إلا مصيب أو ماهو إلا مخطىء ، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ماقلته ، وإذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت : ماهو إلا زيد لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد،وأنه إنسان آخر ، ويجد فى الإنكار أن يكون كذلك »(٢) .

---

(١) انظر بغية الإيضاح ج ٢ ص ٢٨ . (٢) دلائل الإعجاز ص ١٢٧ .

ومن ذلك قوله تعالى: « إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »[١] ، فالخطاب فى الآية لمن يحاجون فى عيسى ويرفعونه إلى مرتبة الإله ، ويجدون فى ذلك ، ولذا دعوا إلى الابتهال : « فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ »[٢] ، ثم أكد الخبر بإنَّ واللام: « إن هذا لهو القصص الحق » ثم جاء القصر بالنفى والاستثناء « وما من إله إلا الله » ثم أكد الخبر مرة ثانية : « وإن الله لهو العزيز الحكيم » .. وفى هذا ما يدفع إنكار المنكرين ويبدد جحودهم إلى ترك المحاجة فى عيسى بعد وضوح الأمر ومجىء العلم .. واقرأ قوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ »[٣] . . . فالرسول — عليه الصلاة والسلام — ينكر أشد الإنكار أن يكون ما يدعوهم إليه أساطير الأولين ، وهم يعتقدون أنهم يهلكون بعنادهم وجدالهم الرسالة وصاحبها ، وينكرون أنهم يهلكون أنفسهم ولذا جاء القصر فى الموضعين بالنفى والاستثناء . . . وخذ قوله تبارك وتعالى : « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ .. »[٤] فالمخاطبون وهم الكفرة ينكرون أشد الإنكار أن يكون الرسول متبعا لوحى يوحى ويرون أن ما يقوله أساطير ، ولذا جاء

---

(١) سورة آل عمران آية ٦٢ .

(٢) سورة آل عمران آية ٦١ .

(٣) سورة الأنعام آية ٢٥ — ٢٦

(٤) سورة الأنعام آية ٥٠ .

القصر بالنفي والاستثناء : « إن أتبع إلا ما يوحى إلى .. » . ومن أشعارهم قول المتنبي في ذكر سيف الدولة ووصف جيوشه وما يتبعها من طير :

له عسكرا خيل وطير إذا رمى ... بها عسكرا لم يبق إلا جماجمه

فكون الجيش على هذه الصورة من القوة وشدة الفتك وأنه لا يبقى من الأعداء حيا ولا جسدا ميتا ، وإنما يبقى جماجم ليس إلا ، أمر غريب تتوقف النفوس في قبوله ، ويكون منها إنكار له ودفع ، ولذا كان القصر بالنفي والاستثناء : « لم يبق إلا جماجمه » ..

ومنه قول الآخر :

فما زادني الشيب إلا ندى ... إذا استروح المرضعات القتار(١)

لأن ما ذكره من شأنه أن ينكر ويدفع وأن تتوقف النفوس في قبوله والتسليم به ، فقد ذكر أن الشيب زاده ندى ، ومن شأن من بلغ الشيب أن يكون حريصاً ، ثم ذكر أن الوقت وقت شدة وحاجة فهو وقت تستروح فيه المرضعة القتار ، فإذا كانت المرضعة وهي التي تحتال لها ويعتنى بها قد وصل بها الحال إلى أن تشم رائحة الشواء ولا تطعمه ، فما بالك بغيرها .. إن ازدياد من بلغ الشيب ندى في هذه الحال أمر يدفع وينكر ، ولذا كان القصر بالنفي والاستثناء : « ما زادني الشيب إلا ندى » ، دفعاً لهذا الإنكار ..

قلت : إن الأصل في النفي والاستثناء أن يستعمل فيما شأنه أن يدفعه المخاطب وينكره ويجهله ، وقد يخرج النفي والاستثناء عن هذا الأصل فيستعمل في الأمر المعلوم الذي لا ينكر . تنزيلا له منزلة المجهول المنكر لاعتبارات بلاغية مناسبة ... من ذلك قوله تعالى : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ... »(٢) في الآية قصر الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) استروح : اشتم . والقتار بضم القاف : ريح الشواء ..

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤ .

على صفة الرسالة لا يتعداها إلى التبرى من الهلاك ، فهو رسول يموت ويخلو كما خلت الرسل من قبله ، والمخاطبون وهم الصحابة رضى الله عنهم ، يعلمون يقينا أنه صلى الله عليه وسلم مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى الخلد ؛ فهو غير جامع بين الرسالة والتخليد فى الدنيا ، ولكنهم لما كانوا متعلقين به — عليه الصلاة والسلام — ويستعظمون موته ، ويعدونه أمرا خطيرا وحدثا جليلا ، نزلوا منزلة من ينكر موته ، ويعتقد أنه يجمع بين الرسالة والخلد أو التبرى من الهلاك ، فخوطبوا خطاب المنكر ، والسر البلاغى هو تصوير حال الصحابة والإشعار بعظم ذلك الأمر فى نفوسهم وشدة حرصهم على بقائه صلى الله عليه وسلم بينهم ، كما لا يخلو الأمر من عتاب عنيف لهم لعدم مضيهم على وفق ما يعلمون ، وما هو راسخ فى نفوسهم ، ولا يخفى عليك هذا المعنى عندما تقرأ سياق الآية الكريمة : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » فأنت تشعر بنغمة العتاب والتحذير من الانقلاب على الأعقاب وعدم المضى على ما ثبت فى النفوس ورسخ ، من إيمان واعتقاد ، ولو استعملت « إنما » هنا ، لكونها للأمر المعلوم غير المنكر فقيل : إنما محمد رسول يخلو كما خلت الرسل من قبله لما كان هذا المعنى ولما تحققت تلك المزية وهى إبراز حال الصحابة ، وتصوير شدة الموقف وما أصابهم من هول . . .

واقرأ قوله تعالى : « قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ... »(1) .

(1) سورة إبراهيم آية ١٠ ، ١١

فالرسل عليهم السلام لا ينكرون أنهم بشر ولا يجهلون ذلك ، ولكنهم نزلوا منزلة من ينكر ذلك ويدفعه ، فجاء القصر بالنفي والاستثناء : « إن أنتم إلا بشر مثلنا . . . » ، لاعتقاد الكفرة أن الرسول لا يكون بشراً ، وإصرار الرسل ـ عليهم السلام ـ على دعوى الرسالة ، فهم بهذا الإصرار قد أنكروا بشريتهم ـ في اعتقاد المتكلمين وهم الكفرة ـ واعتقدوا أنهم ليسوا بشراً ، فكان القصر : « إن أنتم إلا بشر » قصر قلب أي : أنتم بشر لا رسل ، بناء على اعتقاد الكفرة الفاسد ، التنافي بين الرسالة والبشرية وعدم اجتماعهما . . وإيثار التعبير بالنفي والاستثناء في هذا الأمر المعلوم الذي لا ينكره الرسل بتنزيلهم منزله المنكر ، يصور حال الكفرة وما خيم عليهم من جهل واعتقادات فاسدة أعمتهم عن الحق وحالت بينهم وبين قبول الهداية . . أما قول الرسل لهم : « إن نحن إلا بشر مثلكم » ، فمن مجاراة الخصم ، للتبكيت والإلزام والإفحام ، لأن من عادة من ادعى عليه خصمه الخلاف في أمر لا يخالف فيه ولا ينكر ، أن يعيد كلامه على وجهه ، كما إذا قال لك من يناظرك : أنت من شأنك كذا ، فتقول : نعم أنا من شأني كذا ولكن لا يلزمني من أجله ما ظننت أنه يلزم ، فكأن الرسل ـ عليهم السلام ـ قالوا : إن ماقلتم من أننا بشر مثلكم هو ماقلتم لا ننكره ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون الله قد من علينا بالرسالة فالله يمن على من يشاء من عباده . فقد سلم الرسل بتلك المقدمة : « إن نحن إلا بشر مثلكم » بألفاظها ومعناها وفي هذا مايؤنس نفوس الكفرة ويستميلهم نحو الحق والهدى ، ولكنه لا يستلزم مقصودهم . وهو أن الإنسان لا يرقى إلى أهلية الرسالة ، إذ لا منافاة عند الرسل والمؤمنين بين الرسالة والبشرية ، فليس هنالك مايمنع من أن يرقى الإنسان ويسمو ويصير أهلا للرسالة وتلقي الوحي . . وخذ قوله تعالى (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنْ

أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ)(١) فقد قصر - صلى الله عليه وسلم - على صفة الإنذار قصر إفراد فهو لا يتجاوز تلك الصفة إلى الجمع بينها وبين صفة الهداية ، والرسول عليه الصلاة والسلام يعلم ذلك لا ينكره ولا يجهله ، ولكن لما كان عليه الصلاة والسلام شديد الحرص على هداية قومه ، ملحا فى توجيه الدعوة إليهم حتى شق على نفسه ، نزل منزلة من يعتقد أنه يجمع بين الإنذار والهداية فجاء القصر بالنفي والاستثناء : « إن أنت إلا نذير » ، وسر بلاغته تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتصوير حاله وإبراز حرصه على هداية قومه ، وإلحاحه فى دعوتهم وتبليغهم الرسالة ، فقد بلغ فى ذلك مبلغا نزل فيه منزلة من اعتقد أنه يستطيع حمل الناس على الهداية قسرا ، وسياق الآيات الكريمة يرشد إلى هذا المغزى ، فقد بين أنه لا يمكن أن تستوى تلك الأضداد : الظل والحرور - الأعمى والبصير - الظلمات والنور - الأحياء والأموات - ثم صرح بأن الله - سبحانه وتعالى - يسمع من يشاء ، وأنه عليه الصلاة والسلام - لا يستطيع إسماع من فى القبور ، فهؤلاء الكفرة قد صاروا فى عداد الموتى ، والرسول فى إجهاده نفسه وبذل كل ما فى وسعه وإلحاحه فى إسماعهم وهدايتهم كمن يسوى بين الأضداد - الأحياء والأموات - وهى ليست سواء ، وكمن يحاول إسماع من فى القبور ، ولا جدوى فى إسماعهم ، فما عليك ، يا محمد ، إذا لم يقبلوا الهدى ، فقد بلغت ونصحت ، وأرشدت ووضحت ، وما عليك بعد ذلك إذا لم يهتدوا : « إن أنت إلا نذير ... » .

هذا وقد يرد النفي والاستثناء فيما لا يتصور فيه إنكار مخاطب أو تنزيله منزلة منكر ... تأمل قوله تعالى : (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)(٢) نجد أن صفة الألوهية قد قصرت على الله سبحانه وتعالى

(١) سورة فاطر آية ١٩-٢٣ (٢) سورة الأنبياء آية ٨٧

قصرا حقيقيا تحقيقيا ، وطريق القصر هو النفي والاستثناء ، ولا نستطيع القول بأن المخاطب هنا منكر أو منزل منزلة المنكر ، كيف ويونس - عليه السلام - يضرع إلى الله عز وجل بهذا الدعاء ، فلا يتأتى ولا يعقل فيه مراعاة حال المخاطب - جل وعلا - وإنما التأكيد هنا مرده إلى حال المتكلم وهو يونس - عليه السلام - ومدى انفعاله بالخبر . فقد أتى الخبر مؤكداً كما أحس ، وكما امتلأت به نفسه ، وفاض به ضميره ، دون نظر إلى حال مخاطب ، وتأمل قوله : « إني كنت من الظالمين » ، وماذا لو قيل : لا إله إلا أنت سبحانك فأنا من الظالمين ، إنه يكون كلاماً ساقطا ، فأنت تشعر عندئذ بخلخلة في السياق ، وعدم تناسق ، مرده إلى التخلي عن التأكيد الذي يبرز قوة الخبر واستقراره في نفس المتكلم .

وانظر إلى قول دريد بن الصمة :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

إنه يفخر بالانتماء إلى قبيلته وقومه ، وقد أتى الخبر مؤكداً ليعبر عن استقراره في نفسه وعن عمق شعوره بهذا الانتماء ، ولو حاولت أن تتصور هنا مخاطبا منكراً أو منزلا منزلة المنكر لكنت كمن يحاول المحال ويتعسف في القول تعسفا الكلام في غنى عنه . .

وبهذا يتضح لك أن حال المخاطب لا يمكن أن يعول عليها دائما في استخدام « النفي والاستثناء » أو في تأكيد الخبر ، بل قد ينظر إلى غير المخاطب[1] .

أما « إنما » فالأصل فيها - كما قلت - أن تستعمل فيما شأنه أن يعلمه المخاطب ولا ينكره ، فهي أداة هادئة تستعمل في المعاني الواضحة التي لا ينكرها

---

(١) ارجع إلى أضرب الخبر في الجزء الأول من هذا الكتاب .

المخاطب ولا يجهلها ، وهذا عكس « النفي والاستثناء » الذي يستعمل في المعاني القوية والنبرات الحادة والأمور الغريبة ... وكأن « إنما » أداة همس ، وتنبيه ، يهمس بها المتكلم وينبه مخاطبه إلى تلك الأمور المعلومة ، والمعاني الواضحة ، تقول : إنما هو أخوك ... إنما هو صاحبك .. إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ... إنما يعجل من يخشى الفوت ، فتلك أمور معلومة لا يجهلها أحد ولا يدفعها مدافع . والقصر فيها تنبيه للمخاطب وتذكير له بما ينبغي أن يفعله تجاه الأخ والصديق ، وما ينبغي أن يفعله تجاه الاتحاد والتضامن ، ومبادرة الفرصة . . . إنها معان واضحة والقصر فيها — كما قلت — تنبيه للمخاطب وتذكير . . . ولو وضعت : « ما وإلا » مكان إنما في تلك الأمثلة لما استقام المعنى ؛ لأن النفي والاستثناء تلائمه المعاني القوية الثائرة . تأمل قولك لصاحبك : أشفق على خالد ، وعامله معاملة طيبة ، فإنما هو ابن صديقك عمرو ، تجد أن القصر بإنما كأنه همس وتنبيه للمخاطب ، وتذكير له بتلك الصداقة وما ينبغي عليه أن يفعله تجاهها ، ثم انظر إلى قولك : كيف تؤذي خالداً وتقسو عليه ، وما هو إلا صديقاً حميماً لأبيه ، تجد أن المعنى هنا أقوى حدة وأشد إثارة ، ولا تشعر فيه بالهدوء الذي لمسته في القول الأول ، ولذا لاءمه النفي والاستثناء .

ومن شواهد « إنما » قول المتنبي في مدح كافور الإخشيدي :

إنما أنت والد والأب القا ... طع أحنى من واصل الأولاد

فالشاعر لم يرد أن يعلم كافورا أنه بمنزلة الوالد ، ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام ، ولكنه أراد أن يذكره بالأمر المعلوم ، ليبني عليه استدعاء ما يوجبه وليلفته بلطف إلى حق الولد على أبيه من العطف والحنان .. ومثله قوله :

إنما تنجح المقالة في المر ... ء إذا صادفت هوى في الفؤاد

وقول أبي تمام :

ولا تمكن الإخلاق منها فإنما ... يلذ لباس البرد وهو جديد

وقول علي بن الجهم :

وقلن لنا نحن الأهلة إنما ... تضيء لمن يسرى بليل ولا تقرى

وقول الخطفى جد جرير :

وفى الصمت ستر للفتى وإنما ... صحيفة لب المرء أن يتكلما

وقول الآخر :

وما الزين فى ثوب تراه وإنما ... يزين الفتى مخبوره حين يخبر

فإن طرة راقتك فانظر فربما ... أمر مذاق العود والعود أخضر

وغير خاف عليك دخول إنما فى تلك الشواهد على معان واضحة معلومة ، لا يجهلها المخاطب ولا يدفعها .. وتأمل قوله تعالى : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ)[1] تجد أن الصدقات قد قصرت على كونها للفقراء وما عطف عليهم ، لا تتعدى تلك الأصناف إلى غيرها ، وهذا أمر معلوم لا يتردد فيه عاقل ولا يدفعه منكر .. وكذا القول فى الآيات الكريمة : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)[2] .. (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ)[3] (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)[4] ... (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)[5] فقد جاء القصر « بإنما » فى الآيات الكريمة ، لأن المعانى التى استعملت فيها معان واضحة بينة ، لا يجهلها المخاطب ولا ينكرها السامع ..

وقد تستعمل « إنما » فى الأمور التى ينكرها المخاطب ويدفعها تنزيلا لتلك الأمور منزلة ما لا يجهله المخاطب ولا ينكره ، وذلك لغاية بلاغية يقصد إليها.

---

(١) سورة التوبة آية ٦٠ .

(٢) سورة التوبة آية ١٨ .

(٣) سورة التوبة آية ٩٣ .

(٤) سورة الإسراء آية ١٥ .

(٥) سورة الرعد آية ٧ .

وبعد .. تأمل قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ)(١) تجد أن كون هؤلاء المنافقين مصلحين خبر ينكره المخاطب ويدفعه فكان حتى "قصر أن يكون بالنفي والاستثناء : « إن نحن إلا مصلحون » ، ولكن النظام "الكريم آثر التعبير « بإنما » تنزيلا لهذا الخبر المنكر منزلة الأمر المعلوم "الظاهر ، فهم يدعون أن كونهم مصلحين أمر ظاهر من شأنه ألا يجهله المخاطب ولا ينكره ، لأنه من الوضوح بمكان ولذا جاء الرد عليهم عنيفا وقاسيا : « ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » ، فقد بدأ « بألا » الاستفتاحية التي تفيد التنبيه وتهيئة الأذهان لما يلقى بعدها . ثم جاء قصر الإفساد عليهم بحيث لا يتعداهم إلى غيرهم ، وكأنه ليس على وجه الأرض مفسدون سواهم ، وأكد ذلك « بإن » : « ألا إنهم هم المفسدون » ، ثم جاء هذا الاستدراك « ولكن لا يشعرون » الذى بين أن خفاء تلك الحقيقة عليهم مرده إلى فقدانهم الشعور ، فهم قوم لا يشعرون ، ولو كان عندهم قدر من شعور لأدركوا حقيقة انحصار الفساد فيما بينهم ، وقصره عليهم ..

وانظر إلى قول عبد الله بن قيس الرقيات فى مدح مصعب بن الزبير :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

فقد وصف مصعب بأنه شهاب من الله ، وآثر التعبير « بإنما » ليفيد أن كونه موصوفا بتلك الصفة أمر ظاهر معلوم لا يرتاب فيه مرتاب ولا ينكره أحد ، وذلك على عادة الشعراء إذا مدحوا ، أن يدعوا فى كل ما يصفون به ممدوحيهم الجلاء ، وأنهم قد شهروا به حتى إنه لا يدفعه أحد ... ولذا أنكر عبد الملك بن مروان مدح ابن قيس له بقوله :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

---

(١) سورة البقرة آية ١١ ، ١٢ .

وقال له : ألست أنت القائل فى مصعب : « إنما مصعب شهاب من الله » وكأن عبد الملك قد أحس بما فى مدح مصعب من شدة ظهور وصدق إحساس وقوة شعور، وأن ما قاله ابن قيس فيه لا يقارن بما قاله فى مصعب، خاصة وأنه قد مدحه بأمر ظاهر محسوس، لا فخر فيه ومدح مصعبا بفضيلة من الفضائل النفسية وهى القوة والشجاعة ، والمدح إنما يفضل ويحسن بمثل تلك الفضائل النفسية .

٥ — تحديد موقع المقصور والمقصور عليه : ويختلف موقع المقصور والمقصور عليه باختلاف طريق القصر - كما رأيت - فالمقصور عليه بإنما هو المؤخر دائما تقول : إنما أنت جواد ، فتقصر مخاطبك على صفة الجود . وإنما الشاعر زهير ، فتقصر صفة الشعر على زهير .

والمقصور عليه فى التقديم هو المقدم كقولك فى قصر الكرم على زيد : زيداً أكرمت . . والمقصور عليه فى العطف ببل ولكن هو الواقع بعدهما تقول . ماجاء زيد بل عمرو . . . . ما الشاعر زهير بل عنترة . . ما الشجاع حاتم لكن عمرو . . فتفيد بذلك قصر المجىء على عمرو ، والشعر على عنترة ، والشجاعة على عمرو . والمقصور عليه بضمير الفصل أو بتعريف أحد الطرفين بأل الجنسية هو الخالى من « أل » ، تقول : عمرو هو الجواد، فتقصر صفة الجود على عمرو ، وتقول : الشجاع خالد فتقصر صفة الشجاعة على خالد . . أما المقصور عليه فى النفى والاستثناء فهو الواقع بعد أداة الاستثناء ، ويجوز تقديم المقصور عليه مع أداة الاستثناء . . . تقول : ما أكرمت إلا زيداً فى قصر إكرامك على زيد، وتقول : ماجئت إلا راكبا فى قصر مجيئك على تلك الحال، وتقول : ماكسوت زيداً إلا جبة . فى قصر الكساء الذى كسوته زيداً على كونه جبة ، وتقول : ما اخترت صديقاً إلا منكم ، فى قصر اختيارك الصديق على كونه منهم ؛ ولك أن تقول : ما اخترت إلا منكم صديقا فتقدم المقصور عليه مع أداة الاستثناء .. ومنه قول السيد الحميرى فى مدح بنى هاشم :

لو خير المنبر فرسانه ما اختار إلا منكم فارسا

ولا يجوز أن تقدم المقصور عليه بدون أداة الاستثناء ، لأن أداة الاستثناء لو زحزحت عن مكانها بتأخيرها عن المقصور عليه او بتقديمها عنه لاختل المعنى . . . تأمل قولك : ما اخترت منكم إلا صديقا : ما اخترت صديقا إلا منكم . . . وقولك : ما اختار منكم إلا فارسا . . . وما اختار إلا منكم فارساً تجد المعنى قد تغير وتبدل[1]

فعليك أن تتنبه إلى أن المقصور عليه فى طريق النفى والاستثناء هو ما يلى أداة الاستثناء . وأنه لا يقدم إلا حيث تقدمت معه أداته وإلا تغير المعنى واختل المراد من الكلام .

جمال التعريض بإنما : صرح الشيخ عبد القاهر بأن أفضل مواقع « إنما » هو التعريض ، لأنها فيه أقوى ما تكون وأعلق ماترى بالقلب ، فقد علمت أن الحكم الذى تستعمل فيه « إنما » من شأنه أن يكون معلوما ، لا يجهله أحد ولا ينكره منكر ، لذلك امتازت عن بقية طرق القصر بأنها تستعمل فى كلام لا يكون الغرض منه إفادة الحكم للعلم به ، وإنما يكون الغرض التلويح به إلى معنى آخر على سبيل التعريض ، تقول لمن يهمل فى مدارسة العلم ولا يجتهد فى تحصيله : إنما ينال العلا من اجتهد ، فأنت لم ترد أن تعلمه هذا الحكم لوضوحه وظهوره . وإنما قصدت أن تلوح له بإهماله وأنه لن يحقق رغبته فى نيل العلا إلا بالجد.. وتأمل قوله تعالى : (أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ)[2] ، فالمعنى : إنما يتذكر الحق ويعقله أرباب العقول السليمة والفكر السديدة ،

---

(١) ارجع الى طريق النفى والاستثناء ص ٣٥ وما بعدها

(٢) سورة الرعد الآية ١٩

وليس الغرض من الآية أن يعلم السامعون هذا المعنى الظاهر ، بل ترمى من وراء ذلك إلى التعريض بذم الكفار ، وأنهم من فرط العناد وغلبة الأهواء عليهم ، قد صاروا فى حكم من ليس بذى عقل ، فالذى يطمع منهم فى أن ينظروا كمن يطمع فى ذلك من غير أولى الألباب . . . وتلاحظ أن التعريض إنما قد جاء بعد مقارنة بين العالم بآيات الله وأمور دينه وبين الأعمى الذى أعرض عن الحق على الرغم من وضوحه وبيانه فاستحق ذلك التوبيخ الذى أفاده أسلوب التعريض .

وكذا القول فى قـــوله تعالى : (إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ)[١]، وقوله عز وجل : (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا)[٢] ، فالمعنى على أن من لم تكن له هذه الخشية فكأنه ليس له أذن تسمع ولا قلب يعقل فالإنذار معه كلا إنذار .. ومنه قول العباس بن الأحنف :

كان لى قلب أعيش به فاصطلى بالنار فاحترقا
أنا لم أرزق مودتـــكم إنمـا للعبـــد ما رزقا

فإنه تعريض بأنه قد علم أنه لا مطمع له فى وصالها ، لأنه لم يرزق محبتها ولذا يئس من أن يكون منها إسعاف له . . وقوله أيضا :

يلوم فى الحب من لم يدر طعم هوى
وإنمـا يعذر العشاق من عشقا

يريد أن يقول : ينبغى للعاشق ألا ينكر لوم من يلومه ، فإنه لا يعلم كنه بلوى العاشق إلا من عشق ، ولو كان هذا اللائم قد ابتلى بالعشق مثله لعرف ما هو فيه فعذره وما لامه . .

---

(١) سورة فاطر الآية ١٨

(٢) سورة النازعات آية ٤٥ .

وقول الآخر :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليك وإنما يدعى الطبيب لساعة الأوصاف

يقول فى البيت الأول : ينبغى أن أنجح فى أمرى حين جعلتك السبب إليه ، وفى الثانى : إنا قد طلبنا الأمر من جهته حين استعنا بك فيما عرض لنا من الحاجة ، وعولنا على فضلك كما أن من يعول على الطبيب فيما يعرض له من السقم يكون قد أصاب فى فعله وطلب الأمر من موضعه (١) ....

هذا والتعريض معنى يفهم من عرض الكلام وجانبه ، ويستشف من أطراف المعانى المباشرة بمعرفة السياق وقرائن أحواله ، وليس هنالك وسيلة تحدد بها أى الأساليب يكون للتعريض وأيها لغيره ، فالمعول عليه فى ذلك هو سياق الكلام وقرائن الأحوال ، وما يفيض به التركيب من معان جانبية وإشارات وإيحاءات .. وقد حاول عبد القاهر تفسير جريان المعنى فى أسلوب التعريض ، وارتباطه بإنما لدلالتها على القصر ، حتى إنك لو حذفت « إنما » يسقط المعنى التعريضى ، فلو قيل : « يتذكر أولو الألباب » لم يدل هذا القول على التعريض كما دلت الآية الكريمة : « إنما يتذكر أولو الألباب » ، والسبب فى ذلك : أن التعريض إنما وقع لأن من شأن « إنما » أن الكلام معها يتضمن معنى النفى بعد الإثبات والتصريح بامتناع التذكر ممن لا يعقل ، وإذا أسقطت من الكلام فقيل : يتذكر أولو الألباب ، كان مجرد وصف لأولى الألباب بأنهم يتذكرون ولم يكن فيه معنى نفى التذكر عمن ليس من أولى الألباب ، ومحال أن يقع تعريض بشىء ليس له فى الكلام ذكر ولا فيه دليل عليه ... ويجوز أن يقع

---

(١) ارجع إلى الإيضاح ٢/٢٣

التعريض بقولك : « يتذكر أولو الألباب » بإسقاط « إنما » إذا دل دليل على نفي التذكر عن غيرهم؛ بأن أردت به مدح إنسان بالتيقظ وبأنه فعل مافعل وتنبه لما تنبه له لعقله وحسن تمييزه ، كما يقال : « كذا يفعل العاقل » ، « وهكذا يفعل الكريم » . عند التعريض بغير العاقل وبغير الكريم(١) .

والله تعالى أعلم

(١) ارجع الى دلائل الإعجاز ٢٣١ .

الفصل الثاني

أساليب الإنشاء

وقفت فى الجزء الأول من هذا الكتاب على الأسلوب الخبرى وأحوال الإسناد الخبرى وأحوال أجزاء الجملة من مسند ومسند إليه ومتعلقات الفعل ، وعرفت ما يمتاز به هذا الأسلوب ؛ إنه مبنى على الحكاية ويقصد به الإخبار والإعلام بمضمون الجملة الخبرية ، وبجانب هذا الأسلوب الخبرى ، توجد الأساليب الإنشائية التى يقصد بها إنشاء الكلام وإيجاده ابتداء ، فليس الهدف منها الإعلام وحكاية الخبر ، وإنما هى عبارات تصاغ ابتداء وتنشأ إنشاء ليطلب بها مطلوبا ، وتمتاز الأساليب الإنشائية بالحث وإثارة الذهن وتنشيط العقل وتحريك المخاطب ... ولمزيد من الإيضاح والتفرقة بين الأسلوب الخبرى والأسلوب الإنشائى تعالوا ننظر فى تلك الشواهد ..

يقول الغنوى فى رثاء أخيه :

أخ كان يكفينى وكان يعيننى ... على نائبات الدهر حين تنوب

عظيم رماد القدر رحب فناؤه ... إلى سند لم تحتجبه غيوب

حليف الندى يدعو الندى فيجيبه ... سريعا ويدعوه الندى فيجيب(1)

عندما تتأمل هذه الأبيات تجد أن الشاعر يحكى عن أخيه ويخبر بأنه كان يأخذ بيده فى أوقات الشدة ، وكان كريما تقصده الضيوف فلا يحتجب

---

(1) السند : ما ارتفع عن الوادى وسفل عن الجبل .. والغيب : البطن المنخفض من الأرض .. وحليف الندى أى : بينه وبين الندى وهو الكرم حلف وعهد ..

عنهم ؛ لأن الكرم خلقه وشيمته ، فهما حليفان لا يفترق أحدهما عن الآخر ، ولا يتخلف عن إجابة دعواه .. وهذا الذي يخبر به الغنوى قد يطابق الواقع فيكون صادقاً ، وقد يخالفه فيكون كاذباً ... وقارن بين رثاء الغنوى فى الأبيات المذكورة وبين قول الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

أعينى جودا ولا تجمدا　　ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجواد الجميلا　　ألا تبكيان الفتى السيدا

تجد الأسلوب هنا يختلف ، فالخنساء لا تخبر وإنما تنادى وتأمر وتنهى وتسأل ، هى تحض عينيها وتحثهما على بكاء صخر ، فهذه أساليب إنشائية ، وهى وإن كان لها واقع فى نفس الخنساء إلا أنه لا يقصد بتلك الأساليب مطابقة هذا الواقع أو مخالفته وإنما يقصد بها إنشاء تلك المعانى .. وكذا القول فى قول سعد بن ناشب منادياً قومه آل رزام .

فيا لرزام رشحوا بى مقدما　　إلى الموت خواضاً إليه الكتائبا

وقول البحترى :

فياليت طالعة الشمسين غائبة　　وياليت غائبة الشمسين لم تغب

وقول الآخر :

ليت الكواكب تدنولى فأنظمها　　عقود مدح فما أرضى لكم كلمى

فهؤلاء الشعراء لم يريدوا الإخبار، وإنما قصدوا إلى إنشاء تلك المعانى ...

ولذا ساغ للبلاغيين أن يقسموا الكلام إلى قسمين :

القسم الأول : الخبر ، وقالوا عنه : إنه قول يحتمل الصدق والكذب لذاته ، كقولك : جاء زيد .. ذهب خالد .. نجح عمرو .. فتلك أخبار تحتمل الصدق والكذب ، و قيدوه بقولهم « لذاته » ، أى : لذات القول ليذهبوا

إلى تلك الأقوال التي لا تحتمل إلا الصدق كأخبار القرآن الكريم والحديث الشريف ، وكالأقوال الثابتة نحو السماء فوقنا والأرض تحتنا والواحد نصف الاثنين ، فتلك الأخبار لا تحتمل سوى الصدق ولكن هذا الاحتمال ليس لذات القول وإنما بالنظر إلى قائله وهو الله تعالى ، والرسول عليه الصلاة والسلام ، وباعتبار ثبات الأقوال في الأخبار التي تتضمن أقوالا ثابتة . . . ولينبهوا أيضا إلى الأخبار التي لا تحتمل إلا الكذب كأقوال مسيلمة الكذاب فمثل هذه الأقوال لا تحتمل إلا الكذب ، ليس لذات القول ، بل باعتبار من قالها ، ولذا قيدوا احتمال الخبر للصدق والكذب بقولهم « لذاته » أي : بغض النظر عن قائله . . . ومرجع احتمال الخبر للصدق والكذب إلى تطابق النسبتين الكلامية والواقعية أو عدم تطابقهما . فقولك : نجح عمرو ، له نسبتان كلامية يفيدها النطق بالخبر والإعلام به ، وخارجية وهي ما عليه الواقع ، فإن تطابقت النسبتان كان الخبر صادقا وإن تخالفتا كان كاذبا .

القسم الثاني : الإنشاء ، وقد عرفوه بقولهم : « قول لا يحتمل الصدق والكذب » ، وذلك لأن أساليب الإنشاء يقصد بها — كما قلت — إلى إنشاء المعاني ، وصوغها ابتداء ليطلب بها مطلوباً معينا ، وهذا لا يعني أن أساليب الإنشاء ليس لها نسبة خارجية حتى ينظر في مطابقتها للنسبة الكلامية فيكون المعنى على الصدق أو عدم مطابقتهما فيكون المعنى على الكذب ، بل لها نسبة خارجية وهي قيام المعنى الإنشائي من تمن أو أمر أو نهي أو استفهام أو نداء في نفس المتكلم ، ولكن ليس المقصود من الجملة الإنشائية الإخبار بمطابقة هذه النسبة للنسبة الكلامية ، وإنما المقصود هو إنشاء المعنى وابتداؤه[1] ..

وأنت تستطيع أن تدرك ذلك عندما تتأمل الأسلوب الإنشائي وتقارن بينه وبين الأسلوب الخبري . انظر إلى قول الشاعر :

ولي كبد مكلومة من فراقكم   أطامنها صبراً على ما أجنت

---

(١) ارجع إلى شروح التلخيص ١ / ١٦٦ وما بعدها ..

وقارنه بقول الآخر :

فيا ليت ما بينى وبين أحبتى من البعد ما بينى وبين المصائب

تجد أن المعنى فى البيت الأول مبنى على الحكاية والإعلام بالخبر الذى يحدث به عن نفسه ونستطيع أن نقول : إنه صادق فيما يخبر أو كاذب ، أما المعنى فى البيت الثانى فالمراد منه : إنشاء التمنى وإيجاد النسبة وإيقاعها دون قصد إلى المطابقة لما فى نفس الشاعر أو عدم المطابقة ، ولذا تجـــد المعانى الإنشائية قد ترد فى أسلوب الخبر كقولك : غفر الله لك وفرج كربك وأثابك ، وكقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب » ، كما أن المعانى الخبرية قد ترد فى أسلوب الإنشاء نحو قوله تعالى : (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ)[1] وكقوله عليه الصلاة والسلام : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار . . . » وسنفصل القول فى هذا ـ إن شاء الله تعالى ـ فيما بعد .

ولك أن تخبر عن أساليب الإنشاء فتقول : تمنيت لك الخير وأمرت خالدا بالمعروف ونهيته عن المنكر واستفهمت عن موعد الاختبار وناديت عمراً فأقبل إلى ، ورجوت لك الخير والصلاح وأقسمت بالله أن أبر والدى وعندئذ يأخذ الأسلوب طابع الحكاية والخبر فيكون كلا ما يحتمل الصدق والكذب .

الإنشاء الطلبى وغير الطلبى : وينقسم الإنشاء إلى قسمين :

١ — إنشاء طلبى وهو ما يستدعى مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ويشمل أساليب الأمر والنهى والتمنى والاستفهام والنداء .. تأمل قوله تعالى : (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)[2] ، وقوله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)[3] ،

(١) سورة الأعراف آية ٢٩ . (٢) سورة الحجر آية ٩٤ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٩ .

وانظر في قول عمر يوصي ابنه عبد الله رضي الله عنهما: «يا بني اتق الله فإن من اتقى الله وقاه ومن توكل عليه كفاه ومن شكره زاده ..»، ثم تأمل قوله تعالى: «يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي»[1]، وقوله جل وعلا: «سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا . .»[2]، وقول شوقي في رثاء حافظ إبراهيم:

ماذا حشدت من الدموع لحافظ وذخرت من حزن له وبكاء

تجد أن هذه الشواهد قد اشتملت على أساليب إنشائية يطلب بها أمر غير حاصل وقت الطلب، فالله عز وجل يأمر نبيه «فاصدع»، «وأعرض»، والأمر طلب للفعل، وينهاه: «لا تحسبن»، والنهي طلب الكف عن الفعل، وعمر ينادي عبد الله: «يابني»، وفي النداء طلب الإقبال، والكافر يتمنى: «ياليتني قدمت»، والتمني: طلب المحبوب الذي لا طمع فيه، والسفهاء يسألون: «ماولاهم»، وشوقي يستفهم: «ماذا حشدت»، والاستفهام طلب الفهم، فهذه الأساليب قد طلب بها - كما ترى - أمور غير حاصلة أثناء الطلب، ولذا كان الإنشاء فيها إنشاء طلبياً، فإذا استعملت تلك الأساليب - الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء - في أمور حاصلة وقت الطلب وجب تأويلها بالطلب بحسب القرائن ومايناسب المقام .. تأمل قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ . .»[3]، وقوله عز وجل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . .»[4]، وقول عمر السابق: «يابني اتق الله ..» تجد أن التقوى والإيمان المأمور بهما حاصلان وقت الطلب، فالمعنى فيهما على طلب دوام الإيمان واستمرار التقوى .

---

(١) سورة الفجر آية ٢٤ . (٢) سورة البقرة آية ١٤٢ .

(٣) سورة الأحزاب آية ١ . (٤) سورة النساء آية ١٣٦ .

٢ — إنشاء غير طلبي: وهو ما لا يستدعي مطلوبا، وله صيغ كثيرة منها: القسم كقوله تعالى: « وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ[١] »، وأفعال المدح والذم كقوله تعالى: « وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ »[٢]، وقوله عز وجل: « بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ .. »[٣]، والترجي كما في قوله تعالى: « فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ .. »[٤]، وقوله تعالى: « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفًا .. »[٥]، والتعجب كما في قول الصمة ابن عبد الله القشيري:

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربا
وما أحسن المصطاف والمتربعا

الربا: ما ارتفع من الأرض، والمصطاف: مكان الصيف، والمتربع: مكان الربيع، والمعنى أفدى بنفسي تلك الأرض لطيب رباها العجيب وجمال فصلها . . . ومنها ألفاظ العقود كقولك: بعت واشتريت ومنها رب وكم الخبرية لدلالتهما على إنشاء التقليل أو التكثير كما في قول القائل: «رب أخ لك لم تلده أمك»، وكما في قوله عز من قائل: « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ .. »[٦].

هذا وقد اهتم البلاغيون بدراسة أساليب الإنشاء الطلبي، وأهملوا دراسة أساليب الإنشاء غير الطلبي، وحجتهم في ذلك أن الإنشاء الطلبي غني بالاعتبارات والملاحظات البلاغية، وأن أساليبه وهي الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء قد ترد ويراد بها غير معانيها، فالأمر لطلب حصول الفعل وقد يرد للتهديد

---

(١) سورة الأنبياء آية ٥٧ .
(٢) سورة الذاريات آية ٤٨ .
(٣) سورة الجمعة آية ٥ .
(٤) سورة المائدة آية ٥٢ .
(٥) سورة الكهف آية ٦ .
(٦) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

ونحوه والاستفهام لطلب الفهم وقد يرد للإنكار وغيره ... وهكذا فتلك الأساليب الطلبية يتولد منها بحسب القرائن والسياق معان بلاغية متعددة ..
أما أساليب الإنشاء غير الطلبي فقد أهملوها لأمرين وهما :

١ ـ أن أكثر هذه الأساليب فى الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء .

٢ ـ أنها لا تستعمل إلا فى معانيها التى وضعت لها، فالقسم لا يفيد إلا القسم والتعجب لا يرد لغير التعجب ... وهذا لا يعنى أن تلك الأساليب خالية من الاعتبارات البلاغية والمزايا الجماليه ، بل تكمن وراءها ملاحظات بلاغية واعتبارات دقيقة ، انظر إلى أسلوب التعجب فى التعبيرات الجيدة تجد وراءه كثيرا من الدقائق التى يتوهج فيها الإحساس بالأشياء والمعانى ... وتأمل أسلوب القسم فى القرآن وتعدد مواقعه واختلاف المقسم به وأجوبة القسم تجد وراء ذلك اعتبارات جديرة بالبحث والدراسة ... وهكذا تجد وراء كثير من أساليب الإنشاء غير الطلبية مزايا واعتبارات تستحق الدراسة والتأمل ... وسنقوم ـ إن شاء الله تعالى ـ بالنظر فى تلك الأساليب وتجلية ما وراءها من أسرار واعتبارات فى بحث آخر مستقل ... أما الآن فإليك أساليب الإنشاء الطلبية .

أسلوب الأمر : للأمر صيغ أربع وهى :

١ ـ فعل الأمر كقوله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ .. »[1]، وقوله عز وجل: « وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. »[2] .

٢ — الفعل المضارع المقرون بلام الأمر ، كما فى قوله تعالى : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ .. »[3] ،

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠ (٢) سورة هود آية ٣٧ .
(٣) سورة الطلاق آية ٧ .

وقوله عز وجل : « فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ .. »[1].

٣ — اسم فعل الأمر ، نحو : صه بمعنى اسكت ، ومه بمعنى اكفف وعليك بمعنى الزم ، ومنه قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ .. »[2] .

٤ — المصدر النائب عن فعل الامر كقوله تعالى : « وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. »[3] ، أى : وأحسنوا بهما ، وقوله عز وجل : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ .. »[4] ، أى : فاضربوا الرقاب ..

ومنه قول قطرى بن الفجاءة :

فصبرا فى مجال الموت صبراً ‏ ‏ فما نيل الخلود بمستطاع

وكقوله عليه الصلاة والسلام : « رفقا بالقوارير » ، وتقول : سعيا فى الخير وأمراً بالمعروف ونهيا عن المنكر ورميا بالرمح وضربا بالسيف وحمداً لله وشكراً .

وقد قالوا فى تحديد مفهوم الأمر : هو طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء حيث يكون من الأعلى إلى الأدنى ، فالأعلى يطلب ممن هو دونه حصول الفعل وتحقيقه ويبعثه عليه ويحث ، وقد اختلف البلاغيون فيما يستعمل فيه أسلوب الأمر ، فيرى البعض أنه يستعمل فى الوجوب وأن المراد به الإلزام والتكليف ، وبعضهم يرى أنه للندب ، وآخرون يرون أنه يستعمل فى معنى يشمل الوجوب والندب وهو الطلب على جهة الاستعلاء ، ويرى آخرون أنه من الألفاظ المشتركة بين الوجوب

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢ . ‏ ‏ (٢) سورة المائدة آية ١٠٥ .

(٣) سورة النساء آية ٣٦ . ‏ ‏ (٤) سورة محمد آية ٤ .

والندب فقط ، أو بين الوجوب والندب والإباحة ، وذلك كاشتراك لفظ الغزالة فى الشمس والظبى ، والخال فى الشامة بخد الحسناء وأخ الأم ، فأسلوب الأمر موضوع للمعنيين : الوجوب والندب أو المعانى الثلاثة : الوجوب والندب والإباحة ، أو لمعنى يشملها مثل الإذن[1] .

ولهذا وجدنا الخطيب القزوينى يحتاط عند تعريفه الأمر حيث قال : « والأظهر أن صيغته من المقترنة باللام نحو : ليحضر زيد ، وغيرها نحو : أكرم عمراً ورويد بكراً ، موضوعة لطلب الفعل استعلاء لتبادر الذهن عند سماعها إلى ذلك وتوقف ماسواه على القرينة »[2] .

فلم يجزم بتعريفه — كما ترى — بل جعله « الأظهر » ، ولعل سبب اختلاف البلاغيين فى تحديد استعمال أسلوب الأمر، مرده إلى أن صيغ الأمر قد شغلت الدارسين فى كثير من المجالات وبخاصة الفقهاء والأصوليين لاتصالها بالوجوب والندب وما إلى ذلك من أحكام فقهية ، توجب الحــذر فى الدراسة والاستنتاج[3] .

والذى أراه أن الأصل فى صيغ الأمر أن تستعمل فى طلب حصول الفعل على سبيل التكليف والإلزام من الأعلى الأدنى ؛ لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عند سماعها — كما ذكر الخطيب — وقد تستعمل فى غير هذا الأصل الذى وضعت له فتفيد الإباحة أو الدعاء أو التهديد أو التمنى أو الحث والإثارة أو الاستمرار والدوام على تحقيق الفعل .. إلى غير ذلك من المعانى التى تفيدها صيغ الأمر بمعونة السياق وقرائن الأحوال ، وقد اهتم البلاغيون بالحديث عن هذه المعانى وتجليتها والكشف عن دقائقها ومزاياها فى التعبير .

---

(١) انظر شروح التلخيص ٢/٣١٠ .

(٢) ارجع إلى الإيضاح ٢/٥٣

(٣) انظر دلالات التراكيب ص ٢٦١ .

المعانى البلاغية التى يفيدها أسلوب الأمر ووجـــه الدلالة عليها : ـ

الأصل فى أسلوب الأمر ـ كما بينت ـ طلب حدوث شىء لم يكن حاصلا وقت الطلب على سبيل التكليف والإلزام من جهة عليا آمرة إلى جهة دنيا مأمورة، وقد يخرج الأمر عن هذا الأصل فيفيد معانى كثيرة يرشد إليها السياق وقرائن الأحوال ، وأهم هذه المعانى :

١ ـ الإباحة : وذلك عندما تستعمل صيغة الأمر فى مقام يتوهم فيه السامع حظر شىء عليه، كقولك : جالس الحسن أو ابن سيرين ، فليس المراد هنا طلب الفعل استعلاء ، ولكن لما كان السامع يتوهم عدم جواز الجمع بين مجالستهما لما كان بينهما من سوء المزاج ، أباح المتكلم له مجالسة أيهما شاء فالأمر ـ كما ترى ـ يفيد الإباحة ، حيث يبيح للسامع أن يجالس أحد العالمين أو كليهما أو لا يجالس ، وليس ملزما له بفعل شىء . . ومن جميل ذلك قول كثير عزة :

أسيء بنا أو أحسنى لا ملومـــة
لدينا ولا مقلية إن تقلت(١)

أى : لا أنت ملومة ولا مقلية ، فكثير يبيح لعزة أن تسيىء إليه أو تحسن ، فهو راض فى الحالين غاية الرضا ، وسر جمال هذا التعبير أى : التعبير بصيغة الأمر فى مقام الإباحة فى هذا البيت أنه يكشف لنا عما أصاب الشاعر من عشق وهيام ، فقد وصل به إلى منتهاه ، حتى صار يطلب منها الإساءة كما يطلب الإحسان ، ويلح فى ذلك إلحاحا ، وكأن الإساءة أمر مطلوب مرغوب ، فالإنسان عندما يصل به الحب إلى حد الإفراط يصير كل فعل يصدر عن

---

(١) القلى : البغض والكراهية وفى قوله : تقلت، التفات وحذف المعمول والأصل إن تقليتنا فالتفت إلى الغائب وحذف المعمول .

حبيبه لا يراه إلا جمالا ، وبهـــذا يتضح لك أن استعمال الشاعر لصيغة الأمر فى مكان الإباحة يكشف عن مكنون نفسه ويبرز ما بداخله ، بأخصر طريق وأجمله . .

واستعمال الأمر فى معنى الاباحة كثير فى آى الذكر الحكيم ، من ذلك قوله تعالى : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ . . »(١) فالمراد من الأمر فى الآية الكريمة إباحة الأكل والشرب فى ليالى رمضان حتى طلوع الفجر ، وفى التعبير بصيغة الأمر مكان الإباحة حث على تناول السحور وكأنه أمر مطلوب مرغوب فيه . . . ومثله قوله تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ . . . »(٢) . . . ففيه حث على العمل وابتغاء الرزق.

٣ ـ التخيير : ويكون فى مقام التخيير بين شيئين أو أشياء بحيث يختار منها السامع ، كما فى قول بشار :

فعش واحداً أوصل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه

فهو يخير مخاطبه بين أمرين : العيش واحداً منعزلا أو صلة الإخوان ومخالطتهم مع التجاوز عما يكون منهم من إساءات ، وتلك لابد منها، على حد قول الآخر :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

هذا والفرق بين الإباحة والتخيير ، أن الإباحة إذن فى الفعل وإذن فى الترك فهى إذنان معا ، أما التخيير فهو إذن فى أحدهما من غير تعيين ، ولذا فالتخيير لايجوز الجمع بين الشيئين والإباحة تجوزه

---

(١) سورة البقرة الاية ١٨٧ (٢) سورة الجمعة الآية ١٠

٣ — التهديد : ويكون فى مقام عدم الرضا بالمأمور به ، كما تسمع من الرئيس يقول لمرءوسه : افعل مابدا لك ، أو من السيد يقول لعبده : دم على عصيانك فالعصا أمامك ، فليس المراد من الأمر فى الموضعين الامتثال ، أى : فعل ما أمر به ، ولكن المراد هو التهديد والوعيد ، وكأن الرئيس والسيد يطلبان من المرءوس والعبد أن يخالفاهما وذلك لرغبتهما القوية فى إنزال العقوبة بالمرءوس والعبد ، فإذا ماكانت المخالفة كان العقاب مرا والإيذاء شديداً . . وتأمل قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ »(١) ، فقد أخبر الله عز وجل عنهم أنهم أشركوا به وجعلوا له أنداداً ليضلوا عن سبيله ثم جاء الوعيد والتهديد : « تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ، فليس المراد بالأمر فى الآية : « الامتثال » ، وكأن الله تبارك وتعالى لما ارتكب هؤلاء مالا يغفر وهو الشرك ، أراد لهم أن يقوى طغيانهم ويشتد إعراضهم ويزدادوا تمتعا بشهواتهم ، فإذا ماتم لهم ذلك كان عقابهم أشد وأقوى ، فليس الأمر مراداً — كما ترى — بل المراد هو الزجر والوعيد حتى يقلع هؤلاء عماهم فيه من عناد ومكابرة ، وتدبر الالتفات من الغيبة فى قوله : « جعلوا . . . ليضلوا » إلى الخطاب فى قوله « تمتعوا فإن مصيركم . . . » فهو التفات الغاضب المتوعد . . وخذ قوله تعالى : « يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ »(٢) فقد أمر المنافقون بالاستهزاء لا ليمتثلوا بل ليزدادوا نفاقاً على نفاقهم فيكون عقابهم أشد وأعتى ، وفى هذا من الزجر والتوعد والتهديد مافيه ، وتجد الالتفات هنا من الغيبة إلى الخطاب ، كما فى الآية السابقة يفيد شدة الوعيد وقوة الزجر . . . ومثله قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ

---

(١) سورة إبراهيم آية ٣٠ (٢) سورة التوبة آية ٦٤

يأتي آمناً يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير »(١) . .

فليس المراد بالأمر : « اعملوا » أن يمتثلوا فيعملوا ما يشاءون بل المراد الزجر والتهديد حتى يقلعوا عن الإلحاد ويكفوا عن العناد وكأن الله سبحانه وتعالى - لشدة غضبه عليهم - يأمرهم بما يوجب عقابهم لينكل بهم أشـــد تنكيل ، وهذا هو سر بلاغة التعبير بالأمر في مقام الوعيد والتهديد . .

وخذ قوله صلى الله عليه وسلم « إذا لم تستحي فاصنع ما شئت » ثم قارن بينه وبين قوله عليه الصلاة والسلام : « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اصنعوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم .. » تجد أن الأمر في الحديث الأول يفيد التهديد والتوعد بدليل قوله : « إذا لم تستحي » ، وفي الثاني يفيد التبشير وكمال الرضا عنهم ، فالله سبحانه وتعالى قد أقبل إليهم « اطلع » ، وفي هذا من التشريف والتكريم لهم ما لا يخفى ، وقد أنعم عليهم بالرحمة والغفران « إني قد غفرت لكم » ، وبهذا يتضح لك ما للسياق وقرائن أحواله فهو الذي يحدد المعنى الذي يفيده أسلوب الأمر ، وعد إلى الآيات السابقة فتأمل سياقها وأمعن فيه النظر ، وعندئذ فسيتضح لك أن أسلوب الأمر لم يفد ما أفاده إلا بمعونة السياق ومعرفة قرائن الأحوال في الآيات الكريمة . .

٤ - التعجيز : ويكون في مقام إظهار عجز من يدعي قدرته على فعل أمر ما وليس في وسعه ذلك ، كما في قوله تعالى : « وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. »(٢) فليس المراد الأمر في الآية الكريمة التكليف والإلزام بالإتيان بسورة من مثله ، وإنما المراد إظهار عجزهم عن الإتيان ، لأنهم إن حاولوا ذلك الإتيان بعد سماع صيغة الأمر ولم يمكنهم بدا عجزهم وظهر . .

---

(١) سورة فصلت آية ٤٠ (٢) سورة البقرة آية ٢٣ .

وسر بلاغة التعبير بالأمر فى مقام التعجيز إبراز قوة التحدى والتسجيل عليهم ليتعظوا ويقلعوا عما هم فيه من عناد ومكابرة ..

ومثله قوله تعالى : « وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَو نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »[١] وقوله عز وجل : « الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »[٢] ، وقوله تعالى « هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ »[٣]، ولا يخفى عليك ما فى الآيات الكريمة من قوة التحدى والتسجيل على المخاطب وإبراز عجزه ، وفى ذلك لفتهم إلى النظر فى حالهم والتفكر فيما هم فيه من عناد ومكابرة وسوء تقدير ... وتأمل قول المهلهل مخاطبا آل بكر، ومعلنا شدة غضبه لقتلهم أخاه كليبا .

يا لبكر أنشروا لى كليبا يا لبكر أين أين الفرار

فهو يهددهم بالويل والثبور ويطالب منهم إعادة كليب إلى الحياة ، وإعادة كليب إلى الحياة من المحال ، فالأمر فى قوله : « أنشروا لى » للتعجيز وسر بلاغة التعبير بأسلوب الأمر فى البيت: إشعارهم بأنه لا منجى لهم ولا مهرب، وأنه آخذ بثأره منهم لا محالة ... وخذ قول الآخر :

أرونى بخيلا طال عمراً ببخله وهاتوا كريما مات من كثرة البذل

فالشاعر يتحدى المخاطبين أن يقفوه على بخيل قد امتد عمره وطال أجله بسبب بخله ، وأن يبرزوا له كريما قد مات من كثرة البذل والعطاء ، ونشعر بما وراء ذلك من التنفير من البخل، والحث على الكرم والعطاء ، فأسلوب الأمر فى البيت ، أسلوب موح ومقنع ، يكشف أمر البخيل حتى يقلع البخلاء

---

(١) سورة البقرة الآية ١١١ (٢) سورة آل عمران آية ١٦٨
(٣) سورة لقمان الآية ١١

عن بخلهم ويبرز فضل الكريم المعطاء فيزداد كرماً وتطيب نفسه ويقتنع بسلامة منهجه وصحة مسلكه . .

ومثله قول الآخر :

أروني أمة بلغت مناها ... بغير العلم أو حد الحسام

فغير خاف عليك ما وراء الأمر والتحدي من حث على طلب العلم ومكافحة الأعداء حتى ترقى الأمة وتبلغ مناها . .

ه ـ الإهانة والتحقير : وتكون في مقام عدم الاعتداد بالمخاطب وقلة المبالاة به كما في قوله تعالى : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ »[1] فالكافر لا يمكنه الذوق ؛ لأنه يعاني غصص العذاب وآلامه ومحنه وتلك حال لا يستطيع فيها أن يذوق إلا الحميم والغسلين ، ولا يخفى عليك ما وراء أسلوب الأمر من الإهانة والتحقير والتهكم والاستهزاء بهؤلاء الذين انحرفوا عن الحق وحادوا عن المنهج القويم وتنبعث تلك السخرية من قوله : « إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » ، ولا عزة ولا كرامة ، وإنما ذلة ومهانة . . ومثله قوله تعالى : « بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »[2] فالأمر بالتبشير في الآية يحمل معنى الإهانة والتحقير لهؤلاء المنافقين . . وتأمل قول الشاعر :

فدع الوعيد فما وعيدك ضائري ... أطنين أجنحة الذباب يضير

فأمره بترك الوعيد يشعر بمدى الحقارة والاستهزاء بهذا الذي يتوعد ويهدد وليس في إمكانه أن يحقق هذا الوعيد ، فوعيده طنين كطنين أجنحة الذباب ، وأنى لمثل هذا الوعيد أن يضير ، بل كيف يتوعد من هذا شأنه .

---

(١) سورة الدخان آية ٤٩ (٢) سورة النساء آية ١٣٨

٦ - التسوية : وتكون فى مقام توهم رجحان أحد الأمرين على الآخر ، كما فى قوله تعالى: « قُلْ أَنفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ »(١) أى: يستوى عدم القبول منكم، سواء أكانت النفقة صادرة عن طواعية أو عن كراهية ، وذلك أنه سبحانه وتعالى قد علم من حالهم عدم الاهتداء ، وربما يتوهم المخاطب أن الإنفاق طوعاً مقبول فدفع ذلك بالتسوية بينهما . . . ومثله قوله تعالى : « اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »(٢) . . وقوله عز وجل « قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا . . »(٣) أى : يستوى الصبر وعدمه فى عدم النفع وذلك دفعاً لما قد يتوهم من أن الصبر نافع للكفار فى عذاب يوم القيامة .. وتشعر فى الآية الثانية فضلا عن التسوية بين الإيمان وعدمه بمعنى الاحتقار والازدراء وقلة المبالاة ، أى : آمنوا أو لا تؤمنوا فقـــد آمن به من هم أفضل منكم وأعظم ، ولذا استوى إيمانكم وعدم إيمانكم ..

٧ - التمنى : ويكون فى مقام طلب الشيء المحبوب الذى لا قدرة للطالب عليه ولا طمع له فى حصوله .. كما فى قوله تعالى : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ »(٤) . فقد طلبوا الخروج من النار ولات حين خروج ، إنه محال ولا طمع لهم فى حصوله ولكنه التمنى . . وانظر إلى قول امرىء القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى　　　بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فالشاعر قد كثرت همومه وتكالبت عليه الشدائد حتى أصابه الأرق وهجره النوم ، فهو يتمنى أن ينجلى ذلك الليل ، وينأى بظلامه عنه حتى يستقبل الصباح وينعم بضيائه، ثم عاد على ذلك بالنقض فقال: « وما الإصباح منك بأمثل » فأنت وهو سواء ، وإنما طلب انجلاء الليل مع هـذا ، لأن فى تغيير

(١) سورة التوبة آية ٥٣ .　(٢) سورة الطور آية ١٦ .
(٣) سورة الإسراء آية ١٠٧ .　(٤) سورة المؤمنون آية ١٠٧ .

الزمن راحة على كل حال . . وليس الغرض من صيغة الأمر « انجلى » طلب الانجلاء من الليل ، لأن الليل ليس مما يخاطب ويؤمر ، وإنما يتمنى الشاعر ذلك تخلصا مما يعانيه . .

وتأمل قول أبي العلاء المعرى :

فياموت زر إن الحياة ذميمة
ويا نفس جدى إن دهرك هازل

فالشاعر قد استعمل صيغة الأمر « زر » وأراد بذلك التمنى ، لأن الموت لا يقبل أن تطلب منه الزيارة . ولكن أبا العلاء يرى أن الموت قد تأخر تأخرا مملا ، ولذا تمنى زيارته حتى يلبى تلك الزيارة فقد أصبحت الحياة جحيما لا يطاق ، والشاعر يتمنى الموت تخلصا مما يعانيه من قسوتها . . وهذا المعنى تراه شائعاً على ألسنة الناس فهم يطلبون الموت عند حلول الشدائد والأزمات وتكالب الأحزان ، وعدم قدرتهم على تحمل نوائب الدهر ومصائبه ، فيتمنون الموت تخلصا من تلك النوائب . .

٨ - الدعاء : وهو الطلب على سبيل التضرع والخضوع ، ويكون فى أسلوب الأمر إذا صدر من الأدنى إلى الأعلى منزلة . كما فى قوله تعالى : « رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي »[1]. وقوله عز وجل : « رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ »[2]. وقوله جل وعلا : « رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . . »[3] فالأمر فى

---

(١) سورة طه آية ٢٥-٣٢ (٢) سورة آل عمران آية ١٩٣ .

(٣) سورة البقرة آية ١٢٦ .

هذه الآيات الكريمة ونحوها، المراد منه التضرع إلى الله والتوجه إليه والدعاء له ، لأن الله جل وعلا لا يأمره أحد من خلقه . . . ومسر التعبير بأسلوب الأمر فى مقام الدعاء فى الآيات الكريمة هو إظهار كمال الخضوع لله عز وجل، وبيان شدة الرغبة فى تحقيق تلك الأفعال، حتى كأنها أمور مطلوبة من الله جل وعلا .. وتأمل قول المتنبي يخاطب سيف الدولة :

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم فأنت الذى صيرتهم لى حسدا

وقوله أيضاً :

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك

ولا تعطين الناس ما أنا قائل

تجد المتنبي يخاطب سيف الدولة بأسلوب الأمر : « أزل .. أعط .. » ولا يريد بالأمر حقيقته من الإلزام والتكليف ، لأن الأمير لا يأمره أحد من رعاياه ، وإنما أراد المتنبى التوسل والدعاء ، وإيثاره أسلوب الأمر يدل على رغبته القوية فى تحقيق ما يريد ، وكأنه أمر مطلوب من سيف الدولة ..

٩ـ الالتماس : ويكون عند خطاب من يساويك فى الرتبة والمنزلة ، والطلب منه على سبيل التلطف وبدون تضرع ولا استعلاء ، على نحو ما نرى فى قول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فهو يخاطب صاحبيه ويطلب منهما الوقوف فى هذا المكان العزيز على نفسه ، ليذرفا معه الدمع قضاء لحق هذه الذكرى الغالية، وهو طلب صاحب من صاحبيه بأسلوب الأمر ، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يراد بصيغة الأمر « الالتماس » ، لا الإلزام والتكليف ، لان خطاب الند نده لا يراد به معنى الإلزام .. ومثله قول كثير :

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت(١)

فهو يطلب من خليليه أن يقفا معه ساعة فى منزل فتاته « عزة » وفاء لها وقياما بحقه من البكاء فيه، لخلوه من ساكنيه . .

والتعبير بصيغة الأمر فى مقام « الالتماس » يوحى بمدى انفعال الشاعر وسيطرة ذكرياته عليه حتى أنسته كل شيء ماعدا رغبته فى تحقيق ذلك الأمر من جميع الرفاق . وكأن البكاء ليس مطلوبا منه وحده بل مطلوب منهم جميعا ، وأسلوب الأمر لا يكون حسنا ومقبولا بين الرفاق إلا إذا كان بينهم تواضع جم وحب شديد ولذا نلاحظ كثيراً يقول : « خليلى » ، فهما خليلاه اللذان اصطفاهما وارتضى صحبتهما وألفهما .

١٠ ـ النصح والإرشاد : وقد يكون أسلوب الأمر للنصح والإرشاد وذلك إذا تضمن نصيحة لم تكن على وجـــه الإلزام ، كما فى قوله تعالى : « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »(٢) ، وقوله عليه الصلاة والسلام لعلى كرم الله وجهه : « إن أردت أن تسبق الصديقين فصل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك » . فى الآية الكريمة يوصى لقمان ابنه بتلك الفضائل وفى الحديث ينصح صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه أن يتحلى بتلك الخصال الحميدة ، ولا يقال إن الأمر هنا للوجوب إذ المأمور به واجب ، لأن المأمور به إنما يكون واجبا إذا وردت تلك الأوامر فى مقام الأمر والإلزام من الله عز وجل ، أما ورودها هنا على لسان لقمان فى الآية وعلى لسان المصطفى فى الحديث ، فإن المقام يقتضى أن تكون للنصح والإرشاد . . .

ومن هــــذا القبيل تلك الأوامر التى ترد على ألسنة الوعاظ والمرشدين والموجهين ، فهم يريدون منها النصح والإرشاد ، وأن يعبروا عما يضمرونه

---

(١) الربع : الحى أو الدار . والقلوص : الناقة الشابة . وعقل البعير : قيده .

(٢) سورة لقمان آية ١٧ .

من حب وإخلاص لأتباعهم ، وهذا هو سر التعبير بأسلوب الأمر فى مقام الإرشاد والنصح .

١١ — الإكرام : كما فى قوله تعالى : « أُدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ »[1] ، فقد قالوا فى معناه : إنهم لما صاروا فى الجنات ، فإذا ما انتقلوا من بعضها إلى بعض يقال لهم عند الوصول إلى التى أرادوا الانتقال إليها : « ادخلوها » وأرى - والله أعلم - أن أسلوب الأمر فى الآية مراد به « الإكرام » للمؤمنين وهذا شائع بين الناس ، فإنك تقول لضيفك وهو مستمر فى الأكل والشرب كل واشرب ، وقد تقسم عليه أن يأكل ولا تقصد إلا زيادة إكرامه وأن تصور ما فى خلجات نفسك من حب له وسرور به .

١٢ - وقد يأتى الأمر لتصوير حال المتكلم والدلالة على ما هو فيه من الحيرة والتخبط ؛ كما فى قوله تعالى: « وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ »[2]، فأصحاب النار يعلمون يقينا أن ما فى الجنة محرم عليهم ، ولكنهم لفرط ما هم فيه من هول وعذاب، كأنهم قد فقدوا عقولهم فصاروا يطلبون مالا سبيل إلى تحقيقه .

ومثله قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ : رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ... »[3] ، وقوله عز وجل : « قَالُوا : رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ »[4] ، وكأن الكافر وقد حضره ملك الموت وأبصر زبانية العذاب أصابه الهول فصار يطلب مالا سبيل إلى تحقيقه ، ولا يدرى ماذا يقول . وكذا فى الآية الثانية ، كأن الأشقياء لشدة ماذاقوا من العذاب فى جهنم أصبحوا فى حيرة وتخبط فصاروا يطلبون ويتمنون مالا سبيل إلى تحقيقه . .

(١) سورة الحجر آية ٤٦ .
(٢) سورة الأعراف آية ٥٠ .
(٣) سورة المؤمنون آية ١٠٠ .
(٤) سورة المؤمنون آية ١٠٧ .

١٣ - وقد يأتى الأمر للإثارة والإلهاب والتهييج وذلك عندما يوجه إلى المأمور الواقع منه الفعل، والذى لا يتصور أن يكون منه خلافه، كما فى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ»[1].. وقوله عز وجل: «فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»[2].. وقوله جل وعلا: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا..»[3].. إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى يوجه فيها الأمر بما هو حاصل أو النهى عن غير الحاصل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الغرض من الأمر أو النهى عندئذ هو الإثارة والتهييج والإلهاب حتى يزداد المخاطب تمسكا بما هو عليه من الحق واليقين ويستمر ويداوم، ولذا قالوا: إن التعبير بالأمر فى مثل هذه الآيات وكذا النهى، يفيدان طلب الدوام والاستمرار، أى: طلب دوام التقوى والاستقامة والابتعاد عن الكفار وعن الطغيان.. ونرى أن أسلوب الأمر والنهى الموجهين إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى مثل هذه الآيات يفيدان بالإضافة لما سبق، الإشارة إلى بسط سلطان الربوبية وتفردها بالأمر والنهى وأن البشرية فى أسمى صورها وأعلى منازلها، وهى النبوة تؤمر وتنهى، وهذا تعميق للفرق بين الألوهية والنبوة، وهو ما حرص الإسلام على إبرازه وتقريره، حتى لا يتطرق إلى عقيدة الوحدانية عند هذه الأمة، ما تطرق إليها عند الأمم السابقة، فقد قالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت اليهود عزير ابن الله، ولهذا كان أسلوب الأمر أو النهى الموجه إلى النبى - عليه الصلاة والسلام - فى مثل هذه الآيات: «استقم - اتق الله - لا تطع - لا تكونن من المشركين»

---

(١) سورة الأحزاب آية ١ (٢) سورة هود آية ١١٢

(٣) سورة الروم آية ٣٠

مشيرا إلى أن محمداً وهو الذى ما خلق الله ولا ذرأ ولا برأ نفساً أكرم عليه منه ، إنما هو بشر يؤمر وينهى ويحذر ويتوعد : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ »(١) ، « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ »(٢) وبذا يظل للألوهية سلطانها القاهر المهيمن وتقف النبوة عند منزلتها السامية التى مهما سمت لا ترقى إلى مرتبة الألوهية(٣) . .

١٤ — وقد يأتى الأمر تصويرا للحدث وبيانا لكيفية وقوعه انقياداً لقدرة الله تعالى ، كما فى قوله عز وجل : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا : أَتَيْنَا طَائِعِينَ »(٤) ، وقوله جل وعلا : « فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ »(٥) ، وقوله : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ »(٦) ، فالأمر فى الآيات الكريمة : « ائتيا — موتوا — كن » يصور حال الحدث وسرعة وقوعه وانقياده لأمر الله تعالى . . وفى هـــذا من الدلالة على القدرة البالغة ما لا يخفى على صاحب الذوق الرفيع — وتأمل ما فى الآيات من أمر يعقبه استجابة سريعة ، ثم قارن بينه وبين أن تقول : فأماتهم الله ثم أحياهم . . إنما أمره إذا أراد شيئاً يكون . . فأمرهما الطاعة فأطاعتا . . فستجد أن تصوير الحدث وبيـــان كيفية وقوعه وانقياده الخاطف لقدرة الله عز وجل ، قد ولى وذهب ، فى هذه الأقوال . .

١٥ — وقد يأتى الأمر بالفعل مرادا به الحث على الاتصاف بصفة معينة ، كما فى قولك : مت وأنت كريم . . مت وأنت تقى — صل وأنت خاشع .. واقرأ وأنت يقظ فأنت . فى هذه الأقوال لا تريد أمره بالموت ولا الصلاة ولا القراءة ،

---

(١) سورة الزمر آية ٦٥ (٢) سورة الحاقة الآيات ٤٤ — ٤٦ .
(٣) ارجع إلى دلالات التراكيب ٢٧٠ (٤) سورة فصلت آية ١١
(٥) سورة البقرة آية ٢٤٣ (٦) سورة يس آية ٨٢

وإنما تريد أن تحثه على تلك الصفات المذكورة وهي الكرم والتقوى والخشوع واليقظة ، وأن يحافظ ويستمر على الاتصاف بها ، ويحرص على ذلك طوال حياته فهذا هو الأولى به واللائق بأمثاله من الكرماء الأتقياء . . ومثل الأمر في ذلك أسلوب النهي تقول : لا تصل إلا وأنت خاشع . . لا تمت إلا وأنت كريم ، ومرادك من هذا النهي: أن تحثه على الخشوع والكرم ، لا نهيه عن الصلاة والموت . . . ومن ذلك قوله تعالى : « ووَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . . »[1] ، فالمراد حثهم على التمسك بالإسلام وألا يكونوا على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا ، أي : حثهم على أن يستمروا طوال حياتهم متمسكين بالإسلام محافظين عليه فإذا ما جاءهم الموت - وهو لا يأتي إلا بغتة - ماتوا وهم مسلمون .

١٦ - وقد يرد الأمر ولا يراد به مأمور معين وإنما يراد به كل من يتأتى منه الخطاب ، كما في قوله - عليه الصلاة والسلام - : « بشر المشائين إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » ، لا يريد - صلى الله عليه وسلم - مخاطبا معينا ، وإنما أراد عموم الأمر ، حتى كأن كل فرد من أفراد الأمة مبشر لهؤلاء ، وفي هذا تكريم المشائين إلى المساجد وتنويه بشأنهم ورضا الله تعالى عنهم وتجليه عليهم بالرحمة والغفران والنور التام . . إلى غير ذلك من الأغراض والمعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر ، فهي كثيرة يطول حصرها ، وما نريده الآن هو أن نقف على وجه دلالة أسلوب الأمر على تلك المعاني . .

قال كثير من البلاغيين إن هذه المعاني التي يفيدها أسلوب الأمر معان مجازية بمعنى أن الأسلوب قد انتقل من الدلالة على الأمر إلى إفادة تلك المعاني ، وكل مجاز لا بد فيه من علاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي . . وقد خاض

---

(١) سورة البقرة آية ١٣٢

البلاغيون وجدوا فى التماس تلك العلاقات ، فالعلاقة بين الأمر والإباحة هى الإطلاق والتقييد ، لأن الأمر إذن مقيد ، والإباحة لمطلق الإذن ، فاستعمال الأمر فى الإباحة مجاز مرسل .. ويجوز أن تكون العلاقة : التضاد ، لأن إباحة كل من الفعل والترك تضاد الإيجاب . . . والعلاقة بين الأمر والتهديد : شبه التضاد وبين الأمر والإهانة : اللزوم .. وهكذا(١) . .

وبعضهم يجعل استعمال الأمر فى تلك المعانى من قبيل الكناية ، وبعضهم يجعله من قبيل مستتبعات الكلام ... وكذا القول فى المعانى البلاغية التى يفيدها أسلوب النهى أو أساليب الاستفهام الآتى بيانها . . والذى نراه أن دلالة الأمر وكذا النهى والاستفهام على تلك المعانى من مستتبعات الكلام بمعنى أن السياق وقرائن الأحوال هى التى تحدد تلك المعانى المرادة ، وأنه لا داعى للخوض فى التماس علاقات واهية بين تلك المعانى وبين أساليب الأمر والنهى والاستفهام، لأنه على الرغم من وهن هذه العلاقات فإنه لا فائدة للدرس البلاغى وراءها ، فالأولى أن تصرف الهمم وأن توجه الأذهان إلى معرفة المزايا والأسرار الكامنة وراء استعمال الأساليب الإنشائية فى الدلالة على هذه المعانى ، والوقوف عليها من خلال سياقات الكلام ومعرفة قرائن أحواله ، لا أن تبدد فى اللهث وراء التقاط علاقات لا تنمى ذوقا ولا تفيد شيئا . . تأمل قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)(٢) وقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا لم تستحى فاصنع ما شئت » وقوله عليه الصلاة والسلام : « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم » تجد أن أسلوب الأمر واحد « اعملوا ما شئتم —

---

(١) ارجع إلى هذه العلاقات فى شروح التلخيص ج ٢ ص ٣١٣ وما بعدها .

(٢) سورة فصلت آية ٤٠ .

اصنع ماشئت، وعلى الرغم من ذلك اختلفت دلالته، وهذا الاختلاف مرده إلى السياق ووقوفنا على مرمى الكلام ومغزى الحديث، فالآية تتحدث عن الكفرة الذين يلحدون فى آيات الله وتبين أنهم لا يخفون عليه تعالى، فهو عليم بهم ومصيرهم إلى النار، فليعملوا ما شاءوا، الأمر كما ترى ينبىء بالوعيد والتهديد الشديدين. وكذا الحديث الأول يتحدث عن الذى لا يستحى من الله تعالى، فقوله صلى الله عليه وسلم فى خطابه: اصنع ما شئت إنما هو وعيد وتهديد وزجر وتحذير .. أما الحديث الثانى فإنه يتحدث عن هؤلاء الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه إنهم أهل بدر، وقول الله لهم: «اعملوا ماشئتم» إنما هو وعد ورضا ونعيم ورضوان .. مثل هذا هو الذى ينبغى أن تكرث الجهود لمعرفته والإحاطة به فهو الذى ينمى الأذواق ويصقل الأذهان ويقف الدارس على خبايا التراكيب وأسرارها، ومزاياها الجمالية .. أما أن يشغل الدارس بمعرفة أن استعمال الأمر فى مقام التهديد، مجاز مرسل علاقته ما بين الطلب والتهديد من شبه التضاد، إذ المأمور به إما واجب أو مندوب والمهدد عليه إما حرام أو مكروه، وأن شبه التضاد هو الذى جوز استعمال الطلب مكان التوعد والتهديد استعمالا مجازيا. فهذا ما أرى أنه لا فائدة من معرفته ولا ثمرة من الوقوف عليه، ولذا ينبغى أن يكون عن البلاغة بمعزل .. ومن أجل هذا فضلت القول بأن دلالة أساليب الإنشاء على معانيها البلاغية من مستتبعات التراكيب، وأن الواجب على الدارس أن يجد فى تذوق تلك المستتبعات التى هى سياق الكلام وقرائن أحواله وأن يقف على أسرارها ودقائقها. ومن خلال ذلك يصل إلى المعانى البلاغية التى تفيدها تلك الأساليب ...

° ° °

أسلوب النهى: هو كل أسلوب يطالب به الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء والإلزام، فيكون من جهة عليا ناهية إلى جهة دنيا منهية. وله صيغة واحدة وهى المضارع المقرون بلا الناهية كقولك: لا تصاحب الأشرار لا تفعل السوء، لا تكف عن البذل والعطاء، ومنه قوله تعالى:

(وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ)(١) .
وقوله عز وجل : « وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا .. »(٢) .
وقوله عز من قائل : « تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا . . »(٣) .
فقد أفاد النهى فى الآيات الكريمة طلب الكف عن قتل الأولاد وعن الإفساد فى الأرض وعن اقتراب حدود الله ، وصيغته كما ترى هى المضارع المقرون « بلا » الناهية ..

المعانى البلاغية التى يفيدها أسلوب النهى : والذى تهتم به الدراسات البلاغية ليس هو طلب الكف عن الفعل وهو المعنى الأصلى لتلك الصيغة ، وإنما تهتم بما وراء ذلك من معان بلاغية يفيدها أسلوب النهى . وأهم هذه المعانى :

١ ـ الدعاء : وذلك عندما تكون تلك الصيغة صادرة من الأدنى إلى الأعلى ، كما فى قوله تعالى : « رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ . . »(٤) ، فالمقام مقام ضراعة وخضوع ، والمؤمنون يبتهلون إلى الله تعالى بهذا الأسلوب على سبيل التضرع والتذلل ، فالمقصود منه الدعاء والابتهال .. وسر التعبير بصيغة النهى فى مقام « الدعاء » فى الآية الكريمة ، هو بيان رغبة هؤلاء المؤمنين فى أن يتجلى الله عليهم بالرحمة والغفران وإظهار كمال ضراعتهم وتذللهم إلى الله جل وعلا .. ومنه قوله تعالى : « رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا . . »(٥) ، وقوله تعالى : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا

---

(١) سورة الإسراء آية ٣١ .
(٢) سورة الأعراف آية ٥٦ .
(٣) سورة البقرة آية ١٨٧ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٨٦ .
(٥) سورة آل عمران آية ٨ .

عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . »[١] ، إلى غير ذلك من الآيات التى يتضرع فيها المؤمن إلى الله عز وجل داعيا وراجيا بهذا الأسلوب الذى يصور صدق رغبته وشدة حرصه على أن يحقق الله له دعاءه ويجيب طلبه . .

٢ ــ الالتماس : وذلك إذا كان النهى من المساوى والند بدون استعلاء ولا خضوع وتذلل ، كقولك لنظيرك : لا تفعل هذا ، ومنه قوله تعالى : على لسان هارون يخاطب أخاه موسى ــ عليهما السلام ــ : « قَالَ : يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ : فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي »[٢] فالنهى فى قوله : « لا تأخذ » المراد به : « الالتماس » لأنه ليس فيه استعلاء وإلزام ، ولا تذلل وخضوع حيث وجه من هارون إلى موسى وهما متساويان فى الرتبة والمنزلة فهو يلتمس منه بهذا النهى ، عدم إنزال العقوبة به ، فقد خشى إن خرج عليهم أن يتفرقوا ، وفى إيثار التعبير بنسبته إلى الام « يا ابن أم » على الرغم من كونه أخاه لأبيه وأمه : استعطاف لموسى وترقيق لقلبه ، والسر البلاغى وراء التعبير بصيغة النهى فى مقام الالتماس ، فى الآية الكريمة ، هو إظهار حرص هارون على ترقيق قلب أخيه ، ورغبته القوية الأصيلة فى العفو والتسامح فقد كان له عذر .

ومنه قول المتنبى فى سيف الدولة :

فــلا تبلغاه ما أقــول فإنه ... شجاع متى يذكر له الطعن يشتق

فهو يلتمس من صاحبيه أن يكتما عن سيف الدولة ما يقوله فى وصف شجاعته وحسن بلائه فى الحروب ، وقد عبر بأسلوب النهى فى هذا المقام ، مقام الالتماس ، إظهارا لشدة حرصه على كتمان هذا الأمر عن سيف الدولة ، وفى ذلك مافيه من تهويل وتفخيم لشجاعته وقوة فتكه بأعدائه . .

ومنه قول الآخر :

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩٤ . (٢) سورة طه آية ٩٤ .

خليلي من بين الأخلاء لا تكن   حبالكما أنشوطة من حباليا(١)

فهو يلتمس من خليليه الأثيرين عنده المحببين إلى نفسه ألا تكون مودتهما وصلتهما ضعيفة واهية . وقد عبر بأسلوب النهي إبرازا لشدة رغبته في أن يتحقق له ما يريده من قوة الصلة ودوام المودة وتلاحم الروابط بينه وبينهما .

٣ — النصح والإرشاد : كما في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ »(٢) ، فليس المراد بالنهي عن السؤال في الآية الكريمة : الإلزام وطلب الكف . وإنما أريد به النصح والإرشاد ، وقد جاء بصيغة النهي رغبة في الاستجابة والامتثال ..

ومنه قول أبي العلاء :

ولا تجلس إلى أهل الدنايا   فإن خلائق السفهاء تعدى(٣)

فهو ينصح مخاطبه ويرشده إلى الابتعاد عن السفهاء وأهل الدنايا ، وقد عبر بصيغة النهي لبيان رغبته وحرصه على أن يمتثل المخاطب ويستجيب لنصحه وإرشاده ...

٤ — الحث على الفعل .. كما في قول الخنساء :

أعيني جودا ولا تجمدا   ألا تبكيان لصخر الندى

فهي تحث عينيها على البكاء وأن تجودا بالدمع وتنهملا وألا تبخلا به ، فإنهما تبكيان صخر الندى ، والتعبير بالأمر والنهي في هذا المقام يظهر شدة حزنها ورغبتها القوية في أن يتحقق ما تريده فتفيض عيناها بالبكاء وفاء لحق هذا المقام .. ومنه قول إسماعيل صبري :

---

(١) أنشوطة : واهية غير وثيقة العقد ..

(٢) سورة المائدة آية ١٠١ .

(٣) الدنايا : جمع دنية وهي العيب والنقيصة . والمراد بتعدى : تنتقل إلى من يجالسهم .

لاتقربوا النيل إن لم تعملوا عملا فماؤه العذب لم يخلق لكسلان

فهو ينهى المصريين عن الشرب من ماء النيل إذا لم يقدموا عملا عظيما يصبحون به جديرين أن يشربوا ماءه . والغرض من النهى هو الحث على التقدم والتفانى فى سبيل رفعة مصر .

وإيثار التعبير بالنهى فى مقام الحث فى البيت ، يبرز حب الشاعر لمصر ويصور عاطفته القوية نحو تقدمها ورقيها،فهو يرى أنه لايستحق الحياة من لايعمل لرفعة وطنه ويبذل جهده لتقدمه وازدهاره .

٥ — التمنى : كما فى قول الشاعر .

يا ليل طُل يا نوم زل يا صبح قف لا تطلع

فهو يتمنى أن يمتد الليل ويطول وألا يطلع النهار وذلك حتى يطول اجتماعه بحبيبته والتحدث إليها ، ووقوف الصبح وعدم طلوعه من المحال ، ولكن الشاعر لرغبته الشديدة فى أن يطول الليل خيل إليه أن توقف الصبح وعدم طلوعه أمر ممكن ، فأمره بالوقوف : « قف » ونهاه عن الطلوع : « لا تطلع » ، ومراده بهذا : التمنى ورغبته القوية فى الاجتماع بحبيبته والتمتع بحديثها .

٦ — التحقير والإهانة : كما فى قوله تعالى : « قَالَ : اخْسَأُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ .. »(١) ، فالأمر والنهى فى الآية الكريمة يحملان معنى الإهانة والتحقير لهؤلاء الذين غلبت عليهم شقوتهم فى الدنيا وكانوا قوما ضالين ، ثم جاءوا يوم القيامة يتمنون الخروج من جهنم : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ »(٢) ، فكانت تلك الإهانة : « اخسأوا فيها ولا تكلمون » .

---

(١) سورة المؤمنون آية ١٠٨ . (٢) سورة المؤمنون آية ١٠٧ .

ومنه قول الحطيئة فى هجاء الزبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فالمراد بالأمر : « دع واقعد » والنهى : « ولا ترحل » تحقير المخاطب وإهانته وإظهار أنه ليس أهلا للكفاح من أجل المكارم والمعالى ، فعليه أن يقعد وسيأتيه طعامه وكساؤه ممن يحسنون ويتصدقون عليه وعلى أمثاله .

٧ — التوبيخ : كما فى قول أبى الأسود الدؤلى :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فالمراد بأسلوب النهى : « لا تنه » توبيخ من ينهى الناس عن الشر والسوء ولا ينتهى عنه .. ومثله قول الآخر :

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

فالنهى فى قوله : « لا تحسب » المراد منه توبيخ من يتقاعد ويتكاسل وهو يطمع فى تحصيل المجد ، وفى نفس الوقت فيه حث على العمل والجد لنيل العلا وتحقيق المجد .

٨ — التهديد : كقول الرئيس لمرءوسه : لا تطع أمرى ... لا تقلع عن عنادك ، فهو لا يطلب منه ترك الامتثال لأوامره وإنما يهدده ويتوعده . ومنه قوله تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ .. »(١) فليس المراد نهيهم عن الاعتذار والتوبة وإنما المراد التهديد والتحذير حتى يقلعوا عن غيهم وعنادهم ويسلكوا مسلك الحق والهدى .

---

(١) سورة التوبة آية ٦٥ ، ٦٦ .

٩ - التيئيس : كما فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . »[1] فلا معنى لنهيهم عن الاعتذار فى ذلك اليوم وإنما هو التيئيس ، وإعلامهم أنه لن يقبل منهم وإن يلتفت إليهم ، فليس أمامهم إلا الجزاء على كفرهم وضلالهم .. ومنه قول المتنبى فى مدح سيف الدولة :

لا تطلبن كريما بعد رؤيته　　إن الكرام بأسخاهم يداختموا

فقد أراد بالنهى : « لا تطلبن » تيئيس المخاطب من أن يصل إلى كريم بعد أن رأى سيف الدولة ونال كرمه ، فسيف الدولة أكرم الكرماء وأسخى الأسخياء وقد ختم به الكرام ، ومهما حاول المخاطب أن يعثر على كريم مثله فلن يفلح ، وفى هذا من المبالغة فى كرم سيف الدولة وكثرة عطائه ماترى .

١٠ - التفظيع والتهويل : كقولك : لا تسأل عن فلان وقاك الله شر ما أصيب به ... تريد أن فلانا هذا قد ألمت به الشدائد وأحاطت به المصائب التى لا توصف لشدتها وهولها وفظاعتها ، فليس المراد بأسلوب النهى : « لا تسأل » طلب الكف عن السؤال عنه ، وإنما أريد به التهويل وتفظيع ما ألم به ، كأن المتكلم لا يستطيع وصفه ، أو كأن المخاطب لا يطيق سماعه أو كأن المتحدث مشفق على مخاطبه فلا يريد إساءته بإسماعه تلك الأهوال .. ومنه قوله تعالى : « وَلاَ تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ »[2] ، فى قراءة من قرأ بالنهى وجزم المضارع ، أى : لا تسأل عن فرط ما هم فيه من العذاب وما آل إليه أمرهم من النكال ، فإنه لا يستطيع أحد أن يصف لك هول ما هم فيه ، أو لا تستطيع أنت سماعه لفظاعته وشناعته .. وقد يكون التهويل فى النعيم والخير ، كأن تقول : « لا تسأل عن فلان » ، وتريد فلانا الذى حل به من الخير والنعيم مالا يوصف لكثرته ووفرته ..

---

(١) سورة التحريم آية ٧ .　　(٢) سورة البقرة آية ١١٩ .

١١ – وقد ينهى عن الفعل مقيداً بقيد أو موصوفاً بوصف ، ولا يكون الغرض : النهى عن الفعل فى هذه الحال بل النهى عن الفعل مطلقاً ، ويكون القيد أو الوصف عندئذ للمبالغة فى التنفير والتحذير كقولك : لا تضيع دينك بكسرة خبز . . لا تضيع حق جارك الصالح ، لا تريد النهى عن ضياع الدين فى هذه الحال ، أو عن ضياع حقوق الجار الصالح فقط ، وكأنك تبيح له أن يضيع دينه إذا غلا ثمنه ، وأن يضيع حقوق جاره غير الصالح ، وإنما تريد حثه على التمسك بدينه وحفظ حقوق جاره مطلقاً ، وقد قيدت التضييع بكسرة الخبز ووصفت الجار بالصلاح ، لأن فى ذلك مزيداً من التنفير والتقبيح ، والمخاطب عندئذ يكون أكثر استجابة وأسرع انقياداً . . ومن ذلك قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً »[1] ؛ وقوله عز وجل : « وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . »[2] ، وقوله جل وعلا : « وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً . . »[3] ، وقوله عز من قائل : « فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا . . »[4] ، فالأفعال المنهى عنها فى الآيات الكريمة قد قيدت بقيود من شأنها أن تبعث على التنفير وأن تبرز فظاعة تلك الأفعال وشناعتها ، وليس المراد النهى عن الأفعال المذكورة فى الحال التى قيدت بها

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٠

(٢) سورة النور الآية ٣٣

(٣) سورة النساء آية ٢

(٤) سورة النساء آية ٦

فقط دون ما عداها وإنما المراد النهي المطلق ، وقد جيء بالقيد للتبشيع والتنفير كما قلت .. انظر إلى آية النهي عن الزبا، تجد هذا النهي قد قيد بكونه أضعافا مضاعفة والمراد النهي عن أكل الربا مضاعفا وغير مضاعف، ولكنه جيء بهذا القيد تبشيعا للصورة وتنفيراً للنفوس .. وتأمل آية النهي عن البغاء ، وانظر كيف اختير الإكراه لينهى عنه : لا تكرهوا ، والمراد هو النهي عن البغاء سواء أكان عن طريق إكراه الفتيات أو إقبالهن طواعية ، ثم جيء بهذا القيد : «إن أردن تحصنا ، والفتاة لا تكره على البغاء إلا إن أرادت التحصن والتعفف . وكأن القيد تأكيد للإكراه المنهي عنه ، وفي هذا مزيد من التقطيع والتنفير، وتصوير الصورة في أبشع صورها . فتاة تعففت وتحصنت وسيد يكرهها على البغاء على الرغم من عفافها وتحصنها ، تلك هي الصورة المنهي عنها ، وهي صورة تستبشعها النفوس وتستفظعها وتنفر منها ، والمراد - كما قلت - هو النهي عن البغاء مطلقاً [illegible]

وتأمل الآيات التي تناولت تحريم أموال اليتامى في القرآن تجد أن هذا التحريم قد قيد بالأكل : «لا تأكلوا» ، ولا يعني ذلك أنه يجوز الاستيلاء على مال اليتيم واستخدامه في غير الأكل كالملبس والمشرب والمسكن ونحو ذلك ، وإنما المراد النهي عن الاعتداء على أموال اليتامى بأي وجه من وجوه الاعتداء ، ولكن لما كان العربي يتذمم بملء البطن وكثرة الأكل ويعد ذلك من البهيمية، فقد أوثر التعبير بالأكل تفظيعا وتنفيرا ، وهكذا تجد الآيات التي تتناول تحريم الاعتداء على أموال الغير .. انظر : «لا تأكلوا الربا» .. «لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل» ... «لا تأكلوا مال اليتيم..» ، فالتعبير بالأكل فيها يفيد التفظيع والتنفير ، والمراد هو النهي عن الاعتداء على أموال الغير بأي وجه من الوجوه .. وعد إلى آيتي أموال اليتامى المذكورتين : «ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ...» ، «ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ...» تجد أن هذين القيدين : «إلى أموالكم» ، و «إسرافاً وبداراً

أن يكبروا ، قد جيء بهما لزيادة التنفير وإبراز الصورة ـ صورة الاعتداء على مال اليتيم ـ فى أبشع الصور وأفظعها ، فهذا غنى يضم أموال اليتامى إلى أمواله طمعاً وجشعا وذاك يسرف ويبادر خشية أن يكبر اليتيم فيأخذ منه ماله ... ومما جاء على هذه الطريقة فى أسلوب الأمر قوله تعالى : « وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً . . »[١] ، فذو القربى ممن لا يرثون وكذا اليتامى والمساكين يعطون قدرا من الميراث على سبيل الندب وإرضاء النفس لا على سبيل الوجوب ـ وهذا مما تهاونت به الناس ولم يلتفتوا إليه ـ وهذا القدر يعطى للقريب غير الوارث وللمسكين واليتيم سواء أحضروا القسمة أم لم يحضروا ، وقد قيد الأمر « فارزقوهم » بحضور القسمة ليكون ذلك أبعث على العطاء ، ودافعا أقوى لترضية ذوى القربى غير الوارثين واليتامى والمساكين وإسعافهم والقول لهم قولا معروفا . . .[٢]

أساليب الاستفهام : الهمزة والسين والتاء إذا زيدت فى الفعل الثلاثى ، أفادت معنى الطلب ، يقال : استزاد أى : طلب الزيادة ، واستغفر : طلب المغفرة واستفهم : طلب الفهم ، فالاستفهام يعنى طلب الفهم ، ولذا قالوا فى تعريفه : الاستفهام هو طلب العلم بشىء لم يكن معلوما من قبل بأدوات خاصة ... وهذه الأدوات هى : الهمزة وهل ومن وما وكيف وكم وأين وأيان ومتى وأنى وأى . . وقد عرفت أن الجملة الخبرية التى تدخل عليها هذه الأدوات تتكون من أجزاء هى المسند والمسند إليه وأحد المتعلقات ، وبضم هذه الأجزاء وإسناد بعضها إلى بعض تتكون الجملة التى تفيد حكما معينا بهذا الضم أو بذلك الإسناد . وعندما تدخل هذه الأدوات على الجملة الخبرية يكون الاستفهام بها عن أحد أمرين : إما عن النسبة أى : الإسناد أو الحكم المفاد من الجملة

---

(١) سورة النساء آية ٨ (٢) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ١٧٦

ويسمى « تصديقا » وإما عن أحد أجزاء الجملة ويسمى « تصورا » . . فالتصديق هو إدراك النسبة بين الشيئين ثبوتا أو نفيا .. والتصور هو إدراك أحد أجزاء الجملة ، المسند أو المسند إليه أو أحد المتعلقات .. وأدوات الاستفهام بحسب المستفهم عنه ثلاثة أنواع :

١ — ما يطلب به التصور تارة والتصديق تارة أخرى ، وهو الهمزة وحدها ..

٢ — ما يطلب به التصديق فقط ، وهو هل ..

٣ — ما يطلب به التصور فقط ، وهو بقية الأدوات ..

ولهذا كان لبناء جملة الاستفهام مع « الهمزة وهل » ضوابط واعتبارات دقيقة ينبغى الوقوف عليها والإحاطه بها ، أما بقية الأودات فلكونها لطلب تصور أشياء محددة ، فإنهم لا يلتزمون فى بناء الجملة معها شيئا زائدا عن الضبط العام فى النظام الإعرابى ووجوب تصدر هذه الأدوات ...

وإليك إيضاح بناء الجملة مع الهمزة وهل وبيان ما يسأل عنه ببقية أدوات الاستفهام ..

الهمزة : ويطلب بها إما التصديق ، أى : إدراك النسبة الواقعة بين الطرفين ثبوتا أو نفيا ، وذلك عندما يكون السائل عالما بأجزاء الإسناد ، ويجهل الحكم أو مضمون الجملة : فهو يســـأل ليقف على هذا الحكم .. وإما التصور ، أى : إدراك أحد أجزاء الجملة عندما يكون السائل عالما بالحكم ولكنه يجهل أحد أجزاء البناء . فإذا كانت الهمزة لطلب التصديق ، كان جواب الاستفهام « بنعم أو لا » ، ولا يذكر معها معادل ، ويليها غالبا الفعل إن وجد .. تقول : أنجح خالد .. أعمرو شجاع ؟ إذا كنت تتصور أجزاء الكلام : « نجح وخالد وعمرو وشجاع » وتتصور النسبة بين أجزائه أى بين نجح وخالد ، وبين عمرو وشجاع ولكنك تجهل وقوع هذه النسبة ،

أواقعة هى ومحققة أم غير واقعة ، ولذا يجاب سؤالك بنعم أو بلا ، أى بتحقق هذه النسبة ووقوعها أو بعدم تحققها .. ومن ذلك قول الشاعر:

أأترك إن قلت دراهم خالد زيارته ؟ إنى إذا للئيم

فالجواب هنا بالنفى أى : «لا» لن أترك زيارته إن قل ماله ، لأن السؤال عن التصديق ، إذ المتكلم يعرف الفعل ويتصور الفاعل وهو المتكلم نفسه ويعلم المفعول وهو زيارة خالد . كما أنه يتصور النسبة بين تلك الأجزاء ، ولكنه يتساءل أتقع منه أم لا تقع .. فإن ذكر المعادل «أم» بعد همزة التصديق هذه ، كانت أم منقطعة بمعنى بل وكانت بعدها همزة أخرى مقدرة ، كما فى قول الشاعر :

ولست أبالى بعد فقدى مالكا
أموتى ناء أم هو الآن واقع

فالسؤال بالهمزة عن النسبة و «أم» للإضراب عن الكلام السابق ، أى : عن هذا التساؤل ، وبعدها همزة مقدرة يسأل بها سؤال آخر والمعنى : أموتى ناء ؟ بل أهو الآن واقع ؟ ... وإذا كانت الهمزة للتصور وجب أن يليها المستفهم عنه .. ويذكر للمستفهم عنه - غالبا - معادل بعد «أم» المتصلة وقد يستغنى عن ذكر المعادل إذا وجد ما يدل عليه ... ولا يكون جواب الاستفهام عندئذ بنعم أو بلا ، وإنما يكون بتعيين المستفهم عنه .. تقول فى السؤال عن الفاعل : أمحمد جاء أم عمرو ؟ فيكون الجواب : محمد أو عمرو أى بتعيين من جاء منهما ولا يقال عندئذ نعم أو «لا» . وفى السؤال عن الفعل أجاء محمد أم تخلف ؟ فيقال : جاء أو تخلف وعن المفعول : أعمراً ضربت أم زيداً ؟ فيجاب : عمراً أو زيداً وعن الظرف : أفى البيت زارك عمرو أم أم فى المدرسة ؟ فيجاب : فى البيت أو فى المدرسة ... وقد يستغنى عن المعادل

إذا دل عليه دليل ، كما فى قوله تعالى : « قالوا : أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيمُ ؟ »(١) فالسياق وقرائن الأحوال تدل على أن المسئول عنه هو الفاعل، حيث أشاروا إلى الفعل « هذا » فهو معلوم لهم ، وهم يشاهدون الأصنام محطمة ويجهلون الفاعل ، ولذا ولى الفاعل الهمزة « أأنت » والمعنى : أأنت فعلت هذا أم غيرك ؟ ، وقد أجابهم عليه السلام – معينا لهم الفاعل على سبيل التهكم : « بلْ فعلَهُ كبيرُهُمْ هذا فاسألُوهُمْ »(٢) .

وينبغى أن يراعى عند ذكر المعادل بعد « أم » المتصلة أن يكون موافقاً لما بعد الهمزة وإلا يتناقض معه ، على نحو ما نرى فى الآيات الكريمة « يا صاحبَيِ السِّجنِ أأربابٌ متفرّقونَ خيرٌ أمِ اللهُ الواحدُ القهّارُ ؟ » « أطّلعَ الغيبَ أمِ اتّخذَ عندَ الرّحمنِ عهْداً ؟ » ، « قُلْ أأنتُمْ أعلمُ أمِ اللهُ » ، « أهُمْ خيرٌ أمْ قومُ تُبّعٍ » ، « ليبلُوَني أأشكُرُ أمْ أكفُرُ ؟ » حيث تجد أن ما بعد « أم » مماثل لما بعد الهمزة . . ولذا كان من الخطأ أن تقــول : أزيدا أكرمت أم أهنت . . أأكرمت زيدا أم عمرا . . أجاءك خالد أم على . . لتناقض ما بعد الهمزة مع ما بعد « أم » المتصلة ، وهو ليس تناقضا فى تركيب العبارة فحسب، بل تناقض واضطراب فى الإدراك والوعى؛ إذ تقديم المفعول مثلا فى قولك : أزيدا أكرمت ؟ ينبىء بأنك تجهل المفعول وتتصور الفعل وهو الكرم والفاعل وهو المخاطب ، فلو قلت بعد ذلك : « أم أهنت » أو قلت : « أم خالد » بالرفع تناقضت العبارة وتناقض فهمك واضطرب إدراكك لما تقول . . . وعليك أن تعلم أن الفعل إذا حدد وعين كان الشك فى الفاعل والجهل به كقولك : أأنت بنيت هذه الدار ؟ ولا يصح قولك : أبنيت هذه الدار ؟ ، لأن تحديد الفعل وتعيينه بالإشارة إليه يجعله معلوماً ويجعل الشك فى الفاعل ، وتقديم الفعل وإيلاءه الهمزة ينفى ذلك

(١) سورة الأنبياء آية ٦٢ . (٢) سورة الأنبياء آية ٦٣ .

ويجعل الشك في الفعل وهذا تدافع وتناقض ، فإذا أردت الاستفهام عن الفعل ينبغي عليك ألا تحدده ، بل تتركه بلا تحديد كأن تقول : أبنيت الدار التي كنت على أن تبنيها .. أقلت الشعر الذي عزمت على قوله ؟ .. ولا يصح أن تسأل عن فاعل هذا الفعل غير المحدد فلا تقول : أأنت بنيت الدار التي كنت على أن تبنيها ؟ .. أأنت قلت الشعر الذي عزمت على أن تقوله ؟ .. لأن تقديم الفاعل يدل على أن الفعل قد وقع والمطلوب معرفة فاعله ، وقولك : التي كنت على أن تبنيها .. الذي كنت على أن تفعله ، يدل على أن الشك في الفعل .. وهذا تناقض .

فالسؤال عن الفاعل يقتضي بالضرورة معرفة فعل محدد معين حتى يقال في الجواب : « فعله فلان » ، ولا يعقل أن يسأل عن فاعل فعل غير محدد ، فلا يقال : أأنت أكلت طعاماً ؟ .. أأنت رأيت اليوم إنساناً ؟ .. أأنت قلت شعراً ؟ وإنما يسأل في مثل هذا عن الفعل فيقال : أأكلت طعاماً ؟ .. أرأيت اليوم إنساناً ؟ .. أقلت شعراً .. ؟

هذا وقد ذكر سيبويه أن قولك : أزيد عندك أم عمرو ؟ أزيداً لقيت أم بشراً ؟ أفضل وأحسن . فإن قلت : أعندك زيد أم عمرو ، ألقيت زيداً أم بشراً ؟ كان حسناً جائزاً ... وهذا الذي ذكره سيبويه يتناقض مع ما قاله البلاغيون ؛ لأنهم أوجبوا إيلاء المستفهم عنه الهمزة ـ كما رأيت ـ وسيبويه يجوز تأخيره ، بل يعده حسناً ..

ويمكن أن يجاب عن ذلك بأن ما أجازه سيبويه كان في مراحل سابقة اللغة فيها تنمو ، والتراكيب تتطور ، ثم إن الترقي في التراكيب الهادف إلى تنقية الصياغة قد تجاوز ذلك إلى الصورة المنضبطة التي قررها البلاغيون ورفضوا ما عداها مما أجازه سيبويه واستحسنه ، وإشارة سيبويه إلى أن هناك تركيبين يفيدان هذا المعنى أحدهما أفضل من الآخر وأحسن ، توحي بصحة

هذه الإجابة[١] ..

وقد يكون السؤال بالهمزة عن الفعل ويلى الهمزة غيره لغرض بلاغى وهو المبالغة فى الإنكار ، وتأكيد الردع والزجر ، وذلك عندما يلى الهمزة أو يعطف على ماوليها الفاعل أو المفعول أو الظرف الذى ليس للفعل غيره ، كقولك : أفى ليل وقع هذا أم فى نهار ، فأنت لاتسأل عن الظرف ، وإنما تنكر وقوع الفعل ، ولم يل الفعل الهمزة كما ترى ، بل وليها وعطف على ماوليها الظرف الذى ليس للفعل ظرف سواه ، فإذا ما انتفى الظرف الذى لاظرف يقع فيه الفعل غيره ، كان هذا أبلغ فى انتفاء الفعل ، وأشد إنكارا وأقوى ردعا لمن يدعى وقوعه .. ومن ذلك قوله تعالى : « قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ .. »[٢]

وقوله عز وجل : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ »[٣] :

فالمعنى على إنكار « التحريم » ، و « الإذن » ، وقد ولى الهمزة غيرهما مبالغة فى الإنكار والزجر ؛ لأنه إذا انتفى المفعول الذى ليس للفعل مفعول غيره ، فى الآية الأولى ، والفاعل الذى ليس للفعل فاعل سواه فى الآية الثانية ، كان ذلك أبلغ فى انتفاء الفعل ، وأشد ردعا وأقوى زجرا ، لمن ادعى وجوده وثبوته[٤] .

هل : ـ أما « هل » فإنها لطلب التصديق فحسب ، تقول : هل قام زيد ؟ ، وهل عمرو ناجح ؟ ، فتسأل عن نسبة القيام للأول والنجاح للثانى ، ولذا

---

(١) ارجع الى دلالات التراكيب ص ٢١٩ .

(٢) سورة الانعام آية ١٤٣ .

(٣) سورة يونس آية ٥٩ .

(٤) انظر دلائل الإعجاز ص ١٤٧ .

يكون جوابك: نعم أولا ، أى : بإفادتك ثبوت النسبة أو نفيها ... ولما كانت « هل » لطلب التصديق فحسب : فقد ترتب على ذلك ما يلى :

١ — امتناع أن يذكر بعدها معادل « بأم » المتصلة ، فلا يقال: هل زيد قائم أم عمرو ؟ ، لأن « هل » تدل على أن مضمون الجملة ، هو النسبة غير معلومة وأن السؤال عنها ، ووقوع المفرد بعد « أم » دليل على أن « أم » متصلة ، « وأم » المتصلة تدل على أن مضمون الجملة معلوم وأن المطلوب هو تعيين أحد الأمرين : المفرد الذى قبلها أو المفرد الذى بعدها ، والسؤال عن ذلك إنما يكون بهمزة التصور : أزيد قائم أم عمرو ؟ فالجمع بين « هل » و« أم » المتصلة فى مثال واحد يؤدى إلى التناقض .. ويصح اجتماع « هل » و« أم » المنقطعة ، لأنها بمعنى بل ، فالكلام بعدها مستقل عما قبلها ..

ومن ذلك قول الشاعر :

ألا ليت شعرى هل تغيرت الرحا
رحا الحرب أم أضحت بفلج كما هى

« فأم » فى البيت منقطعة وقد ذكرت بعد هل - كما ترى - والمعنى : هل تغيرت الرحا : رحا الحرب ؟ بل أأضحت بفلج كما هى ؟ ، فهما كلامان..

فإن وردت « أم » بعد « هل » وكان بعد « أم » المفرد ، وجب تأويله بالجملة وجعل أم منقطعة للإضراب مع استفهام آخر مقدر، من ذلك ماروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجابر : « هل تزوجت بكرا أم ثيبا ؟ » فالمعنى : بل هل تزوجت ثيبا ؟ ؛ ولذا لو قيل فى المثال المذكور : هل قام زيد أم عمرو؟ لأن المعنى : بل هل قام عمرو ؟ لجاز ذلك وصح ...

٢ — يقبح استعمال « هل » فى كل تركيب يتقدم فيه المسند إليه على الخبر الفعلى أو المفعول على الفعل كقولك : هل زيد قام ؟ وهل زيدا أكرمت ؟ ووجه قبحه عند الجمهور ، أن التقديم فى هذين الحالين . قد يكون للاختصاص ،

والاختصاص يقتضى وقوع النسبة والعلم بها ، وأن المراد هو السؤال عن الفاعل أو المفعول ، وهل لا يؤتى بها لهذا ، بل هى للتصديق ، أى طلب العلم بالنسبة ، فإذا كانت النسبة معلومة ، عند دلالة التقديم على الاختصاص ، كانت هل لطلب حصول الحاصل ، وهذا عبث .. وظاهر هذا الوجه المنع ولكنهم عدوه قبيحا لاحتمال أن يكون التقديم لمجرد الاهتمام بالمقدم ، لا للتخصيص الذى يقتضى العلم بالنسبة ، أو لاحتمال تقدير فعل محذوف دل عليه المذكور فعلى الاحتمال الأول وهو جعل التقديم لمجرد الاهتمام بالمقدم يكون على خلاف الغالب ، إذ الغالب فى تقديم المفعول على الفعل أو المسند إليه على خبره الفعلى أن يكون للتخصيص ومخالفة الغالب قبيحة وعلى الاحتمال الثانى ، يكون الفعل الظاهر قد منع من العمل بلا شاغل عنه وذلك قبيح ... ورجح العلامة سعد الدين أن وجه عدم امتناعه هو الاحتمال الثانى دون الأول ، لأننا لو قلنا إن التقديم فى : هل زيد قام وهل زيدا أكرمت للاهتمام، لم يكن هنالك وجه لعده قبيحا ، وإلا للزم أن يكون التقديم للاهتمام قبيحا مطلقا ولا قائل به[1] ..

وأما قولك : هل زيداً أكرمته ؟ فهو صحيح لا قبح فيه ، لأن الفعل هنا مشغول عن الاسم المنصوب بضميره ، والكلام على تقدير فعل محذوف هو الناصب لزيد ، ويكون هذا الفعل مقدما على المنصوب ، وبهذا تكون هل قد وليها الفعل ، فلا قبح ..

وكما يقبح دخول هل على المعرفة وبعدها فعل ، فإنه يقبح دخولها على النكرة المتلوة بفعل نحو : هل رجل سافر ؟ لنفس الأسباب المذكورة ... والقبح هنا فى تقديم النكرة باتفاق البلاغيين ، لأنه يفيد الاختصاص على مذهب السكاكى ، إذ يرى أن الأصل : هل سافر رجل ، فرجل فاعل فى المعنى،

---

(١) انظر المطول ص ٢٢٨

إذ هو بدل من الضمير المستتر فى سافر ، وقد تقدم من تأخير ، أما قولك : هل زيد قام فالتقديم فيه لا يفيد الاختصاص على مذهب السكاكى ، لأنه ليس مقدما عن تأخير ، ولو تأخر لكان فاعلا فى اللفظ لا فى المعنى ، فلم يتوفر الشرطان اللذان ذكرهما لإفادة التقديم الاختصاص ، كما توفرا فى تقديم النكرة ، فكان يلزم ألا يكون تقديم المعرفة فى : هل زيد سافر ، قبيحاً على مذهب السكاكى حيث جعل علة القبح التقديم المفيد للاختصاص ، ولكن هذا التقديم قبيح بإجماع النحاة .. فهل هناك تعليل آخر لهذا القبح المجمع عليه لا يرتبط بدلالة الاختصاص التى لم يقرها السكاكى ؟ نعم هناك تعليل آخر - وإن لم يذكره السكاكى - يرجع إلى طبيعة هل وأصلها ، لا إلى دلالة الاختصاص التى يحتملها التقديم ، فقد قالوا إن « هل » فى الأصل بمعنى قد ، وكانت ترد مسبوقة بالهمزة فيقال : أهل جاء زيد . . . ومن ذلك قول خطام المجاشعى :

أهل عرفت الدار بالغريَّيْنِ   لم يبق من آى بها يُحَلِّيْنْ[(١)]

وقول الآخر :

سائل فوارس يربوع بشدتنا   أهل رأونا بسفح القاع ذى الأَكَمِ[(٢)]

فلما طالت ملازمتها الهمزة تشربت منها معنى الاستفهام ، فسقطت الهمزة وبقيت هل دالة عليه ، ولما كانت قد لا تدخل إلا على الأفعال ، كانت كذلك « هل » التى بمعناها ..

وعلى ذلك إذا وجد الفعل فى التركيب ، وجب مراعاة معنى « هل »

---

(١) الغريان . بناءان طويلان هما قبر مالك وعقيل نديمى جذيمة الأبرش وسميا بالغريين ، لأن النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله يوم بؤسه .. انظر لسان العرب مادة : غرا ص ٣٢٥٠

(٢) الأكم : الموضع الذى يكون أشد ارتفاعا مما حوله . .

الأصل فى لزوم إيلائها الفعل ، وإن لم يوجد الفعل أصلا فى التركيب ، روعى فى « هل » معنى الاستفهام الذى استمدته من الهمزة ، فجاز دخولها على الاسم ؛ ولذا لا يقبح أن يقال : هل زيد قائم ؟ وإنما يقبح أو يمتنع نحو قولك : هل زيد قام ؟ .. والفرق بين التركيبين ، أنها إذا رأت الفعل فى حيزها تذكرت عهوداً بالحمى وحنت إلى الإلف المألوف وعانقته ولم ترض بافتراق الاسم بينهما . بخلاف ما إذا لم تره فى حيزها فإنها تتسلى عنه ذاهلة[1] . .

هـذا ونجـد أن ماقبحه البلاغيون والتمسوا العلل المذكورة فى بيان وجـه قبحه ، نجده يرد فى كلام أهل الفصيح من الشعراء ، كما فى قول علقمة الفحل :

هل ماعلمت وما استودعت مكتوم   أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم
أم هل كبير بكى لم يقض عبرته   إثر الأحبة يوم البين مشكوم

وقول ابن الرومى فى رثاء ولده :

هل العين بعد السمع تكفى مكانه   أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى

بل تراه قد ورد فى آى الذكر الحكيم فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ . . »[2] ، ولهذا كان ينبغى ألا يصف البلاغيون تلك التراكيب بالقبح ، بل الأولى أن يقال : إنها قليلة ونادرة ، فإنه إذا جاز أن نصف ما ندر وروده على ألسنة البشر بالقبح والكدارة ، فلا يجوز أن نطلق ذلك على ما ورد فى القرآن الكريم . بل ينبغى الاحتراس وتنزيه أساليب القرآن الكريم عن مثل هذه الأوصاف[3] .

---

(١) أنظر المطول ص ٢٢٩

(٢) سورة فاطر آية ٣

(٣) ارجع إلى أساليب الاستفهام فى القرآن ص ٧

ومن خصائص «هل» أنها إذا دخلت على الفعل المضارع خلصته للاستقبال، ولذا لا يجوز أن تقول: هل يقوم زيد الآن، لأن فى ذلك تدافعا فى بناء الجملة، إذ «هل» تمحضها للاستقبال والتقييد بلفظ «الآن» يجعلها للحال، وكذلك تقول: هل يقوم بعد الآن، ثم تقول: الآن، وهذا تناقض واضطراب وكذا إذا دلت قرينة حالية على أن المضارع مراد به الحال، كقولك: هل تسىء إلى صاحبك؟ إذا دل الحال على وقوع الإساءة، ولهذا لا تقع هل موقع الهمزة فى مثل قوله تعالى: «أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ»[1]، وقوله عز وجل: «قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ..»[2]، وكل ما دل فعله على الحال..

وهذا الذى قاله البلاغيون تراه منخرما، إذ نجد فى كثير من آيات الذكر الحكيم دخول هل على المضارع والقرائن تدل على أن المضارع أريد به الحال.. تأمل الآيات الكريمة: «هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ .. ؟»[3] .. «وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ: هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ..»[4] .. «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ..»[5] .. «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ..»[6] «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ: أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ؟ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ...»[7] .. «فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ

---

(١) سورة هود آية ٢٨
(٢) سورة الصافات آية ٩٥
(٣) سورة المائدة آية ٥٩
(٤) سورة التوبة آية ١٢٧
(٥) سورة الرعد آية ١٦
(٦) سورة مريم آية ٩٨
(٧) سورة الشعراء آية ٩٠-٩٤

باقية ؟ »(١)، فبإمعان النظر فى هذه الآيات الكريمة، وغيرها كثير نجد أن المضارع بعد « هل » قد أريد به الحال ، ولم تتمحض دلالته للاستقبال .. ولذا كان ينبغى ألا يبنى ذلك على القطع والإطلاق ، بل على الغالب والاحتمال فيقال مثلا : إن « هل » إذا دخلت على الفعل المضارع فإنه - غالبا - يراد به الاستقبال ، وقد يراد به الحال، أما القطع بأنها تمحضه للاستقبال ، فهو مردود بنحو الآيات الكريمة التى أشرنا إليها(٢) ..

ومما تقدم يتضح لك أن « هل » لها مزيد اختصاص بالأفعال ، وأن ذلك يرجع إلى الأمور الآتية :

١ - أنها فى الأصل بمعنى « قد » وقد لا تدخل إلا على الأفعال ، فكذلك ما هو بمعناها ..

٢ - تأثيرها فى بعض أنواع الفعل وهو المضارع بتخليصه - غالبا - للاستقبال ..

٣ - اختصاصها بطلب التصديق وهو إدراك النسبة ، وهذا بطبيعته يتوجه إلى المعانى لا إلى الأفراد ، أى : إلى الفعل دون الاسم ؛ لأن الحكم بالثبوت أو الانتفاء يتوجه إلى الحدث الذى هو جزء من مفهوم الفعل ، إذ الفعل حدث وزمن ..

ولكون « هل » لها مزيد اختصاص بالأفعال ، فإنه لا يعدل عن الفعل إلى الاسم بعدها إلا لنكتة بلاغية .. وهى أن يجعل ما يحدث ويتجدد الذى هو مفاد الجملة الفعلية ، أو يجعل ما سيوجد باعتبار « هل » تخلص المضارع فى الغالب للاستقبال ، فى معرض الكائن الحاصل الذى هو مفاد الجملة الاسمية ، اهتماما بشأنه واعتناء بأمره . وذلك بناء على قول البلاغيين : إن الجملة الفعلية

---

(١) سورة الحاقة آية ٨ .

(٢) انظر أساليب الاستفهام فى القرآن ص ٩٤

تفيد التجدد والحدوث، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام.. تأمل قوله تعالى: « وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ؟ »(١)، وقوله عز وجل: « قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ »(٢)؟ تجد أن قوله: « فهل أنتم شاكرون » « فهل أنتم مسلمون » أدل على طلب حصول الشكر والإسلام من قولك: فهل تشكرون ؟ فهل تسلمون ؟ أو فهل أنتم تشكرون ؟ فهل أنتم تسلمون ؟ وذلك لأن الجملة الاسمية تفيد التوكيد وتدل على معنى أوفى مما تدل عليه الجملة الفعلية، ولأن إبراز ما يحدث ويتجدد فى معرض الحاصل الثابت أقوى دلالة على الاهتمام بشأنه وكمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله .. وكذا من قولك: أفأنتم شاكرون ؟ أفأنتم مسلمون ؟، وإن كانت صيغته للثبوت - كما ترى -، لأن « هل » نزاعة إلى الفعل وأدعى له من الهمزة، فتركه معها أدل على كمال العناية بحصوله وشدة الاهتمام بوقوعه ...

ولهذا قال البلاغيون: إن قولك: هل زيد منطلق ؟ أقوى دلالة على طلب حصول الانطلاق والاهتمام بوقوعه من أن تقول: أزيد منطلق ؟ .. وقالوا: إن العدول عن الهمزة إلى « هل » فى مثل هذا المثال، لا يحسن إلا من البليغ. لأنه هو الذى يلتفت إلى تلك الدقائق ويراعى هذه النكات البلاغية ويقدر على تطويع الكلام وتكييف العبارات وصياغتها على حسب ما يقتضيه المقام..

ومن الفروق الدقيقة بين الهمزة وهل: أن الهمزة لا يستفهم بها حتى يهجس فى النفس إثبات ما يستفهم عنه، فأنت لا تقول: أجاء عمرو؟ إلا ولديك شعور قوى بمجيئه، أما هل فإنه لا يترجح فيها الإثبات ولا النفى، فعندما تقول: هل

---

(١) سورة الأنبياء آية ٨٠. (٢) سورة الأنبياء آية ١٠٨.

جاء عمرو ؟ لا يكون لديك ترجيح لجيئة أو عدم مجيئة ، فالنسبة المطلوبة بالهمزة يترجح فيها لدى السائل إثباتها ووقوعها ، ويكون عنده هذا جنس قوية ترجح الإثبات على النفي . أما النسبة المطلوبة بهل فلا يترجح فيها إثبات ولا نفي(١) .

وبقية أدوات الاستفهام للتصور فحسب ، فيسأل بها عن معانيها ، ويكون الجواب عنها بتعيين المستفهم عنه ، ولذا لا يلتزم فى بناء الجمل معها سوى الضبط العام فى النظام الإعرابي لصياغة الجمل ، مع مراعاة تصدر تلك الأدوات ، فليس وراء بناء الجمل مع تلك الأدوات دقائق ينبغى مراعاتها ، كما هو الحال بالنسبة للهمزة وهل ..

فمن : يطلب بها تصور من يعقل أو من يعلم ، كقولك : من عندك ؟ من فتح بلاد الأندلس ؟ فيقال فى الجواب زيد والقائد البطل طارق بن زياد .. ولك أن تقول فى جواب الأول العالم الصادق .. وفى جواب الثانى : القائد البطل الذى لا تخفى على أحد بطولاته وتفانيه فى نشر دين الله .. أى أن الجواب يكون إما بذكر الذات المستفهم عنها ، وإما بذكر الأوصاف الخاصة بالمستفهم عنه ، المشخصة له ..

ومن ذلك قوله تعالى : « قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ؟ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ .. »(٢) ، فقد أجاب موسى - عليه السلام - ببيان الصفات الخاصة برب العزة المتفرد بها سبحانه وتعالى .. وانظر فى قوله عز وجل : « قَالُوا : مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا : سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ .. »(٣) ، وقوله عز من قائل : « فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ أَوَلَمْ

(١) ارجع إلى أساليب الاستفهام فى القرآن ص ٨٩ .

(٢) سورة طه آية ٤٩ ، ٥٠ .   (٣) سورة الأنبياء آية ٥٩ ، ٦٠ .

يَرَوْا أنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً . . »(١) وواضح فى الآيتين أن الجواب قد اشتمل على ذكر الذات المستفهم عنها . .

وما : يستفهم بها عن غير العقلاء ، فيطلب بها بيان الذات كقوله تعالى : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ؟ قَالَ : هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى . . »(٢) ، وقوله تعالى : « إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَا تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ »(٣) ..

كما يطلب بها بيان حقيقة المسمى وصفته كقولك : ما زيد ؟ فيجاب عالم أو طويل ومنه قوله عز وجل : « مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ؟ قَالُوا : وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ »(٤) .

وقوله تعالى : « قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ »(٥) .

فالمراد بالاستفهام فى الآيتين بيان حقيقة المسمى وصفته التى يعرف بها وقد جاء الجواب على خلاف ما يقتضى الاستفهام فى الآية الأولى ، وعلى خلاف ما يريد السائل ويتوقع فى الآية الثانية (٦) ..

ويطلب بها أيضا إيضاح الاسم نحو : ما العسجد ؟ فيجاب : الذهب ..

متى : ويستفهم بها عن الزمان ماضيا كان أو مستقبلا ، كقولك : متى حضرت ؟ ومتى تسافر ؟ ومنه قوله تعالى : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(٧) .

---

(١) سورة فصلت آية ١٥ .
(٢) سورة طه آية ١٧ .
(٣) سورة الشعراء آية ٧٠ .
(٤) سورة الأنبياء آية ٥٢ .
(٥) سورة الشعراء الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .
(٦) ارجع إلى أساليب الاستفهام فى القرآن ص ٣٠٦ .
(٧) سورة يس آية ٤٨ .

أيان : ويستفهم بها عن الزمان المستقبل وتستعمل فى مواضع التفخيم والتهويل كقوله تعالى : « يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ »(١)

أين : ويسأل بها عن المكان ، كقوله تعالى: « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ. وَخَسَفَ الْقَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ؟. »(٢).

كيف : ويسأل بها عن الحال كما فى قوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ .. »(٣)

أنى : وتكون بمعنى كيف كقوله تعالى : « قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ »(٤).

وبمعنى من أين كقوله تعالى : « قَالَ : يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا »(٥).

وبمعنى متى كما فى قوله تعالى : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ »(٦) (فأنّى) فى الآية الكريمة تحتمل المعانى الثلاثة ، أى : متى شئتم وكيف شئتم ومن أين شئتم ، على أن يكون الإتيان فى موضع الحرث . .

كم : ويستفهم بها عن العدد كقوله تعالى : « قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ : كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا : لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . »(٧) ...

ومنه قول الفرزدق يهجو جريرا :

كم عمة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت على عشارى

فى رواية من نصب « عمة » و« خالة » ، وفدعاء : من الفدع وهو عوج فى المفاصل ، والعشار : مفردها : عشراء وهى الناقة النفساء أو التى مضى لحملها عشرة أشهر . .

(١) سورة الذاريات آية ١٢ .
(٢) سورة القيامة آية ١٠ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٨ .
(٤) سورة آل عمران آية ٤٠ .
(٥) سورة آل عمران آية ٣٧ .
(٦) سورة البقرة آية ٢٢٣ .
(٧) سورة الكهف آية ١٩ .

أي : وتستعمل فى تمييز أحد المتشاركين فى أمر يعمهما ، كما فى قوله تعالى:
« أَيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً »(١) .

ويسأل بها أيضا عن تمييز الزمان أو المكان أو الحال أو العدد، وكذا عن تمييز العاقل وغير العاقل، فهى تكتسب معنى ماتضاف إليه، فتقول فى السؤال بها عن تمييز الزمان : فى أى يوم عاد البطل ؟ وعن المكان : فى أى مكان نلتقى ؟ وعن الحال : على أى حال تركت أباك ؟ وعن العدد : إلى أى عدد بلغت دراهمك ؟ وعن العاقل : أى الرجلين أكبر سنا ؟ وعن غير العاقل : أى جواد امتطيت ؟ . .

تلك هى معانى أدوات الاستفهام وهى وإن كانت لا تخلو من فوائد ودقائق واعتبارات بلاغية ، وبخاصة بناء الجمل مع الهمزة وهل ، إلا أن جل اهتمام البلاغيين يتجه إلى المعانى البلاغية التى تفيدها أساليب الاستفهام، فتعالوا ننظر فى هذه المعانى البلاغية .

المعانى البلاغية للاستفهام : يفيد الاستفهام كثيرا من المعانى البلاغية ، كالإنكار والتعجب والاستبعاد والتهديد والتهكم والتحقير ونحو ذلك، وكثير من البلاغيين وبخاصة المتأخرون منهم يطلقون على هذه المعانى : « المعانى المجازية للاستفهام » ونحن لا نوافقهم على هذه التسمية ولا نرتضى هذا الإطلاق ولا نقر أن تلك المعانى معان مجازية ، وذلك للأسباب الآتية :

١ — أن المتقدمين من البلاغيين لم يتحدثوا عن وجه دلالة الاستفهام على تلك المعانى ، وإنما بينوا أنها معان تستنبط من سياق الكلام والوقوف على قرائن أحواله ، أما وجه الدلالة ، فقد شاع الحديث عنها بين المتأخرين الذين تكلفوا وأسرفوا فى التقاط العلاقات بين المعنى الأصلى للاستفهام والمعانى البلاغية التى يفيدها ، وقد أتعبوا أنفسهم وأتعبوا الدارسين معهم فى

(١) سورة مريم آية ٧٣ .

محاولة الوصول إلى علاقات بين طلب الفهم وبين هذه المعانى دون أن يصلوا إلى شىء مقنع ..[1]

٢ — أن المعنى الأصلى للاستفهام وهو طلب الفهم من المخاطب وإثارته وتحريك ذهنه يظل باقيا عند إفادة الاستفهام لتلك المعانى البلاغية ، ومزية أداء هذه المعانى بطريق الاستفهام على أداتها بطرقها المعهودة ، ترجع إلى بقاء معنى الاستفهام فى تلك الأدوات ، ولذا يذكر الفراء فى كتابه « معانى القرآن » عند حديثه عن الآية الكريمة : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ » أن الاستفهام فيها قد دخله وشابه معنى التعجب فلم يعد استفهاما محضاً ، بل صار استفهاماً غير محض[2] ... وهذا دليل على أن معنى الاستفهام ظل باقيا عند إفادة الأسلوب لمعنى التعجب ..

ويقول عبد القاهر بعد ذكره لجملة من المعانى البلاغية التى يفيدها الاستفهام : « واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام فى مثل هذا بالإنكار ، فإن الذى هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيى بالجواب ، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه ، فإذا ثبت على دعواه قيل له : « فافعل » فيفضحه ذلك ، وإما لأنه هم بأن يفعل مالا يستصوب فعله ، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ ، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه وبخ على تعنته وقيل له : فأرناه فى موضع وفى حال وأقم شاهدا على أنه كان فى وقت ، ولو كان يكون للإنكار وكان المعنى فيه من بدء الأمر ، لكان ينبغى ألا يجىء فيما لا يقول عاقل إنه يكون حتى ينكر عليه . كقولهم : أتصعد إلى السماء ؟ أتستطيع أن تنقل الجبال ؟ أ إلى رد ما مضى سبيل ؟ ، وإذ قد عرفت ذلك فإنه لا يقرر بالمحال وبما لا يقول أحد إنه يكون إلا على سبيل التمثيل وعلى أن يقال له

---

(١) ارجع إلى البلاغة القرآنية فى تفسير الكشاف ص ٣٠٢ .

(٢) ارجع إلى معانى القرآن ٢٣/١ .

إنك فى دعواك ما ادعيت بمنزلة من يدعى هذا المحال ، وإنك فى طمعك فى الذى طمعت فيه بمنزلة من يطمع فى الممتنع . . »[1]

فهو يشير إلى أن الاستفهام عند إفادته لمعانيه البلاغية يظل باقيا فيه معنى التنبيه وإثارة ذهن المخاطب ولفته إلى موضع التعجب أو الإنكار أو التقرير ، حتى يتأمل ويتدبر ويعلم أنه لا جواب لهذا الاستفهام إلا بالإذعان للمعنى الذى يلفته إليه . . كما فى الأمثلة التى ضربها عبد القاهر . .

٣ — عندما ننظر بإمعان إلى تلك المعانى البلاغية التى يفيدها الاستفهام لا نستطيع أن نقول : إن الأسلوب الاستفهامى يفيد معنى واحداً كالتعجب مثلا ، بل ترى عدة معان تنبعث من الأسلوب الاستفهامى . . تأمل الآية السابقة « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ . . ؟ »[2] تجد أن الاستفهام بها يفيد إنكار الكفر والتعجب من وقوعه والتوبيخ والاستبعاد والتوعد ، وغير ذلك من المعانى التى تنبعث من الأسلوب وتشع منه . . . فلو قلنا إن إفادة الاستفهام فى الآية الكريمة لمعنى التعجب إفادة مجازية والتمسنا علاقة بين طلب الفهم والتعجب ، فكيف أو فماذا نقول فى إفادته لبقية المعانى التى أفادها ؟ . .

٤ — أن المتأخرين أنفسهم الذين قالوا بمجازية هذه المعانى وجدوا فى التماس العلاقات لبيان وجه المجاز ، تراهم مترددين ، وكأنهم غير مقتنعين بما يقولون ، فهم يذكرون وجوها من الاحتمالات ، قد يكون أحدها أقرب من غيره أو أقل إغرابا منه ، فالعلاقة بين طلب الفهم ومعنى الاستبطاء مثلا فى قوله تعالى : « مَتَى نَصْرُ اللهِ »[3] هى اللزومية ، فهو مجاز مرسل علاقته اللزوم من استعمال الملزوم فى اللازم ، لأن السؤال عن الشىء يستلزم الجهل به ،

---

(١) دلائل الإعجاز ١٥١ .   (٢) سورة البقرة آية ٢٨ .

(٣) سورة البقرة آية ٢١٤ .

والجهل به يستلزم كثرته عادة أو ادعاء ، وكثرته تستلزم بعد زمن الإجابة عن زمن السؤال والبعد يستلزم الاستبطاء . . . هكذا يبحرون فى التقاط والتماس تلك العلاقات . . وليت وراء هذا الإبحار صيدا يشبع النفس ويمتعها وبربى فيها ملكة التذوق ، إنه ليس وراءه إلا التعب وكد الذهن بلا فائدة مرجوة ولا ثمرة مرتقبة . ثم تراهم إذا عجزوا عن الوصول إلى علاقة بين طالب الفهم والمعنى الذى هم بصدد الحديث عنه ، تراهم يقولون : إن المعنى هنا يفاد عن طريق الكناية أو عن طريق مستتبعات التراكيب(١) .

فما كان أحرى بهؤلاء المتأخرين أن يلتزموا طريقة المتقدمين التى أشرنا إليها عند الفراء وعبد القاهر ، وأن يذعنوا بأن الاستفهام قد دخلته هذه المعانى وشابته وصار بإفادته لها استفهاما غير محض ، إذ التنبيه وإيقاظ المخاطب وحثه على التأمل الذى هو لب الاستفهام ، لا يفارقه عند إفادة تلك المعانى . . وهذا هو الذى نراه وندعو إليه . . . ندعو إلى تأمل هذه المعانى فى سياقاتها الجيدة وتراكيبها الرفيعة ، والوصول إليها عن طريق تأمل السياق وإمعان النظر فيه ومعرفة قرائن أحواله ، وإيماءات تراكيبه . فهذا هو الذى يربى وينمى ملكة التذوق لدى الدارس . . فتعالوا ننظر فى هذه المعانى البلاغية التى يفيدها الاستفهام ونحاول أن ندركها ونتذوقها من خلال السياق وما يوحى به .

١ — معنى الاستبطاء : تأمل قوله تعالى : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟ »(٢) الخطاب فى الآية الكريمة للصحابة رضوان الله عليهم . والمعنى : أحسبتم أن تدخلوا الجنة بلا ابتلاء وتمحيص ، وقد جرت سنة الله تعالى أن يبتلى عباده

---

(١) ارجع إن شئت إلى شروح التلخيص ٢/٢١١ والمطول ص ٢٢٥ .

(٢) سورة البقرة آية ٢١٤ .

فقد ابتلى الأمم قبلكم ابتلاء شديداً ومستهم البأساء والضراء حتى قال الرسول وهو أعلم الناس بالله وأوثقهم بنصره، وقال الذين آمنوا معه - لشدة ما حل بهم ونزل - : متى نصر الله ؟ فقد استطالوا مدة العذاب واستبطأوا مجيء النصر وسر التعبير بأسلوب الاستفهام فى مقام الاستبطاء هو إظهار المعاناة من طول الانتظار وجذب انتباه السامع ودعوته للمشاركة والنظر فيما نزل وحل .. ولا يخفى عليك ما للسياق فى الآية الكريمة من إبراز وتصوير لحال هؤلاء القائلين وما حل بهم من ابتلاء وشدة جعلتهم يتطلعون إلى فرج الله ونصره الذى طال انتظارهم له .. ومن ذلك أن تقول وقد اشتد الحر وأنت صائم . متى يؤذن لصلاة المغرب ؟ . أنت لا تجهل موعد الآذان والإفطار ولكنك تصور حالتك وطول انتظارك وترقبك لهذا الوقت وتدعو المخاطب ليشاركك ما تعانى منه وتتطلع إلى تفريجه . . . ومثله قولك وقد طال انتظارك القطار : متى يصل القطار ؟ وقولك لصاحب لك تدعوه كثيراً للحضور وهو يماطل ويتأخر ولا يجيب دعوتك : كم دعوتك ؟ فأنت تستبطىء إجابته وتحثه على مراجعة نفسه ومعرفة تقصيره وخطئه . . ومنه قول المتنبى :

حتام نحن نسارى النجم فى الظلم   وما سراه على خف ولا قدم

نسارى : من السرى وهو السير ليلا ، يقول : إلى متى نسرى مع النجم فى الليل ، وهو لا يسرى على خف كالإبل ولا على قدم كالناس فهو لا يتعب مثلنا ومثل مطايانا ، فالمتنبى لا يسأل عن الزمان ، ولكنه يستبطىء مجيء هذا اليوم الذى يصل فيه إلى هدفه ويحقق بغيته . . ومثله قول البهاء زهير :

أمولاى إنى فى هواك معذب   وحتام أبقى فى العذاب وأمكث

فهو يستبطىء ويتطلع إلى مجيء يوم الخلاص مما يعانيه ..

٢ — الاستبعاد : وقد يراد من الاستفهام معنى الاستبعاد وهو عد الشىء بعيداً ، والفرق بينه وبين الاستبطاء : أن الاستبعاد متعلقه غير متوقع ،

أما الاستبطاء فتعلقه متوقع والمستفهم يتطلع إلى وقوعه ومجيئه ومن الاستفهام الذى جاء مفيدا الاستبعاد قوله تعالى : « فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ »(١) فالكفرة يستبعدون البعث وينكرون وقوعه ، وقد عبروا عن هذا الاستبعاد بصيغة الاستفهام التى طوى فيها البعث المستفهم عنه والتقدير : أنبعث إذا كنا ترابا ؟ ذلك رجع بعيد ، وكأنهم يريدون أن يظل البعث هكذا سؤالا مثارا وتعجبا مقاما يسأله كل كافر ويتعجب من وقوعه كل جاحد عنيد ... ومنه قوله تعالى : « أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا : مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ »(٢) والمعنى : من أين لهم التذكر والاعتبار والرجوع إلى الحق وقد جاءهم رسول بين لهم الحق فأعرضوا عنه واتهموه بالجنون ، أيريدون الآن أن يتذكروا وأن يكشف عنهم العذاب .. ؟ هيهات هيهات لقد مضى وقت التذكر والاعتبار .. وفى ذلك إثارة لهؤلاء الكفرة وتنبيه إلى ماهم فيه من غفلة وعناد ومكابرة وحث لهم على قبول الهدى والانصياع للحق .. ومن ذلك قول أبى تمام :

من لى بإنسان إذا أغضبته وجهلت كان الحلم رد جوابه

فهو يستبعد أن يوجد إنسان على هذا القدر من الحلم والصفح وقوة الاحتمال .. وتقول : لقد صرنا فى زمن أغبر ، كثر فيه الظلم واعتداء القوى على الضعيف . صار الناس يظلم بعضهم بعضا ويأكلون أموالهم بينهم بالباطل .. فمن يتقى الله اليوم فى اليتيم ؟ ومن يساعد المسكين ؟ ومن يعيد الناس للانصياع إلى الحق المبين ؟ فأنت تستبعد أن يوجد فى هذا الزمان الأغبر من يقوم بواجبه تجاه دينه وتجاه اليتامى والمساكين ...

٣ - التحسر : ويرد الاستفهام مرادا به معنى التحسر والتألم وذلك

---

(١) سورة ق آية ٢ ، ٣ . (٢) سورة الدخان آية ١٣ ، ١٤ .

فى مقام يظهر فيه المستفهم حزنه وتألمه وتحسره على مافاته . .

تأمل قول حافظ إبراهيم فى وصف حريق :

سائلوا الليل عنهم والنهارا　　كيف باتت نساؤهم والعذارى ؟

فهو يتحسر ويتفجع لهؤلاء المنكوبين الذين ساءت أحوالهم وأتى الحريق على ما يملكون من متاع ومأوى فباتوا هم وأهلهم فى العراء ، وقد لجأ الشاعر إلى أسلوب الاستفهام ليلهب الناس ويثير حميتهم لمساعدة المصاب لتبديد ما ألم به وأصابه . . وانظر إلى قول البارودى فى رثاء زوجه :

يادهر فيم فجعتنى بحليلة　　كانت خلاصة عدتى وعتادى

إن كنت لم ترحم ضناى لبعدها　　أفلا رحمت من الأسى أولادى

نراه حزينا متألما لفراقها وقد صاغ ألمه وتحسره فى أسلوب استفهامى ليلهب الناس ويثيرهم إلى مشاركته حزنه وألمه .

ومن ذلك قوله تعالى : « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ »(١) فالاستفهام فى الآية يفيد تحسر الإنسان وندمه على ما فاته فى الدنيا واستبعاده الفرار فى ذلك اليوم . « كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ »(٢) .

٤ — التعجب : تأمل قوله تعالى : « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ : مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ »(٣) فسليمان — عليه السلام — لما تفقد الطير ولم يجد الهدهد تعجب : كيف لا يراه وهو لا يغيب إلا بإذنه ولذا توعده بالعذاب الشديد إذا لم يكن غيابه هذا لسبب قوى يدعو إليه : « لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . . »(٤) ، ومثله

---

(١) سورة القيامة آية ٧ — ١٠　　(٢) سورة القيامة آية ١١ ، ١٢

(٣) سورة النمل الآية ٢٠　　(٤) سورة النمل بالآية ٢١ .

قوله عز وجل : « قَالَتْ : يَاوَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ .. »(١)

فقد تعجبت امرأته من بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، كيف تلد وهي عجوز وقد عاشت حياتها عقيما ، وهذا بعلها قد صار شيخا ، إنه لأمر عجيب ولذا تساءلت الملائكة متعجبة من تعجبها : « أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ؟ .. »

ومنه قول المتنبي في وصف الحمى :

أبنت الدهر عندى كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام؟

فهو يتعجب من الحمى ، كيف وصلت إليه على الرغم من تزاحم الشدائد حوله وتكالبها عليه ..

٥ — التنبيه إلى ضلال : كما في قوله تعالى : « فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ »(١) ، فهو تنبيه للكفرة إلى خطأ ما يقولون وضلال ما يعتقدون وباطل ما يعبدون من دون الله، ويتضح لك هذا التنبيه عندما تتأمل سياق الآيات الكريمة : « فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِي الْكُنَّسِ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟ . » فقد أقسم سبحانه وتعالى بالنجوم الدالة على قدرته في أحوال ظهورها واختفائها ، الخنس ، الجوارى .. الكنس ، ثم أقسم بالليل يقبل بظلامه والصبح الذى يبدد ذاك الظلام ، إن القرآن لمن عندالله نزل به رســـول أمين على صاحبكم محمد صلى الله عليه وسلم ، وآثر التعبير

---

(١) سورة هود آية ٧٢ . (٢) سورة التكوير آية ٢٦ .

بالصاحب ليلفتهم إلى أنه صاحبهم الذي يعرفون صدقه وأمانته فهو صادق فيما يبلغهم عن ربه، أمين عليه، وقد رأى وأبصر من آيات ربه الكبرى، رأى جبريل بالأفق المبين، وهو حريص على إبلاغ رسالة ربه، لا يضن بها عليكم، .. لقد وضح الأمر وانكشف الحق، فأين تذهبون بعد ذلك عنه إلا إلى ضلالات وعتاهات ؟ فجيء الاستفهام عقب هذا البيان وتلك التجلية ينبه الغافل ويحذر المعاند ويحث المكابر على النظر والتأمل ليقبل على الحق ويتخلى عن الضلال والعناد.

٦ — التهويل : كما في قوله تعالى : « الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ »(١) ، « الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ »(٢) ، « كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ .. »(٣) فالاستفهام في الآيات الكريمة يكشف عن أهوال يوم القيامة، ويصور ويبرز فظاعة العذاب وشدته..

٧ — الوعيد والتهديد : كقولك لمن يسيء إليك : ألم أؤدب فلاناً ؟ تريد بذلك تهديده وتوعده حتى يقلع عن إساءته ... ومنه قوله عز وجل : « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ . ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ . كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ .. »(٤) ولا يخفى عليك مايفيده الاستفهام من توعد للكفرة وحث لهم على الإقلاع عن كفرهم والانصياع لصوت الحق حتى لا يصيبهم ما أصاب الأولين من إهلاك وتعذيب..

٨ — الأمر والحث على الفعل : كما في قوله تعالى : « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ

---

(١) سورة الحاقة آية ١ — ٣ . (٢) سورة القارعة آية ١ — ٣ .
(٣) سورة الهمزة آية ٥ (٤) سورة المرسلات آية ١٥ — ١٧

مُسْلِمُونَ » »(١) ، وقوله تعالى : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ »(٢) ، وقوله عز وجل « وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ؟ »(٣) ، وقوله تعالى : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ . . »(٤) وقوله : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ . ؟ »(٥) . . فالمراد بالاستفهام في الآيات الكريمة الأمر ، وقد جاء في صيغة الاستفهام ، لأن في ذلك إغراء المخاطب وحثا له على الاستجابة وقبول الأمر . .

٩ — التقرير : وقد يأتي الاستفهام ويراد به التقرير بمعنى طلب الإقرار أو بمعنى التحقيق والإثبات ، فمن الأول قوله تعالى : « قَالُوا : أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ . . »(٦) فهم يريدون حمله على الإقرار ، الاعتراف بالفاعل ، وعندما يكون التقرير بالهمزة ينبغي أن يليها ما حمل المخاطب على الإقرار به. فهم هنا يقررونه بالفاعل ولذا أجابهم : « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا » ، ومثله قوله تعالى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ »(٧) فهو تقرير بما يعرفه عيسى عليه السلام من هذا الحكم ، وهو أنه لم يصدر منه هذا القول ، وفيه توبيخ وتبكيت لمن اتخذوه وأمه إلهين من دون الله . . . ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ؟ »(٨) فالمراد بالاستفهام : تذكير موسى — عليه السلام — بنشأته وتربيته فيهم ، وحمله على الإقرار بذلك ، أملا من فرعون في أن يقلع

---

(١) سورة هود آية ١٤ .
(٢) سورة القمر آية ١٥ .
(٣) سورة آل عمران آية ١٩
(٤) سورة المائدة آية ٩١ .
(٥) سورة الحديد آية ١١ .
(٦) سورة الأنبياء آية ٥٢ .
(٧) سورة المائدة آية ١١٦ .
(٨) سورة الشعراء آية ١٨ .

ويكف عما جاء به من قبل الله، ولكن أنى له ذلك، وموسى رسول رب العالمين.
ومن الثاني : « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى . . »(١) . . « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . . »(٢) . . « أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . . »(٣) . . « هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ؟ »(٤) ، فالمراد بالاستفهام في الآيات التقرير بمعنى التحقيق والإثبات ومجيء التحقيق في صورة الاستفهام فيه تنبيه للمخاطب وحث له إلى تدبر الأمر وتأمله . . ومنه قول جرير في مدح بني أمية :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

فهو تحقيق وإثبات لكرمهم وشجاعتهم وقد صاغه في صيغة استفهام ليرشد وينبه إلى فضلهم وسبقهم إلى العلاء .

١ — الإنكار : والهمزة هي أكثر أدوات الاستفهام دلالة على معنى الإنكار ، ويليها دائما المستفهم عنه سواء أكان الاستفهام لمجرد طلب الفهم أم للتقرير أم للإنكار أم لغير ذلك كما عرفت في بناء جملة الاستفهام مع الهمزة . . . والاستفهام الإنكاري يرد على نوعين : إنكاري توبيخي وإنكاري تكذيبي . . .

فالأول : إنكار وتوبيخ على أمر قد وقع في الماضي بمعنى ما كان ينبغي أن يقع ، أو على أمر يخشى المستفهم أن يقع في المستقبل بمعنى ينبغي ألا يكون ، فالإنكار أو النفي في التوبيخي موجه إلى الابتغاء والمعنى : ما كان ينبغي في الماضي ، وينبغي ألا يكون في المستقبل . . تأمل قوله تعالى . « أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً »(٥) ، فالمعنى :

---

(١) سورة الضحى آية ٥ .   (٢) سورة الشرح آية ١ — ٢ .
(٣) سورة الفيل آية ٢ .   (٤) سورة الإنسان آية ١ .
(٥) سورة الكهف آية ٣٧ .

ما كان ينبغي أن يقع هذا الكفر وقد خلقك الله وسواك وأنعم عليك بالنعم التي تباهى بها وتفتخر .. ومثله قوله تعالى : « هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ؟ »(1) وقوله تعالى . « أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ »(2) فالاستفهام في الآيتين للتوبيخ على أمر واقع والمراد : ما كان ينبغي أن يقع منكم ما وقع .. ومنه قول امرىء القيس :

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

والمعنى : ما كان ينبغي أن يغرك حبي لك ، وتعتقدي أني أصبحت متيما في هواك ، أفعل ما تأمرين به .. وتقول : أعصيت ربك .. آذيت جارك .. أأهملت في واجبك ؟ أي : ما كان ينبغي أن يقع هذا منك .. ولعلك تشعر بما في بيت امرىء القيس من تصوير جميل لقصة حبه مع ما في التعبير من إيجاز وإخفاء لهذا الحب وراء الاستفهام ، فهو يستفهم عنه ولا يفصح بإثباته ووقوعه .. وتأمل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ؟ »(3) تجد أن الاستفهام موجه إلى تلك الإرادة وهي غير واقعة ، بل يحتمل وقوعها في المستقبل والمراد : لا ينبغي أن تكون هذه الإرادة .. وتقول : أتعصي ربك .. أتؤذي أباك .. أتنسى إحسان فلان .. أتخرج في هذا الوقت ؟ والمراد تنبيه المخاطب إلى خطأ ما هو مقبل عليه حتى يرتدع عنه ، فالمعنى : لا ينبغي أن تكون منك هذه الأفعال ..

والثاني : وهو الإنكار التكذيبي ، ويسمى أيضا بالإنكار الإبطالي ، إذا كان التكذيب في الماضي ، كان الاستفهام بمعنى : لم يكن ، وإذا كان في المستقبل كان بمعنى لن يكون .. تأمل قوله تعالى : « أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ

(1) سورة يوسف آية ٨٩ . (2) سورة الصافات آية ١٢٥ .

(3) سورة النساء آية ١٤٤ .

بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَولاً عَظِيماً . . »(١)
تجد أن الاستفهام في الآية يفيد تكذيبهم ، وإبطال ما قالوه ، والمعنى : لم يكن
من الله تعالى اصطفاء ولا اتخاذ . ومنه قول امرىء القيس

أيقتلني والمشرفي مضاجعي مسنونة زرق كأنياب أغوال

فهو يكذب إنسانا توعده بالقتل وينكر أن يقع منه ذلك والمعنى : لن
يكون هذا القتل . واقرأ قوله تعالى : « قَالَ : يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ
عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا
وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ؟ »(٢) ، فالمراد : أنجبركم ونكرهكم على الاهتداء بها ،
والمعنى : لن يكون ذلك الإجبار إذ لا إكراه في الدين . . . وتقول : أيرضى
عنك ربك وأنت مقيم على عصيانه ؟ أي : لن يكون هذا

ومنه قول الشاعر :

أأترك إن قلت دراهم خالد زيارته ؟ إني إذا للئيم

أي : لن يكون ذلك مني . .

هذا وموضع الإنكار - كما مر بك - هو ما يلي الهمزة ، تقول في إنكار
الفاعل : أأنت تقدر على هذا ؟ . أأنت تدعي حقي ؟ تريد : لن يكون هذا منك ،
ولن تستطيعه فلست له أهلا . . وتقول في إنكار المفعول : أعمرا أهنت ؟
بمعنى لم يكن ذلك . وتأمل قوله تعالى : « قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا »(٣) . .
« قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ »(٤) فالمعنى على إنكار أن
يكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا أو يبغى ربا . . وتقول في إنكار الفعل :
أتؤذي أباك . . ؟ ومنه قوله تعالى : « أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . . »(٥)

---

(١) سورة الإسراء الآية ٤٠ . (٢) سورة هود الآية ٢٨ .
(٣) سورة الأنعام الآية ١٤ . (٤) سورة الأنعام الآية ١٦٤ .
(٥) سورة الأعراف الآية ٢٨ .

وقوله عز وجل : « أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ .. »(١) والمعنى : ينبغي ألا يقع هـذا .. وتقول : أتفتاني ؟ والمعنى ان يكون ذلك منك ، وقد مرت بك شواهد كثيرة لإنكار الفعل إنكاراً تكذيبياً ...

وقد يكون الإنكار للفعل ويلي الهمزة غيره وذلك عندما يكون للفعل فاعل محدد أو مفعول أو ظرف ليس للفعل سواه فيلي الهمزة أو يعطف على ما وليها بأم المتصلة ذلك المحدد كقولك في إنكار الفعل : أفي ليل وقع هذا أم في نهار؟ منكرا الوقوع ، لأن الفعل إذا نفى فاعله أو مفعوله أو محله - كما في المثال الذي ليس له غيره ، لزم من ذلك انتفاء الفعل ، وهذا أبلغ في إنكار الفعل وانتفائه ، لأن نفي الفعل فيه بطريق الكناية واللزوم . فهو بمثابة دعوى بدليلها . وقد مرت بك شواهد هذه الصورة في بناء جملة الاستفهام مع الهمزة فعد إليها هناك ..

١١ - النفي : وقد يأتي الاستفهام بمعنى النفي ، كما في قـوله تعالى : « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ »(٢) والمعنى : ماجزاء الإحسان إلا الإحسان ، تلك حقيقة مقررة لا يعارض فيها عاقل ، ولكن فرق بين الدلالة عليها بالاستفهام والدلالة عليها بطريق النفي المعهود ، إن في الاستفهام تحريكا للفكر ، وتنبيهاً للعقل وحثا على النظر والتأمل .. وهذا هو الفرق بين النفي الصريح وبين النفي عن طريق الاستفهام ... انظر إلى قوله تعالى : « سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ؟ .. »(٣) ، فالمعنى لا محالة : لا أحد يملك لكم من الله شيئاً ، ولكن الدلالة على هذا المعنى بالاستفهام فيها

---

(١) سورة البقرة آية ٦١ . (٢) سورة الرحمن آية ٦٠

(٣) سورة الفتح آية ١١

تنبيه لهؤلاء المخالفين وحث لهم على تدبر أحوالهم ومراجعة أنفسهم والانقياد للحق واتباع سبيل الرشاد .. وكذا القول فى الآيات الكريمة :
« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِى خَرَابِهَا ؟ »[1] . . . « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا »[2]
« فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ »[3] . . فالدلالة على النفى بالاستفهام فى الآيات الكريمة تمتاز عن الدلالة عليه بطريقه المعهود ؛ إذ النفى الصريح خال من التحريك والتنبيه وإثارة المشاعر ، أما الاستفهام ففيه بعث على النظر والتأمل وحث على التفكر والتدبر حتى يتبين المخاطب وجه الخطأ فيقلع عنه ويبتعد .. وعد إلى دلالة الاستفهام على الإنكار وتأمل فرق ما بين قولك : أتؤذى أباك ؟ تنسى إحسان فلان ؟ وبين قولك : لا ينبغى أن تؤذى أباك .. لا ينبغى لك أن تنسى معروف فلان ، فنحن وإن كنا نفسر الاستفهام بهذا المعنى إلا أن هناك فرقاً جوهريا يمتاز به الاستفهام الإنكارى عن النفى الصريح وهو أن فى الاستفهام إغراء لمن تخاطبه كى يقلع عما فعل أو سيفعل وعما اعتقد أو يعتقد ، حيث لم تواجهه صراحة بالنفى أو التكذيب ، كما أن فى الاستفهام تحريكا لفكر المخاطب وتنبيها له ودعوى كى يتأمل ويتدبر ويعيد النظر فيما يفعل أو يعتقد لعله يستيقن فيذعن للحق ويقلع عن الباطل والضلال ..

ومن الاستفهام الدال على النفى قول البحترى :

هل الدهر إلا غمرةٌ وانجلاؤها وشيكا وإلا ضيقةٌ وانفراجُها

(١) سورة البقرة آية ١١٤ (٢) سورة العنكبوت آية ٦٨
(٣) سورة الأحقاف آية ٢٥

فالشاعر أراد بالاستفهام أن يحث المخاطب على النظر والتأمل حتى يدرك هذه الحقيقة الواقعة ويعيها فكره ، وهى أن الدهر ليس إلا شدة سرعان ماتنجلى ، وضيقا يعقبه فرج ..

ومثله قول الآخر :

هل الدهر إلا ساعة ثم تنقضى   بما كان فيها من بلاء ومن خفض؟

١٢ - التشويق : وقد يأتى الاستفهام للتشويق وذلك عندما يقصد المتكلم إلى ترغيب المخاطب واستمالته كما فى الآيات الكريمة : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟»(١) «قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ؟..»(٢) .. «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ؟..»(٣) .. «هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ..»(٤) ، ولا يخفى عليك ما فى الآيات الكريمة من ترغيب للمخاطب وتشويق له إلى معرفة الجواب ، فهو يفكر فيه وينشغل به وينتظره فى ترقب وتطلع وعندئذ يأتى الجواب فيقع فى نفس المخاطب موقعا حسنا ، لأنه جاء والنفس مهيأة له ومتلهفة إلى معرفته ... إلى غير ذلك من الأغراض البلاغية التى يفيدها الاستفهام فهى أكثر من أن يحاط بها ، لأنها معان تستنبط من السياق وتأمل أحواله ، والمعول عليه فى ذلك هو سلامة الذوق وتتبع التراكيب الجيدة ، ولا ينبغى أن تقتصر فى ذلك على معنى سمعته أو مثال وجدته من غير أن تتخطاه إلى غيره ، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية والله الهادى(٥) ..

---

(١) سورة الصف آية ١٠   (٢) سورة آل عمران آية ١٥
(٣) سورة النازعات آية ١٥ ، ١٦   (٤) سورة النازعات آية ١٨
(٥) انظر المطول ص ٢٤٩

ومنها بالإضافة لما سبق، دلالته على التعظيم .. كما فى قول المتنبي :

من للمحافل والجحافل والسرى ... فقدت بفقــدك نيراً لا يطلع

فهو يريد تعظيم المخاطب والإشادة بفضله وأن المحافل وهى المجامع والجحافل وهى الجيوش والسرى أى السير ليلا والزحف إلى الأعداء ، هذه الأمور قد فقدت بفقده نيرا لا يطلع .. ومثله قول الآخر :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وســداد ثغر

فالمراد بالاستفهام تعظيم نفسه والإشادة بشجاعته وفروسيته ، ولا يخفى عليك ما فى البيتين من إظهار التحسر والتفجع لفقد من فقدته المحافل والجحافل ، وإضاعة القوم لفتاهم المغوار ... ومنها التحقير ، كما فى الآيات الكريمة : « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ؟ »(١) . « وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا : أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا »(٢) « أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ؟ »(٣) .. وكما فى قول الشاعر :

تقول وقد دقت نحرها بيمينها ... أبعلى هذا بالرحا المتقاعس

وقول الآخر :

فدع الوعيد فما وعيدك ضائرى ... أطنين أجنحة الذباب يضير ؟

ومنها التهكم ، كما فى قوله تعالى : « قَالُوا : يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ »(٤) فهم يسخرون منه ويتهكمون بما جاء به ، وقد عبروا عن ذلك بصيغة الاستفهام ليدلوا على ثباتهم فى الكفر ووقوفهم الصامد فى الضلال والمكابرة .. ومنها

---

(١) سورة الشعراء آية ٧٠
(٢) سورة الفرقان آية ٤١
(٣) سورة الأنبياء آية ٣٦
(٤) سورة هود آية ٨٧

التمنى ، وذلك عندما يطلب السائل الأمور المحالة أو البعيدة الحصول ، كما فى قوله تعالى على لسان أهل النار : « فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ. »[1] « هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ .. »[2] .. « إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ؟ »[3] ، وكأنهم لفرط ما هم فيه من هول العذاب صاروا يسألون غير الممكن كما يسأل عن الشيء الذى لا استحالة فى وجوده ... هذا وكما ذكرت لك فإن هذه المعانى يستنبطها الدارس من خلال النظر فى السياق وتأمل تراكيبه وقرائن أحواله ، وكثيرا ما تجد أسلوب الاستفهام يفيض بأكثر من معنى بلاغى ، تأمل قوله تعالى : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »[4] تجد الاستفهام بها يفيد الإنكار التوبيخى ، أى : لا ينبغى أن يكون منكم كفر وقد علمتم قصة خلقكم وحياتكم .. كما يفيد التعجيب من وقوع هذا الكفر والحث على الإقلاع عنه والإقبال على الهدى والإيمان ، لأن فى خلق السموات والأرض وفى خلق الإنسان من العبر والعظات والأدلة على قدرة الله مالو تأمله الكافر وتدبره لأقلع عن كفره وضلاله ، فوجود الكفر منه بعدئذ يدعو إلى التعجب والإنكار .. ومثله قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ »[5] فالاستفهام فى الآية إنكار لوقوع ذلك منهم وتعجب من وقوعه وحث على الإقلاع عنه .. وخذ قوله تعالى: « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ : أَيْنَ الْمَفَرُّ ؟ »[6] تجد الاستفهام بها يدل على الحيرة والتخبط والتحسر والندم ، وتمنى الفرار من العذاب الذى ينتظره . وأنى له ذلك :

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٣ . (٢) سورة الشورى آية ٤٤ .
(٣) سورة غافر آية ٤٧ . (٤) سورة البقرة آية ٢٨ .
(٥) سورة البقرة آية ٤٤ . (٦) سورة القيامة آية ٧-١٠ .

« كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ » (١) وتأمل قــوله تعالى : « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ » (٢) فالسؤال الأول يفيد التقرير ، والسؤال الثاني يفيد طلب المزيد من الوقود وتمنيه ويقى، بمدى تغيظ جهنم وشدة غضبها لكفر هؤلاء الكفرة وتطلعها وتشوقها إلى المزيد منهم .. وخذ هذه الآية ـ وقد مرت بك ـ « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » (٣) فاستفهام الرسول ومن معه وهم صفوة الناس ، وقولهم وقد زلزلوا ومستهم البأساء والضراء متى نصر الله ؟ ، يفيد تطلعهم للنصر وتشوقهم وتمنيهم وقوعه وحلوله ، كما يفيد استبطاءهم لمجيئه ، وهذا ما يصور شدة ابتلائهم ويبين أنه على المؤمنين أن يكونوا على استعداد وأن يهيئوا أنفسهم لمثل هذا الابتلاء ، فلن يدخلوا الجنة إلا إذا محصوا كما محص من قبلهم واختبروا كما اختبروا .. وبهذا يتضح لك أن الأسلوب الاستفهامي يفيض بكثير من المعاني التي يستطيع أن يقف عليها الدارس بتأمل سياقه وتدبر قرائن أحواله ..

أسلوب النداء : ـ النداء : هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب كلمة « أدعو » ، والغاية منه أن يصغى من تناديه إلى أمر ذي بال ، ولذا غلب أن يلي النداء أمر أو نهي أو استفهام أو إخبار بحكم شرعي كما في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » (٤) . وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » (٥) ، وقوله عز وجل : « يَا أَيُّهَا

---

(١) سورة القيامة آية ١١ ـ ١٢ (٢) سورة ق آية ٣٠

(٣) سورة البقرة آية ٢١٤ (٤) سورة المدثر آية ١ـ٤

(٥) سورة المائدة آية ٨٧ .

النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ .. »(١) ، وقوله جل وعلا : « يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. »(٢)

ودلالة النداء على الطلب دلالة مطابقة على أرجح الأقوال ، لأنه طلب الإقبال ، فهو بمعنى : « أقبل » الأمر ، وقيل : إن دلالته على الطلب التزامية ، لأنه بمقتضى تعريفه : « طلب إقبال المخاطب بحرف نائب مناب كلمة : « أدعو » ليصغى إلى ما يريده المتكلم .. » و « أدعو » فعل مضارع لا أمر ، ولكن الدعاء يتضمن طلب الإقبال فلذا جعل النداء من أقسام الطلب ، ودلالته عليه دلالة التزامية تضمينية .. ومنهم من يرى أنه مجرد تنبيه لا طلب فيه .. والراجح هو الرأى الأول ـ كما ذكرت ـ لأنك عندما تقول : « يا محمد » ، فإنك تطلب منه الإقبال عليك ، وكأنك تقول له : « أقبل » بصيغة الأمر ، وليس « أدعو » بصيغة المضارع ..

وحروف النـــداء هى : الهمزة وأى ويا وآ وآى وآيا وهيا و « وا » ، وأكثرها استعمالا فى نداءات القرآن الكريم هو « يا » ..

وهذه الأدوات نوعان : ما ينادى به القريب وهو الهمزة وأى ، وما ينادى به البعيد وهو بقية الأدوات ..

وإذا كان النداء هو طلب الإقبال ، فإن الأصل فيه أن يكون للقريب الذى لا يجاوز امتداد صوت المنادى ، ولكنهم توسعوا فيه فنادوا البعيد الذى لا يمكن أن يسمع صوت المنادى ، أو بمعنى آخر الذى لا يمكن أن يصل إليه صوته ، وجعلوا لندائه أدوات ولنداء القريب أدوات ـ كما رأيت ـ . ولم يتوقفوا عند نداء البعيد الذى لا يصله صوت المنادى ، بل اتسع تصرفهم فى النداء فنادوا غير الحى العاقل ، كالناقة والطير والوحش ، ومشاهد الطبيعة

(١) سورة التحريم آية ١ . (٢) سورة الطلاق آية ١ .

من برق وسحاب وأقمار وشموس وأشجار وأرض وسماء وجبال، وفيافى وقبور وأطلال وديار. كما نادوا أحوال النفس وعواطفها من حب وبغض وحسرة وويل ولذة ... ونداء مثل هذه الأمور لا يكون لطلب الإقبال، وإنما يكون لأغراض بلاغية ومقاصد يقصد إليها المتكلم.

قلت: إن النداء يكون بحروف نائبة مناب كلمة: «أدعو»، وهـــذه الحروف قد تذكر، كما فى الآيات التى مرت بك، وكما فى قولك أمحمد .. ياخالد. هيا سلمى .. وقد تحذف فتقول: محمد. خالد .. سلمى تريد نداءهم .. ومما ورد فيه حذف أداة النداء، قوله تعالى: «يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ..»(١) .. «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ»(٢) .. «قَالَ: فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ»(٣) فقـــد حذفت أداة النداء فى الآيات الكريمة وتقديرها: أيوسف .. يا أيها الصديق .. يا أيها المرسلون .. ومن ذلك نداء الرب فى أساليب القرآن الكريم، فلا يكاد يستخدم حرف النداء مع الرب بل ينادى مجرداً من حرف النداء، ولعل فى ذلك تعبيراً عن شعور الداعى بقربه من ربه عز وجل، كقوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى ..»(٤) وعلى كثرة مانودى الرب فى القرآن الكريم، لم يعثر عليه مسبوقا بحرف النداء إلا فى الآية الكريمة «وَقِيلِهِ: يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ. فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»(٥). ولعل فى مجىء حرف النداء مع الرب فى هذه الآية بصفة خاصة، تعبيراً عن حالة نفسية ألمت بالرســـول - عليه السلام - وقد أفرغ جهده فى دعوة قومه وإنذارهم، فلم يزدهم ذلك إلا تماديا فى كفرهم، فأطبق الهم على فؤاده، وكأنما شعر بتخلى الرب عن

(١) سورة يوسف الآية ٢٩ (٢) سورة يوسف الآية ٤٦
(٣) سورة الذاريات آية ٣١. (٤) سورة البقرة آية ٢٦٠.
(٥) سورة الزخرف آية ٨٨ - ٨٩.

نصرته بسبب كفر قومه وإعراضهم، فأراد أن يرفع صوته زيادة فى الضراعة إلى الله واستجلاب رضاه ، كما أن فى امتداد الصوت بهذا الحرف « يا » ما ينبىء بحالة الرسول النفسية ، وكأنه وجد فيها متنفساً لآلامه وأحزانه ..

وفى نداء لفظ الجلالة يجوز استبدال ميم مشددة فى آخره بحرف النداء فيقال : اللهم ، بدلا من : يا الله ، ومن ذلك قوله تعالى : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ .. »(١)

هذا وقد ينزل البعيد منزلة القريب فينادى بالهمزة وأى، لغرض بلاغى وهو الإشعار بأنه حاضر فى القلب لا يغيب عن الخاطر ، حتى صار كأنه حاضر مشاهد .. ومن ذلك قول أبى فراس وهو أسير فى بلاد الروم ينادى سيف الدولة :

أسيف الهدى وقريع العرب   إلام الجفاء وفيم الغضب ؟
وما بال كتبك قد أصبحت   تنكبنى مع هذى النكب(٢)

فعلى الرغم من تباعدهما جاء النداء بالهمزة ليعبر عما يضمره له من حب ، فهو حاضر فى قلبه لا يغيب عن خاطره، وكأنه مشاهد أمامه..
ومثله قول الآخر :

أسكان نعمان الأراك تيقنوا   بأنكم فى ربع قلبى سكان(٣)

فهو ينادى سكان هذا المكان وقد عبر بالهمزة الموضوعة لنداء القريب لينبىء بأنهم قريبون منه ، لا يتركون فكره ولا يبرحون خياله ..
ومثله قول الآخر :

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٦ .

(٢) قريع العرب : سيدهم . تنكبنى : تجنبنى والمراد أن هذه نكبة تضاف إلى نكبة أسره .. وكتبك بسكون التاء ضرورة : رسائلك ، مفردها : كتاب ..

(٣) نعمان الأراك : اسم موضع .. والربع : المنزل ..

أأبى لاتبعد وليس بخالد حى ومن تصب المنون بعيد

فهو ينادى أبيا الذى أصابته المنون فصار بعيدا عنه يناديه بالهمزة ليعبر عن حضوره فى قلبه واستقراره فى فؤاده . . وتقرأ رسالة والد إلى ولده أرسلها له من مكان بعيد فتراه يقول : « أى بنى عليك بالاستقامة وترك المعاصى فإن العلم نور ونور الله لايهدى لعاص » ، فقد عبر بأى فى ندائه ابنه وهو بعيد عنه ليدل على أنه حاضر فى قلبه لايبرح خياله ولا يغيب من فكره ووجدانه . .

كما قد ينزل القريب منزلة البعيد فينادى بغير الهمزة وأى لأغراض بلاغية أهمها :

١ — الإشعار ببعد منزلته وعلو مكانته ، فينزل بعد المنزلة وعلو المكانة منزله البعد المكانى ، كما فى قوله تعالى : « يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا . يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا »(١) فإبراهيم - عليه السلام - ينادى أباه وهو قريب منه ، وقد استخدم « يا » الموضوعة لنداء البعيد ليفهى ببعد مكانته وسمو منزلته وهذا أدب الابن مع أبيه حتى ولو كان على غير دينه . . ومن ذلك نداؤك لفظ الجلالة فتقول : « يا الله » مع أنه أقرب إليك من حبل الوريد . .

٢ — الإشعار بأن المنادى وضيع المنزلة منحط المكانة وكأنه بعيد عن القلب ، فينزل هذا البعد النفسى منزله البعد المكانى . . كما فى قول جرير يهجو ابن أبى خليد :

خل الفخر يا ابن أبى خليد وأد خراج رأسك كل عام

ومثله قول الفرزدق فى هجاء جرير :

(١) سورة مريم آية ٤٤ — ٤٥ .

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

٣ — التنبيه على عظام الأمر المدعو له وعلو شأنه ، حتى كأن المنادى مقصر فيه غافل عنه مع شدة حرصه على الامتثال ، كما فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ »(١) . ويحمل على ذلك كل النداءات الموجهة من الله تعالى إلى عباده : « يا أيها الذين آمنوا .. يا أيها الناس .. يا موسى أقبل ولا تخف .. يا عيسى ابن مريم .. يا نوح اهبط بسلام منا .. » فالله عز وجل أقرب إلى عباده من حبل الوريد ، وقد جاء النداء « بيا » الموضوعة لنداء البعيد للتنبيه على عظم الأمر الذى نودى من أجله وعلو شأنه ، وليبادر المنادى بالامتثال والاستجابة .. ومن ذلك قوله تعالى على لسان لقمان يوصى ابنه : « يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم .. يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف .. »(٢)

٤ — أن يكون المنادى نائما أو ساهيا ، فيكون كل من النوم والسهو بمنزلة البعد الذى يقتضى علو الصوت ، كقولك : هيا عمرو استيقظ ، أيا خالد تنبه ولا تسه ...

٥ — الإشعار بغفلة المنادى عن الأمر العظيم الذى يقتضى اليقظة والانتباه ، كقولك : هيا فلان تهيأ للحرب .. ومنه قول الشاعر :

يا أيها السادر المزور من صلف ... مهلا فإنك بالأيام منخدع

وكأن غفلة هذا الغافل جعلتك تبعده عن ساحة الحضور وتنزله منزلة البعيد فتناديه نداءه .. ومنه قول مرة بن محكان السعدى يخاطب ربة بيته ويناديها :

يا ربة البيت قومى غير صاغرة ... ضمى إليك رحال القوم والقربا

---

(١) سورة المائدة آية ٦٧ . (٢) سورة لقمان آية ١٣-١٧ .

الأغراض البلاغية التي يفيدها أسلوب النداء : ـ ويأتي أسلوب النداء مفيداً لمعان بلاغية كثيرة تفهم من السياق وقرائن أحواله ، فعندما تنادي القبور أو الشوق أو الحزن أو التعجب أو الويل ، فإنه يراد بهذا النداء مقاصد وأغراض يرمي إليها المنادي ، كما قد ينادي الحي العاقل لغرض آخر بالإضافة إلى طلب الإقبال . . . وإليك أهم هذه المقاصد :

١ ـ الإغراء : وهو الحث على طلب الأمر الذي ينادي له ، كقولك لمن يتظلم : يا مظلوم تكلم ، فأنت تريد بهذا النداء إغراءه وحثه على بث الشكوى وإظهار التظلم . . وكقولك لمن يتردد في الإقدام : ياشجاع تقدم ، تريد حثه على المضي والتقدم ...

٢ ـ الاختصاص : وهو تخصيص حكم علق بضمير باسم ظاهر صورته صورة المنادي أو المعرف بأل أو بالإضافة أو بالعلمية : فمثال كون الدال على التخصيص صورته صورة المنادي قولك أنا أفعل كذا أيها الرجل . . ونحن نقول كذا أيها القوم . . واغفر اللهم لنا أيتها العصابة ، فالمراد بالمنادي هو المتكلم نفسه والمعنى : أنا أفعل كذا متخصصا من بين الرجال . . ونحن نقول متخصصين من بين الأقوام . . واغفر لنا متخصصين من بين العصائب . . ولا مانع من نداء الإنسان نفسه كما في قول عمر رضي الله عنه : « كل الناس أفقه منك ياعمر » ، ومثال الاختصاص المعرف بأل : « نحن العرب أسخى من بذل » وبالإضافة قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » ، وبالعلمية : « بنا تميما يكشف الضباب » . .

والغرض من الاختصاص إما تأكيد مدلول الضمير . . كما في قولك : أنا أفعل كذا أيها الرجل . . وإما إظهار المسكنة والتواضع كقولك : أنا أيها المسكين أطلب المعروف ، وإما الافتخار كقولك : نحن العرب أقرى الضيف

٣ ـ الاستغاثة : كقولك : ياالله . أى : أقبل علينا لإغاثتنا ..
ومنه قول الشاعر :

يالقومى وبالأمثال قومى ... لأناس عتوهم فى ازدياد

٤ ـ الندبة وهى نداء المتوجع منه أو المتفجع عليه ، كقولك يارأساه .. واعيناه .. واكبداه .. ومنه قول المتنبي :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ... ومن بجسمى وحالى عنده سقم

٥ ـ التعجب : كقولك وقد شربت ماء باردا حلوا : « ياللماء » تريد التعجب من برودته وحلاوته .. ومنه قول امرىء القيس :

فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل

وقول الفرزدق يهجو جريرا :

فوا عجبا حتى كليب تسبنى ... كأن أباها نهشل أو مجاشع

وقول الآخر :

فوا عجبا كيف اتفقنا فناصح ... وفى ومطوى على الغل غادر

٦ ـ الزجر : كما فى قول الشاعر :

ياقلب ويحك ماسمعت لناصح ... أما ارعويت ولا اتقيت كلاما

فهو يريد بالنداء زجر قلبه وتأنيبه لعدم استجابته للنصائح وارعوائه عن هواه وصبابته .. ومثله قول الآخر .

أفؤادى متى المتاب ألما ... تصح والشيب فوق رأسى ألما

٧ ـ الوعيد : كما فى قول المهلهل متوعدا آل بكر :

يالبكر أنشروا لى كليبا ... يالبكر أين أين الفرار

٨ ـ التنبيه : وقد يأتي حرف النداء لمجرد التنبيه وذلك عندما يدخل على الحروف ، كما في قوله تعالى «يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ..»(١) ، وكما في قوله صلى الله عليه وسلم : «يارب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة» .

٩ ـ التحسر والتحزن : وذلك عند نداء الأطلال والمنازل والمطايا والقبور والأموات والويل والحسرة وما إلى ذلك ، كما في قوله تعالى : «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ..»(٢) وقوله تعالى : «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ»(٣) ، فنداء الحسرة والويل في الآيتين يفيد التحسر والتحزن وإظهار الندم ، وكأنه يقول : ياويلتي وياحسرتي أقبلا ، فهذا هو أوانكما . وكأنه أي الكافر لفرط ماهو فيه صار يتخيل أن الويل والحسرة يسمعان ويجيبان فناداهما .. وهذا ينبىء عما بداخله من أحزان وآلام وتحسر وندم ..

ومن ذلك نداء القبر في قول الحسن بن مطير :

فتى عيش في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
أيا قبر معن كنت أول حفرة
من الأرض خطت للسماحة مضجعا
وياقبر معن كيف واريت جوده ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا

ونداء الميت في قول العتبي بن مالك :

أعداء ماللعيش بعدك لذة ولا لخليل بهجة بخليل

---

(١) سورة النساء آية ٧٣ .
(٢) سورة الفرقان آية ٢٧-٢٩ (٣) سورة الزمر آية ٥٦ .

أعداه ماوجدي عليك بهين ولا الصبر إن أعطيته بجميل

وفى قول الآخر :

دعوتك يابنى فلم تجبنى فردت دعوتى يأسا عليا

وقوله :

يادرة نزعت من تاج والدها فأصبحت حلية فى تاج رضوان

ونداء المنازل والديار كما فى قول الشاعر :

يادارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

وقول الآخر :

أيا منازل سلمى أين سلماك من أجل هذا بكيناها بكيناك

ونداء الناقة فى قول حفص بن الأحنف الكنانى :

نفرت قلوصى من حجارة حرة بنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفرى ياناق منـــه فإنه شراب خمر مسعر لحروب

ونداء البرق فى قول أبى العلاء المعرى :

فيابرق ليس الكرخ دارى وإنما رمانى إليه الدهر منذ ليال
فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال

فوراء تلك النداءات تكمن آلام الشعراء وأحزانهم وتحسرهم وكأنهم لفرط مايجدون من الوجد والأسى توهموا أن تلك الأشياء تحس وتشعر ، أو أرادوا أن يبرزوا ويصوروا للمخاطب أنها تشعر وتعى ، وعليها أن تشاركهم آلامهم وأن تستجيب لنداءاتهم ، فالقبر فى خيال الشاعر حى يعقل وعليه أن يجيب نداءه ، والناقة تشعر بآلامه وتفرح لفرحه وتأنس لتلك الحجارة كما أنس .. والميت فى قبره ينعم ويحيا ويرى ويسمع نوهاته ...

والمنازل .. والبرق .. وغيرها .. تستجيب لنداء المكروب وتشعر بألم المتألم .. ووراء ذلك تكمن آلامهم وأحزانهم التى تنبعث من تلك النداءات .. وهذا هو السر البلاغى وراء نداء تلك الأشياء ...

هذا والنداء يصحب ـ غالبا ـ الأمر والنهى والاستفهام ، وكأنه يعد النفس ويهيؤها لتلقى تلك الأساليب ، ولذا فهى تتقوى به ، لأن النداء يوقظ النفس ويلفت الذهن وينبه المشاعر ، فإذا ماجاء بعده الأمر أو النهى أو الاستفهام صادف نفساً مهيأة يقظة . فيقع منها موقع الإصابة حيث تتلقاه بحس واع وذهن منتبه .. ولذا كثر مصاحبة النداء لتلك الأساليب فى النظم الكريم على نحو ما ترى فى الآيات الكريمة : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. »(١) .. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ..)(٢) .. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ..)(٣) .. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ..)(٤) ، وقد تجتمع هذه الأساليب جميعها كما فى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ..)(٥)

ويجد النداء فى الآيات المذكورة قد تقدم على تلك الأساليب وقد يتأخر عنها ، كما فى قوله تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(٦) .

وقد تتقوى هذه الأساليب بغير النداء ، وذلك بأن يقع بعدها مايحث

---

(١) سورة الحج آية ١ .
(٢) سورة المائدة آية ١ .
(٣) سورة المائدة آية ٨٧ .
(٤) سورة الصف آية ١٠ .
(٥) سورة الحجرات آية ١٢ .
(٦) سورة النور آية ٣١ .

عليها ، كما فى قوله تعالى (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)[١]، فقوله : (إن صلاتك سكن لهم) حث على الصلاة وترغيب فيها .. ومنه قوله تعالى : (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)[٢] فقوله : (إنهم كفروا) حث على النهى وتنفير من الصلاة عليهم . ومن ذلك قول بشار :

بكرا صاحبى قبل الهجير
إن ذاك النجاح فى التبكير

فقوله : ، إن ذاك النجاح فى التبكير ، حث على الأمر وترغيب فيه ...

أسلوب التمنى: قالوا فى تعريفه هو طلب أمر تحبه النفس وتميل إليه وترغب فيه ، ولكنه لا يرجى حصوله إما لكونه مستحيلا ، أو لكونه بعيداً لا يطمع فى نيله . والأداة الموضوعة له هى : ليت ، تقول فى تمنى الأمر المحبوب الذى لا طمع فيه لكونه مستحيلا، لا يمكن حصوله : ليت الشباب يعود يوما . ليت الكواكب تدنو لى . ومن ذلك قوله تعالى : (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ : يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا)[٣]، وقوله عز وجل : (يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[٤] ، وقوله تعالى (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)[٥] .. فمريم تتمنى أن تكون

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٣ .
(٢) سورة التوبة آية ٨٤ .
(٣) سورة مريم آية ٢٣ .
(٤) سورة الأنعام آية ٢٧ .
(٥) سورة الفرقان آية ٢٧ .

قد ماتت قبل ذلك .. والكفرة يتمنون عند معاينة الحساب أن يردوا إلى الدنيا فيؤمنوا ولا يكذبوا ... والظالم يعض على يديه ندما ويتمنى أن يكون قد اتخذ مع الرسول سبيلا ، وتلك الأمور المتمناة لا يرجى حصولها أبدا لكونها مستحيلة الوقوع .. ومنه قول الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوما　　　فأخبره بما فعل المشيب

وقول الآخر :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها　　　عقود مدح فما أرضى لكم كلمى

فالأمر المتمنى فى البيتين لا يرجى حصوله لكونه مستحيل الوقوع.

ومنه قول على بن الجهم :

سقى الله ليلا ضمنا بعد فرقة　　　وأدنى فؤاداً من فؤاد معذب

فيا ليت أن الليل أطبق مظلما　　　وأن نجوم الشرق لم تتغرب

فقد ملأ لقاء الحبيب عليه نفسه ، ولم يدع فيها مجالا لوعى أو فكر ، فأخذ يدعو بالسقيا لليل الذى ضمهما بعد فرقة ، ولا معنى لسقيا الليل إلا فقدان الشاعر لوعيه وفكره . ثم أخذ يتمنى أمراً محالا لا يرجى حصوله وهو أن يظل الليل مطبقا عليهما بظلامه ، وأن تبقى النجوم فلا تغرب .. وتقول فى تمنى الشىء المحبوب الذى يمكن حصوله ولكنه غير مطموع فيه لبعد مناله : ليت لى مالا فأحج منه ، ليتنى ألقى فلانا فأنتفع بعلمه ، والبعد هنا بعد نفسى ، مرده إلى شعور النفس وإحساسها بذلك الشىء ، وقد لا يكون بعيداً بالنسبة للواقع أو العرف أو العقل ، ومن ذلك قوله تعالى : (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا : يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)[1] فقد تمنوا أن يكون لهم

---

(١) سورة القصص آية ٧٩ .

مثل تلك الكنوز التي تنوء مفاتحها بالعصبة أولى القوة وهى أمنية محببة لنفوسهم ، وليست مستحيلة ، بل هى ممكنة الوقوع ، ولكنهم لا يطمعون فيها لبعد منالها .. ومنه قول مالك بن الريب :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بجنب الغضا أزجى القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

لقد تمنى الشاعر فى البيت الأول أن يبيت ليلة بجنب الغضا ، ذلك الوادى الحبيب إلى قلبه ، وهذا غير محال ، ولكنه بعيد المنال فى نفس الشاعر الذى أحس بدنو أجله فخاطب صاحبيه :

فياصاحبى رحلى دنا الموت فانزلا
برابية إنى مقيم لياليا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعى
وردا على عينى فضل ردائيا
ولا تحسدانى بارك الله فيكما
من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
تذكرت من يبكى على فلم أجد
سوى السيف والرمح الردينى باكيا

أما تمنيه فى البيت الثانى ألا يقطع الركب عرض الغضا وأن يماشى الغضا الركاب ، فهو تمن للأمر المحال وقوعه وهذا ينبىء بمدى حب الشاعر وتعلقه بهذا الوادى .. فإذا كان الممكن يطمع فى حصوله ، صار طلبه ترجيا وعندئذ تستعمل فيه الألفاظ الدالة على الترجى كلعل وعسى .. ومن ذلك قوله تعالى : (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى) [1] ،

---

(١) سورة عبس آية ٣-٤ .

وقوله عز وجل: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾(١) وكون الممكن مرجوا حصوله ،مطموعا فيه أو بعيد الحصول لا طمع فيه ، مرده - كما أشرت - إلى نفس المتكلم وإحساسه، فمثلا إذا كنت تطلب حصول مال وتتوقعه وتطمع فى وجوده ونيله قلت مترجيا : لعل لى مالا فأحج به ، وإن كنت غير متوقع له ولا طامع لك فى نيله ، قلت متمنيا : ليت لى مالا فأحج به ..

عرفت أن الأداة الموضوعة للتمنى هى « ليت » ، وقد يتمنى بألفاظ أخرى غيرها لأغراض بلاغية .. ومن هذه الألفاظ أدوات الاستفهام مثل هل وأين ومتى ، كما فى قوله تعالى ﴿قَالُوا : رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ؟﴾(٢) ، وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ؟ .﴾(٣) . ويقول من وقع فى شدة يستبعد زوالها: متى الخلاص ؟ ، والسر البلاغى وراء التمنى بالاستفهام فى الآيتين هو أن هؤلاء لشدة دهشتهم وفرط حيرتهم طارت عقولهم فظنوا أن غير الممكن صار ممكنا ، فاستفهموا عنه ، ولذا فإن الدلالة على التمنى بطريق الاستفهام تبرز المستحيل - كما فى الآيتين - أو البعيد الحصول - كما فى المثال - فى صورة المستفهم عنه الممكن الوقوع ، وهذا ينبىء بكمال العناية به وشدة الرغبة فى وقوعه ..

وقد يتمنى بلو كما فى قوله تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ

---

(١) سورة المائدة آية ٥٣ .
(٢) سورة غافر آية ١١ .
(٣) سورة القيامة آية ٧ - ١١

اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا : لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا)(١)، وقوله تعالى : (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)(٢)، وقوله عز وجل : (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ . فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)(٣) . فلو فى هذه الآيات الكريمة تفيد التمنى بدليل نصب المضارع بأن مضمرة بعد الفاء المسبوقة بها ، والفرق بين التمنى بلو والتمنى بليت هو أن التمنى بلو يزداد المتمنى فيه بعدا واستحالة وسياق الآيات الكريمة يشى بهذا ، فقد وقع هذا التمنى بعد رؤيتهم العذاب وتيقنهم وقوعه ، وهذا مما يزيد شعورهم باليأس واستحالة الرجوع إلى الدنيا ، ويرجع ازدياد التمنى « بلو » بعـدا أو استحالة إلى طبيعة دلالتها إذ هى حرف امتناع لامتناع .. ومن التمنى بلو شعرا قول القائل :

ولى الشباب حميدة أيامه   لو كان ذلك يشترى أو يرجع

ولعلك تشعر بشدة استحالة التمنى فى البيت وهو رجوع الشباب ، وازدياد بعده عن قولك : ليت الشباب يعود ، ومرد ذلك - كما قلت - إلى كون « لو » حرف امتناع لامتناع ..(٤)

وقد يتمنى بلعل كما فى قوله تعالى : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا)(٥) ، فبلوغ أسباب السموات من الأمور المستحيلة التى

(١) سورة البقرة آية ١٦٧ .   (٢) سورة الزمر آية ٥٨ .
(٣) سورة الشعراء آية ١٠٠ - ١٠٢ .
(٤) انظر دلالات التراكيب ٢١١ وبغية الإيضاح ٢/٣٣.
(٥) سورة غافر آية ٣٦ .

لا يمكن وقوعها وهذا يقتضى استعمال أداة التمنى الأصلية : « ليت » ، ولكنه عدل عنها إلى « لعل » التي تفيد الترجى لغرض بلاغى وهو إبراز المتمنى المحال فى صورة الممكن القريب الحصول وذلك لكمال العناية به وشدة الرغبة فى وقوعه . . ومنه قول الشاعر :

أسرب القطا هل من يعير جناحه
لعلى إلى من قد هويت أطير

وكما تستعمل لعل فى مقام التمنى ، فقد تستعمل ليت فى مقام الترجى ، كما فى قول جرير :

أقول لها من ليلة ليس طولها　　كطول الليالى ليت صبحك نورا

فانبلاج الصبح وهو أمر مترقب الحصول أبرزه جرير فى صورة البعيد الحصول فعبر عنه بليت ، وذلك لإبراز الشيء المرجو القريب الوقوع فى صورة الشيء البعيد إشعارا بعزته وامتناعه ، وهذا ينبىء بمعاناة الشاعر وشعوره بامتداد الليل وطوله . . .

حروف التنديم والتحضيض : وهى : هلا وألا ولولا ولوما . . .

يرى السكاكى أن هذه الأحرف ، كأنها مأخوذة من « هل » « ولو » بقلب الهاء همزة فى « ألا » مركبتين مع « لا وما » الزائدتين ، لإفادتهما معنى التمنى ، وذلك ليتولد من التمنى الذى أفادتاه ، معنى التنديم فى الماضى ، كقولك : هلا أكرمت صاحبك . . لولا قاتلت الأعداء ، ومعنى التحضيض فى المضارع ، كقولك : ألا تكرم صاحبك ، لوما تجتهد فى عملك ، لأن تمنى ما فات يتولد منه التنديم وتمنى ما هو آت يتولد منه التحضيض ، وهذا الوجه فى تعليل دلالة تلك الأحرف على معنيى التنديم والتحضيض مبنى على افتراض أن استعمال : « هل ولو » فى التمنى سابق لاستعمال : « هلا وألا ولولا ولوما » فى التنديم والتحضيض ، لأنه يفترض أن المعنى الثانى مما تولد عن هذا الاستعمال ،

ولا وجه لإثبات ذلك الافتراض ، وبخاصة إذا لاحظنا أن « هل ولو » لم توضعا للتمنى ، فاستعمالها فيه لابد أن يكون قد جاء فى مرحلة متأخرة عن استعمالها فيما وضعتا له ، ويترتب على هذا أن يكون التنديم والتحضيض قد جاء فى الطور الثالث من استعمال الكلمتين ، على الرغم من أن التنديم والتحضيض من المعانى التى يحسها الإنسان ويحتاج للعبارة عنها فى نفس المرحلة التى يعبر فيها عن معانيه القلبية والذهنية والتى منها النفى والاستفهام وامتناع الشيء لامتناع غيره ، فإذا أضفت إلى هذا أن « هل » كانت فى الأصل بمعنى « قد » ، ثم أشربت معنى الاستفهام لطول ملازمتها الهمزة ، ازداد هذا الوجه بعداً[1] . . .

ولم يكن هذا البعد فى وجه الدلالة خافياً على السكاكى ، ولذا تراه لم يقطع به ، بل بناه على الاحتمال حيث قال : « وكأن حروف التنديم والتحضيض ، هلا وألا بقلب الهاء همزة . ولولا ولوما ، مأخوذة منهما ـ أى من هل ولو ـ مركبتين مع لا وما المزيدتين ، لتضمينهما معنى التمنى ، ليتولد منه فى الماضى التنديم نحو : هلا أكرمت زيدا ، وفى المضارع التحضيض نحو : هلا تقوم . . . »[2] ... ولذا فإنى أرجح ما قاله النحاة فى وجه دلالة هذه الأحرف ، حيث ذكروا أنها موضوعة للتنديم والتحضيض من أول الأمر . .

التعبير بالخبر فى موضع الإنشاء : يقع الخبر فى موقع الإنشاء وذلك لأغراض بلاغية يقصد إليها البلاغى .. وأهمها ما يلى :

١ ـ التفاؤل وإظهار الحرص والرغبة فى وقوع المعنى الإنشائى وتحقيقه إدخالا للسرور على المخاطب ، ويكون ذلك فى « الدعاء » بأن يقصد المتكلم

---

(١) انظر دلالات التراكيب ٢١٣ .

(٢) انظر مفتاح العلوم ص١٤٧ والإيضاح ج٢ ص٣٣ .

طلب الشيء وتكون صيغة الأمر هي الدالة عليه ، أو طلب الكف وتكون صيغة النهي هي الدالة عليه ، فيعدل عنهما إلى صيغة الإخبار بالماضي الدالة على تحقق الوقوع ، وفيه إشعار بأن الدعاء المخاطب قد حصل وتحقق ... من ذلك قولك لصاحبك : وفقك الله للتقوى والعمل الصالح وسدد خطاك ورحمك وغفر لك .. والمعنى : اللهم وفقه وسدد خطاه وارحمه ، وقولك : لاسمعت مكروها ولا رأيت شرا ، والمراد : اللهم لا تسمعه مكروها ولا تره شراً ، فعدل عن الأمر والنهي الدالين على الدعاء إلى الإخبار عنه بالماضي الدال على تحقق الوقوع تفاؤلا وإظهاراً لحرص المتكلم على حدوث ذلك للمخاطب ، وإدخالا للسرور عليه ... ومن ذلك قول الشاعر :

إن الثمانين - وبلغتها - قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

فقوله : « وبلغتها » دعاء للسامع ، إذ المراد : اللهم أطل عمره ، وبلغه هذه السن ، وقد عبر عن ذلك بالماضي إظهاراً لرغبته وحرصه على تحققه ووقوعه..

ومثله قول الآخر :

جزى الله عنا جعفراً حين أزلفت

بنا نعلنا في الواطئين فزلت

وقول الشاعر في رثاء عمر رضي الله عنه :

جزى الله خيراً من إمام وباركت

يد الله في ذاك الأديم الممزق

٣ — الاحتراز عن صورة الأمر أو النهي المشعرة بالاستعلاء تأدبا مع المخاطب حيث يقتضي المقام ذلك التأدب ، كقولك لملك : ينظر إلى أستاذي لحظة ... لا يعاقبني أستاذي . . ولو قلت : انظر بالأمر ، أو لاتعاقب بالنهي ، لكان قولك مخلا بما يقتضيه المقام من تأدب التلميذ عند مخاطبة أستاذه . .

٣ حمل المخاطب على تحقيق المطلوب وتحصيله وذلك كقول الصديق لصديقه : « تزورني غداً » وقول الأستاذ لتلاميذه : تأتونني كل صباح .. بدلا من زرني وائتوني بصيغة الأمر ، وذلك لأن التعبير بصيغة الخبر يحتمل الصدق والكذب - كما عرفت - فلو أن الصديق لم يحضر لزيارة صديقه ألصق به الكذب ونسبه إليه ، وكذا التلاميذ إذا لم يأتوا كل صباح كما أخبر أستاذهم، نسبوه إلى الكذب وألصقوه به ، والصديق حريص على أن ينزه صديقه ويبعده عن الكذب ، والتلاميذ يحرصون على أن يكون أستاذهم بمنأى عن الكذب ومنزهاً عنه، ولذا كان التعبير بالخبر في موضع الإنشاء حاملا للمخاطب على تحقيق المطلوب وتحصيله ... ومن ذلك قول النبي - صلى الله عليه وسلم « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب، فالمراد : لا تجمعوا في جزيرة العرب، بالنهى وقد جاء بصيغة الخبر حملا للمسلمين على تحقيق ذلك وتحصيله ، والجهاد في سبيل رفع راية الإسلام حتى لا نعلوها راية .. ومنه قوله تعالى « الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ »[1] فقوله : « لا ينكح.. لا ينكحها » خبر أريد به النهى ، وفي بعض القراءات بالجزم على النهى ، وعلى قراءة الرفع يكون التعبير بالخبر في موضع الإنشاء أبلغ في الزجر وآكد ؛ لأنه يبرز المنهى عنه في معرض الواقع المحقق رغبة في حدوثه وحرصا على تحقيقه وحثا على الامتثال وسرعة الإجابة ..

ومثله قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »[2]، وقوله عز وجل : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ »[3] فالمعنى

---

(١) سورة النور آية ٣ .
(٢) سورة البقرة آية ٨٣ .
(٣) سورة البقرة آية ٨٤ .

على النهى أي : لاتعبدوا إلا الله ، لا تسفكوا دماءكم ولا تخرجوا أنفسكم ، وقد عدل عنه إلى الخبر حملا للمخاطبين على تحقيقه وتحصيله وحثا لهم على سرعة الإجابة والامتثال ..

التعبير بالإنشاء فى موضع الخبر : وقـــد يقع الإنشاء فى موقع الخبر لأغراض ومقاصد يرمى إليها البلاغى .. أهمها :

١ ــ الاهتمام بالشيء ، كقوله تعالى : « قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ »(١). والمعنى : « وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد » فعدل عن الخبر إلى صيغة الأمر ، تنبيهاً إلى وجوب الاهتمام بالمأمور به والحرص على تحقيقه ..

٢ ــ الرضا بالواقع حتى كأنه مطلوب ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » فالمعنى : « تبدأ مقعده من النار » وقد عدل عنه إلى صيغة الأمر للدلالة على أنه مطلوب ، وأنه واقع يؤمر به ، وليس على الكاذب إلا الرضا وتنفيذ المطلوب وفى هذا مافيه من الوعيد والتحذير والزجر .

٣ ــ الاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق ، كما فى قوله تعالى : « قَالَ : إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ »(٢) فالمعنى : إنى أشهد الله وأشهدكم فعدل عن ذلك إلى ماعليه النظم الكريم من التعبير بصيغة الأمر : « واشهدوا » احترازاً عن مساواة شهادتهم بشهادة الله عز وجل ، وفيه أيضاً تعظيم لهود ـ عليه السلام ـ وإعلاء لشأنه وتحقير لهؤلاء الكفرة المشركين ، حيث أبرزه الامر فى صورة الآمر الذى يوجه إليهم الأمر ، وعليهم أن يخضعوا ويذعنوا وأن يستجيبوا لما يأمر به ..

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٩ . (٢) سورة هود آية ٥٤ .

تنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء : وبعد أن عرفت الأساليب الإنشائية والخبرية ، وما بينهما من فروق دقيقة، وما في اللغة العربية من طواعية لصرف الجملة عن الإنشاء إلى الخبر ، وعن الخبر إلى الإنشاء ... ينبغي لك أن تعلم أن المتكلم البليغ والأديب المقتدر هو الذي يعرف مواطن الكلام وما يقتضيه كل موطن منها ، فيورد كلامه ويصوغ عباراته ملائمة للمقام ... وتنويع الأسلوب بين الخبر والإنشاء مما يجذب السامع ويحرك فكره ويدعوه إلى المشاركة بوجدانه وأحاسيسه ، فعلى البليغ مراعاة ذلك، وأن يعرف المواطن التي تحتاج إلى حدة وانفعال وإثارة وتحريك فيورد فيها الأساليب الإنشائية من أمر ونهي واستفهام وتعجب وترج وتمن ونداء ، وأن يعرف المواطن التي تقتضي السرد والحكاية ، فيورد بها الجمل الخبرية. وأمام البليغ نماذج ثرية وأمثلة حية من الشعر العربي ... انظر إلى الشعر الجاهلي وتبين كيف كان الشاعر يتساءل ويأمر صاحبيه ويتمنى ويصف ناقته ورحلته ويتعجب مما يرى ويشاهد ، فتأتي أساليبه ملائمة للمقامات ومبنية على التنويع الذي يجذب السامع ويسترعي انتباهه .

الفصل الثالث

الفصل والوصل

الفصل والوصل بين المفردات أو بين الجمل باب دقيق المجرى لطيف المغزى ، جليل المقدار ، كثير الفوائد ، غزير الأسرار ... وقد تنبه العلماء قديما لدقة هذا الباب وجعلوه البلاغة بأسرها حيث سئل أحدهم عن البلاغة فقال : البلاغة معرفة الفصل من الوصل(1) ... وقال عبد القاهر : « واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه : إنه خفى غامض ودقيق صعب إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب ... »(2)

والوصل معناه العطف « عطف الكلام بعضه على بعض » سواء أكان هذا العطف للمفردات أم للجمل ، وسواء أكان بالواو أم بغيرها كالفاء وثم وأو .. والفصل هو ترك العطف ، هذا ماذكره السكاكى .. ولكن البلاغيين جرت عادتهم فى حديثهم عن الفصل والوصل أن يتجاوزوا عطف المفردات وعطف الجمل التى لها محل من الإعراب ، معللين ذلك بأن عطف المفردات وكذلك الجمل التى لها محل من الإعراب ، أمره هين ويسير ، إذ لا يقصد به سوى مجرد التشريك فى الحكم الإعرابى ، أما دقة الفصل والوصل فإنما تظهر فى الجمل التى لا محل لها من الإعراب ... كما تجاوز البلاغيون العطف بغير الواو قائلين : إن الواو من بين حروف العطف هى التى لا تفيد سوى مجرد الإشراك فى الحكم ومطلق الجمع ، فالعطف بها دقيق مشكل ، أما غيرها من حروف العطف فتفيد مع التشريك فى الحكم معانى أخرى ، فالفاء تفيد :

---

(1) انظر البيان والتبيين 1/88.

(2) دلائل الإعجاز ص 237 .

الترتيب والتعقيب ، وثم تفيد الترتيب والتراخي و« أو » تفيد تردد الفعل بين شيئين أو التخيير أو الإباحة ، ولذا لم يشكل العطف بتلك الأحرف..[١].

وهذا الذي ذكروه وإن كان لا يخلو من الصحة ، إلا أننا لا نعدم وجوها دقيقة وأسرارا خفية نجدها كامنة وراء العطف بغير الواو ، كما أننا لا نعدم وجوها أدق وأسرارا أخفى تكمن وراء عطف المفردات والجمل التي لها محل من الإعراب . . . ولذا فإننا سنبدأ دراستنا الفصل والوصل بالإشارة إلى هذه الدقائق وتلك الأسرار . . .

العطف بغير الواو : انظر إلى قول الله عز وجل : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »[٢] ، تجد أن الجمل قد وصلت في الآيات الكريمة بحرفي العطف « ثم » و « الفاء » ، ووراء الوصل بهذين الحرفين تكمن الدقائق واللطائف ، فقد بدأت بالخلق الأول ، خلق آدم عليه السلام من طين ، ولما أريد وصله بالخلق الثاني ، خلق التناسل ، عطف عليه بثم لما بينهما من التراخي ، ثم تحدثت الآيات عن أطوار الخلق ، فوصلت خلق العلقة بالنطفة ، بثم لما بينهما من التراخي ثم توالت الأطوار خلق المضغة فالعظام فكساء العظام لحما ، موصولة بالفاء ، حيث لم يكن هناك تراخ بينها ثم وصل تسويته إنسانا بكساء العظام لحما بحرف العطف « ثم » إشارة إلى التراخي بينهما[٣] .. هذا وعندما تتأمل ما عطف بثم تجده أدق وأبعد مما عطف بالفاء ، فقد نزل الاستبعاد عقلا أو رتبة منزلة التراخي والبعد

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٣١ والإيضاح ٢/ ٦٢ .

(٢) سورة المؤمنون آية ١٢ - ١٤ .

(٣) ارجع إلى الطراز جـ ٢ ص ٤٤ ، ٤٥ .

الحسى ، فعطف بثم ونزل القرب عقلا أو رتبة منزلة القرب الحسى ، فعطف بالفاء ..»(١) ثم جاء قوله تعالى : « فتبارك الله أحسن الخالقين » معطوفا بالفاء على تلك الجمل التى جلت أطوار الخلق فى هذا النظم المبدع لتنبه الإنسان إلى مايجب عليه من المبادرة والإسراع إلى تعظيم الله عز وجل والإشادة بحسن خلقه وعجيب صنعه ، ولهذا نطق أكثر من صحابى بختام الآيات الكريمة : « تبارك الله أحسن الخالقين » قبل أن يمليها النبى - صلى الله عليه وسلم - لكاتب الوحى ، ويبتسم النبى عليه الصلاة والسلام قائلا : « هكذا نزلت ».

وتأمل قوله تعالى : « قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ »(٢)، ولاحظ كيف جاء تقدير الإنسان موصولا بخلقه وإيجاده بالفاء: «خلقه فقدره» ، تنبيها على أن التقدير مرتب على الخلق وأنه لا تراخى بينهما . وكذا عطف إقباره على موته بالفاء أيضا : «أماته فأقبره» ، إذ لا مهلة بين الموت والإقبار ، ولما كان الزمن ممتدا بين تيسير السبيل وتقدير خلقه ، وبين التيسير والإماتة ، وبين الإقبار والنشر جاءت هذه الجمل موصولة بثم التى تفيد امتداد الزمن وإطالة المسافة : «.. فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ..» . وخذ قوله تعالى : « الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ »(٣) وتأمل كيف عطفت الهداية هنا على الخلق بالفاء « خلقنى فهو يهدين » ، بينما عطفت على الخلق والتقدير فى سورة عبس بثم : « من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره .. » ويرجع هـــذا الاختلاف إلى السياق والمقام ، فالآيات فى سورة الشعراء تتحدث عن إبراهيم - عليه السلام - والعطف بالفاء ينبىء بقوة يقينه وكمال

(١) انظر روح المعانى جـ ١٨ ص ١٥ .

(٢) سورة عبس آية ١٧ - ٢٢ . (٣) سورة الشعراء آية ٧٨ - ٨١ .

إيمانه بربه ، فقد بلغ إيمانه مبلغا جعله لا يعتد بما بين الخلق والهداية من طول الزمن وامتداد المسافة ، ولذا عطف هدايته على خلقه بالفاء : « خلقني فهو يهدين » ، أما في سورة عبس فالحديث عن الكافر « قتل الإنسان ما أكفره » ، ولهـــذا جاء العطف بثم .. وانظر في بقية الآيات تجد عطف السقي على الإطعام بالواو إذ المراد الجمع بينهما دون مراعاة لترتيب ، وقدم الإطعام على السقي مراعاة لحسن النظم وتناسق الآيات . ثم جاء عطف الشفاء على المرض « بالفاء » إشارة إلى حدوث ومجيء الشفاء عقب المرض وترتيبه عليه ؛ وتنبيها إلى عظام المنة بالعافية بعد المرض بلا تراخ ، وانظر إلى حسن الأدب حيث أسند الشفاء إلى الله تعالى دون المرض « مرضت ... يشفين » ، ثم عطف الإحياء على الإماتة بثم لما بينهما من التراخي وامتداد الزمن .

وهـــذا السياق هو الذي يحدد كيفية الوصل بين الجمل ويعين حرف العطف الذي يتحتم استخدامه دون غيره ، انظر في قوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا »[1] . ثم تأمل قوله عز وجل : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ »[2] تجد أن سياق الآية الأولى يتحدث عن الكفرة الذين مازالوا يحيون ... يعاندون ويكابرون ، ويرفضون قبول الهداية .. « وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا » فهؤلاء يعرضون عن الآيات فور تذكيرهم بها ولذا ناسب العطف بالفاء التي تفيد التعقيب : « ذكر بآيات ربه فأعرض عنها » ، أما سياق الآية الثانية فتتحدث عن المجرمين الذين انتهت حياتهم وماتوا على الكفر .. « ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ

---

(١) سورة الكهف آية ٥٧ . (٢) سورة السجدة آية ٢٢ .

الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ »(١) فهؤلاء قد استمر تذكيرهم فى الدنيا بالآيات وامتد زمانا بعد زمان ثم أعرضوا عنها إعراضا نهائيا بالموت وهذا يلائمه العطف بثم التى تفيد الامتداد والتراخى .. ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ..

وبهذا يتضح أن العطف بغير الواو يكن وراءه من الدقائق والأسرار واللطائف ما ينبغى إظهاره وتجليته ولا يمكن إغفاله والتغاضى عنه ...

عطف المفردات : يذكر بعض البلاغيين أن المفردات يعطف بعضها على بعض بالواو إذا كانت متناسبة متجانسة ، كما فى قوله تعالى : « قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »(٢) فالصلاة والنسك والمحيا والممات أسماء متناسبة ، وكذا قوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ »(٣) فالفواحش والإثم والبغى والشرك والقول على الله مالا يعلمون ، ألفاظ متجانسة متناسبة . ومثله قوله تعالى : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ »(٤) فالله والملائكة والكتب والرسل أسماء بينها تناسب وتآلف . وهذا الذى ذكره البلاغيون غير سديد ولم يسلم لهم، لأن التناسب بين الألفاظ والتلاؤم والتجانس بين الكلمات مطلوب سواء أعطفت هذه الكلمات أم لم تعطف، وقد ذكروا ذلك فى علم البديع وسموه : « مراعاة النظير » فالمتكلم ينبغى له

---

(١) سورة السجدة آية ٢٠ ، ٢١ (٢) سورة الأنعام آية ١٦٢ .

(٣) سورة الأعراف آية ٣٣ . (٤) سورة البقرة آية ٢٨٥ .

أن يراعى التناظر والتجانس والتآلف بين ألفاظه وألا يباعد فى القول ..
ولذا عاب نصيب على الكميت قوله :

أم هل ظعائن بالعلياء نافعة
وإن تكامل فيها الأنس والشنب

فقد عقد عقدة عند سماعه ، ولما سأله الكميت ماذا تحصى ؟ أجاب : خطأك، باعدت فى القول ، أين الأنس من الشنب ؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة :

لمياء فى شفتيها حوة لعس   وفى اللثات وفى أسنانها شنب

وعاب النقاد قول أبى تمام يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم :

زعمت هواك عفا الغداة كما عفا   عنها طلول باللوى ورسوم
لا والذى هو عالم أن النوى   صبر وأن أبا الحسين كريم
مازلت عن سنن الوداد ولا غدت
نفسى على إلف سواك تحوم

حيث جمع بين مرارة النوى وكرم أبى الحسين وهما متباعدان لا تجانس بينهما ، والذى أوقع أبا تمام فى هذا العيب هو محاولته التخلص من الغزل والانتقال إلى المديح ، ولكنه لم يحسن التخلص ووقع فيما وقع فيه من عدم التجانس بين مرارة الفراق وكرم الممدوح ... وقد انتصر البعض لأبى تمام فقالوا : الجامع خيالى لتقارنهما فى خيال الشاعر ، أو وهمى وهو ما بينهما من شبه التضاد ؛ لأن مرارة النوى كالضد لحلاوة الكرم ، أو التناسب ، لأن كلا منهما دواء فالصبر دواء للعليل ، والكرم دواء للفقير ، وكل هذه تكلفات باردة ، لا تبرر خطأ أبى تمام ، إذ المعتد به هو التناسب الظاهر بين الكلمات والألفاظ ... وخلاصة القول أن التناسب والتجانس والتآلف بين الألفاظ ليس مقصوراً على كونها معطوفة ، بل لابد من مراعاة النظير بين المفردات سواء أكانت معطوفة أم غير معطوفة ..

كما يذكر البلاغيون أن الصفات لا يعطف بعضها على بعض إلا إذا كانت متضادة كما فى قوله تعالى : « هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »(١) أما إذا كانت غير متضادة فإنها تذكر بلا عطف كما فى قوله عز وجل : « هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ »(٢) وانظر إلى قوله تعالى : « عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا »(٣) نجد أن الصفات قد توالت بلا عطف إلا « ثيبات وأبكاراً » فقد عطفتا لما بينهما من التضاد .

ومن ذلك قوله تعالى : « التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ »(٤) توالت الصفات بلا عطف ماعدا صفتى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد جاءت الواو بينهما لأنهما متضادان ... وعندما يرى هؤلاء البلاغيون أن الواو قد جاءت بين صفتين ليس بينهما تضاد يحاولون أن يتلمسوا وجهاً من التضاد بينهما ، كما فى قوله تعالى : « حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ »(٥) حيث عطفت فى الآية : « قابل التوب » على « غافر الذنب » وهما غير متضادين ولكن البلاغيين يتعسفون عندما يحاولون إثبات وجه من التضاد بين الصفتين فى الآية الكريمة ... فقد ذكروا أن المغفرة ترجع إلى السلب ، لأن معنى

(١) سورة الحديد الآية ٣ .
(٢) سورة الحشر الآية ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) سورة التحريم الآية ٥ .
(٤) سورة التوبة الآية ١١٢ .
(٥) سورة غافر الآية ١ ، ٣ .

«غافر» الذى لا يفعل العقوبة مع الاستحقاق ، وقبول التوبة يرجع إلى الإثبات ، لأن معناه قبول الندم والعذر وبين السلب والإثبات تضاد ... وقالوا أيضاً : إن الجمع بينهما لسر لطيف وهو إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين ، بين أن تقبل توبته فتكتب له طاعة ، وبين أن تمحى ذنوبه ، كأنه لم يذنب ... وقالوا : إن المغفرة مختصة بالعبد وقبول التوبة مختص بالله تعالى ، فالله عز وجل يغفر حيناً من تلقاء نفسه بفضله ، وحيناً يعفو عن المذنب بسبب ندمه واعتذاره وتوبته[1] ...

وما من ريب فى أن هذا تعسف ظاهر ، ونحن فى غنى عنه خاصة وأن ما قالوه من أن الصفات المتضادة يجب فيها العطف بالواو قول غير سديد ، فقد ترد الصفات متضادة وبدون عطف كما فى قوله تعالى : «إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ»[2]

وكما فى قول امرىء القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

كما ترد الصفات غير متضادة ومعطوفة ، مثل الآية المذكورة : «غافر الذنب وقابل التوب .. » ومثل قوله تعالى : «الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ»[3]، وقوله عز وجل : «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ . . الآية»[4] فالأولى والأجدر أن تهتم الدراسة البلاغية بالبحث عن الأسرار الكامنة وراء الواو وأن تكشف وتجلى سر مجيئها حين تأتى وسر تركها حين تترك ، فهذه الواو تفيد

---

(١) انظر الطراز ٢/٣٦ .
(٢) سورة الواقعة آية ١ ، ٣ .
(٣) سورة آل عمران الآية ١٦، ١٧
(٤) سورة الأحزاب الآية ٣٥

التغاير وعندما تأتى بين الصفات فإنها تفيد كمال اتصاف الموصوفين بكل صفة منها على حدة ، انظر إلى قوله تعالى : « الصابرين والصادقين والقانتين ... » تجد أن الواو دلت على كمالهم فى كل واحدة منها .[١] .. وعندما تترك الواو وتأتى الصفات متوالية بلا عطف فإنها تفيد كمال اجتماعها فى الموصوف ، نحو قوله تعالى : « التائبون العابدون الحامدون السائحون ... الآية .. » وقوله : « .. مسلمات مؤمنات قانتات ... » وتأمل فستجد أن ترك الواو أفاد أن هذه الصفات مجتمعة فى الموصوفين ، وكأنها صفة واحدة ، فذكر الواو بين الصفات يفيد أنهم كاملون فى كل صفة على حدة ، وتركها يفيد أنها مجتمعة فيهم .. »[٢]

وعلى هذا فقول امرىء القيس .

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

يفيد أن هذه الصفات قد اجتمعت فى الجواد فى وقت واحد من غير أن تكون مستقلة متغايرة ، ولو أنه قال : مكر ومفر ومقبل ومدبر ، لما صح أن يقول معاً .. وكذا القول فى الآية الكريمة « ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة » . أى : تخفض وترفع فى زمن واحد ، ويقع منها الفعلان معا ، ولو قيل فى غير القرآن خافضة ورافعة ، لم يفد ذلك .. وكذا قولنا : فلان كاتب شاعر يخالف : فلان شاعر وكاتب ، فالأول أفاد اجتماع الكتابة والشعر ، والثانى أفاد كمال اتصافه بكل صفة على حدة . .

وكما تقع الواو بين الصفات . فقد تأتى بين الصفة والموصوف وبين الحال وصاحبها سواء أكانت الصفة مفردة أم جملة وسواء أكان الحال مفرداً أم جملة . انظر إلى قوله تعالى : « وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ

---

(١) انظر الكشاف ٢٦٣/١ .
(٢) انظر الكشاف ٢٤٦/٢ .

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »(١) فالفرقان صفة للكتاب ، وقد عطفت عليه بالواو ، وأفاد هذا العطف الجمع بين كونه كتابا منزلا ، وفرقانا يفرق بين الحق والباطل ، وخذ قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ »(٢) ، فضياء وذكرا : حال متعددة للفرقان ، وقد جاءت بالواو لتفيد الجمع بين كونه فرقانا وضياء وذكرا ..(٣) .

واقرأ قوله عز وجل : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ . . »(٤) فقد عطفت الواو جملة الصفة «وثامنهم كلبهم» على الموصوف « سبعة » ، وهذا العطف أفاد ـ كما ذكر الزمخشري ـ شدة لصوق الصفة بالموصوف ، وهذا يؤذن بثبات تلك الصفة وصوابها ، ولذا قال بعد القولين الأولين « رجما بالغيب » ، وجاء عقب هذا القول : « ما يعلمهم إلا قليل . »(٥) .

وإفادة الواو لشدة لصوق الصفة بالموصوف ، يكمن وراء ما تفيده من معنى التغاير ، فكأن القائلين قد قالوا قولين ، قالوا : سبعة وقالوا : ثامنهم كلبهم ، ويتضح هذا في قولنا : جاء محمد غلامه يسعى بين يديه ، وجاء محمد وغلامه يسعى بين يديه ، فالأول إخبار عن مجيء هذا حاله ، والثاني إخبار عن المجيء وعن حاله وكأنك بعد الإخبار بالمجيء استأنفت إخبارا آخر عن حال المجيء(٦) ..

وتأمل الآيتين : « وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ . . »(٧)

---

(١) سورة البقرة الآية ٥٣ . (٢) سورة الأنبياء الآية ٤٨ .

(٣) انظر الدلائل ص ١٣٣ والكشاف ١/١٠٤ .

(٤) سورة الكهف الآية ٢٢ . (٥) انظر الكشاف ٢/٥٥٧ .

(٦) انظر الدلائل ص ١٤١ (٧) سورة الشعراء الآية ٢٠٨

« وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ .. »(١) تجد أن الكتاب مما يمكن إخفاؤه وإنكاره ، أما المنذرون فلا يتأتى إنكارهم ، ولهذا جاءت الواو بين الموصوف وجملة الصفة فى الآية الثانية لتؤكد لصوق الصفة بموصوفها ، دفعا لما قد يقع من إنكار ، وجاءت الآية الأولى بدون الواو ، لأنها لا تحتاج إلى هذا التأكيد ، وجاء التأكيد ـ كما قلنا ـ من إفادة الواو لمعنى التغاير ، وكأنك تبتدىء بها إخبارا آخر ، ففرق بين أن تذكر قرية هذه الصفة جزء منها ، وأن تذكر قرية ثم تبتدىء وصفاً لها .(٢)

وقد زعم بعض البلاغيين أن الواو لا تدخل بين الصفة والموصوف فلا تقول : جاء زيد والكريم ، على أن الكريم هو زيد ، لأنه يستحيل عطف الشىء على نفسه .. »(٣) ... ولا يخفى عليك الآن رد هذا الزعم ، كما لا يخفى عليك أن عطف الصفة على الموصوف ، ليس عطفاً للشىء على نفسه ، بل إن الصفة تفيد معنى آخر ومرجع ذلك إلى ما تفيده الواو من معنى التغاير ...

هذا وعندما ننظر فى المفردات المعطوفة ، وترتيبها فى الكلام وتقديم ما قدم منها وتأخير ما أخر ، نجد كثيراً من الدقائق واللطائف والاعتبارات البلاغية .. تأمل قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ .. »(٤) وقوله عز وجل : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً »(٥) ، تجد أن عطف الوالدين والأرحام على ضمير لفظ الجلالة يدعو إلى الاهتمام بهم ، ويلفت وينبه إلى ما ينبغى لهم من حسن الرعاية ، وجميل المعاملة ، فلا يخفى عليك ما بين المعطوف والمعطوف عليه من تباعد وتباين وفى اقترانه به تشريف وتعظيم وحث على مزيد من البر والعطف ...

(١) سورة الحجر آية ٤ .
(٢) انظر دلائل الإعجاز ص ١٣٣ .
(٣) انظر الطراز ٢/٣٤ .
(٤) سورة النساء آية ١ .
(٥) سورة الإسراء آية ٢٣ .

• وترى فى قوله تبارك وتعالى :

«وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا . . »[١] ، تقديماً للأنعام على الأناسى ؛ لأن فى حياة الأنعام حياة للأناسى . . وقد يكون فى التقديم تعظيم وتشريف للمقدم كما فى قوله تعالى : « فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا .. »[٢] وقوله عز وجل : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ . . . »[٣] .

وقد يكون التقديم للترقى من العدد القليل إلى العدد الكثير كما فى قوله تعالى : « فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ . . »[٤] وقوله : « .. جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ .. »[٥] . أو للتدلى من الكثير إلى القليل كما فى قوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ . . »[٦] ، أو مراعاة للتقدم الزمنى كقوله عز وجل : « وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ .. »[٧] إلى غير ذلك مما يكن وراء عطف المفردات من دقائق وأسرار ...

• • •

الوصل والفصل بين الجمل : ـ عرفنا فيما سبق أن الجمل نوعان : جمل لها محل من الإعراب ، وجمل لا محل لها من الإعراب ، كما عرفنا أن الجمل التى لها محل من الإعراب حكمها حكم المفرد ، لأنها تقع موقعه وتأخذ حكمه الإعرابى ، فالعطف عليها يكون بمثابة العطف على المفرد . .

(١) سورة الفرقان آية ٤٩ .
(٢) سورة النساء آية ٦٩ .
(٣) سورة التوبة آية ١٠٠ .
(٤) سورة النساء آية ٣ .
(٥) سورة فاطر آية ١ .
(٦) سورة سبأ آية ٤٦ .
(٧) سورة التوبة آية ١١١ .

يقول عبد القاهر : « الجمل المعطوف بعضها على بعض على ضربين ، أحدهما : أن يكون للمعطوف عليها موضع من الإعراب ، وإذا كانت كذلك، كان حكمها حكم المفرد ، إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد ، وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقع المفرد، كان عطف الثانية عليها جاريا مجرى عطف المفرد وكان وجه الحاجة إلى الواو ظاهرا ، والإشراك بها فى الحكم موجوداً . »(1) ... وهذا لا يعنى أن الجمل التى لها محل من الإعراب لا تخضع لما تخضع له الجمل الأخرى التى ليس لها محل من الإعراب بل هى خاضعة لما تخضع له وما يجرى على هذه من أحكام الفصل والوصل يجرى على تلك ، بالإضافة إلى أن الجمل التى لها محل من الإعراب تختص بخضوعها لهذا الحكم الظاهر وهو وقوعها موقع المفرد، فإذا أردنا إشراك الجملة الثانية للأولى فى حكمها الإعرابى عطفنا بالواو مع مراعاة المناسبة أو الجهة الجامعة التى تسوغ العطف ، وإذا لم نرد التشريك فى الحكم الإعرابى يمتنع العطف ... فتعالوا ننظر فى هذا الحكم الذى تختص به الجمل التى لها محل من الإعراب، ثم نمضى بعد ذلك إلى مواضع الفصل والوصل التى تخضع لها جميع الجمل ...

متى توصل الجمل التى لها محل من الإعراب؟ ومتى يتعين فصلها ؟ : —
توصل الجمل التى لها محل من الإعراب ، إذا قصد تشريك الثانية للأولى فى حكمها الإعرابى ، وكان بينهما مناسبة ، أى : جهة جامعة تسوغ العطف ، كما فى قوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .. »(2) فجملة « يقبض » وقعت خبراً للفظ الجلالة ، وجملة « يبسط » عطفت عليها بالواو ؛ لأن القصد إشراك الثانية للأولى فى الحكم الإعرابى وهو وقوعها خبرا للمبتدأ ، وبين الجملتين تناسب ، إذ المسند إليه فى كل منهما واحد وهو الله عز وجل ، وبين

---

(1) دلائل الإعجاز ١٤٦ .   (2) سورة البقرة آية ٢٤٥ .

المسندين « يقبض ويبسط » أضاد فهما متناسبان ، وسر بلاغة الوصل فى هذا الموطن أن الآية الكريمة تصور عظمة القادر ، وأنه بيده الأمر وإليه المرجع ، فالجمع بين القبض والبسط مما يحقق ذلك . ولو ترك العطف فقيل فى غير القرآن : والله يقبض يبسط بدون الواو ، لكان ذلك موهما أن قولنا : « يبسط » رجوع عن قولنا : يقبض وإبطال له ، ومما يبرز تلك العظمة أيضا : عطف جملة « وإليه ترجعون » على جملة « والله يقبض ويبسط » لما بينهما من التوسط بين الكمالين وعدم المانع من العطف - الآتى بيانه - وانظر إلى ما أفادته الفاء فى قوله « فيضاعفه له » من الترتيب والتعقيب ... نظم بديع ودقائق عجيبة ، المتصدق المنفق فى سبيل الله كأنه يقرض الله قرضا حسناً ، والله عز وجل يعجل له الثواب بل ويضاعفه له أضعافا كثيرة ، والذى يبادر بمضاعفة الثواب هو الله القادر .. الذى يقبض ويبسط وإليه المرجع والمآل ... حث على البذل والعطاء وتأكيد للإثابة ما بعده تأكيد ..

ومن أمثلة العطف لقصد التشريك فى الحكم الإعرابى قولنا : « فلان يعطى ويمنع ويضر وينفع ويأمر وينهى ويحسن ويسىء ويحل ويعقد ... » تجد أن الواو قد أضفت على المعنى قوة وظهورا حيث أوجبت للمسند إليه الفعلين معاً وجعلته يفعلهما جميعا ، ولو قلت : يعطى يمنع .. يضر ينفع ، من غير واو لم يجب ذلك ، بل قد يجوز أن يكون رجوعا عن الأول وإبطالا له .. وغالبا ما تستعمل مثل هذه الأساليب فى مقام المدح الذى يحتاج إلى المبالغة وإظهار قوة الفعل[1] ...

تأمل قول أبى تمام مادحا :

لهان علينا أن نقول وتفعلا
ونذكر بعض الفضل منك وتفضلا .

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ١٤٨ .

تجد أن جملة : « أن تقول » قد وقعت فاعلا للفعل « هان » ، ثم اشتركت معها بقية الجمل فى هذا الحكم فعطفت بالواو ، ولو أردت إسقاط هذه الواوات ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، لأنك تجد المعنى يمتنع عليك ، حيث أراد أبو تمام أن يجمع بين مدحه وكرم الممدوح وبين ذكره لبعض فضائل الممدوح وزيادة الممدوح فى العطاء ... فأى واو تطاوعك فى الذهاب دون أن يضيع المعنى الذى قصد إليه الشاعر . ؟

وتأمل قول الآخر :

لاتطمعوا أن تهينونا ونكرمكم
وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

تجده قـــد قصد إلى الجمع بين الإهانة والإكرام وبين كف الأذى والإيذاء ، ولا يخفى عليك مدى الترابط بين هذه الجمل ، وأنك لو حاولت نزع جملة منها لاختل المعنى وضاع غرض الشاعر ..

ومن ذلك قول المتنبي :

وللسر منى موضع لاينا له   نديم ولا يفضى إليه شراب

فقد اشتركت الجملتان : « لاينا له نديم » و « لا يفضى إليه شراب » فى وقوعهما صفة لموضع ، ومقام المبالغة فى كتمان السر يقتضى هذه المشاركة ...

ومثله قول المعرى :

وحب العيش أعبد كل حر   وعلم ساغبا أكل المرار

اشتركت الجملتان : « أعبد كل حر » و « علم ساغبا أكل المرار » فى وقوعهما خبرا للمبتدأ « حب العيش » ، ولو أسقطنا الجملة الثانية لضاع غرض المعرى ، حيث أراد : أن حب الحياة حبا شديدا والجرى وراء متاع الدنيا قد جعل الحر عبدا واضطر الإنسان إلى أن يحتمل الأذى ، وهـــذا المعنى لايتحقق إلا بالجملتين معاً ...

وخذ قوله تعالى : « وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ . . »(١) تجد الجملتين : « لا يستطيعون نصركم » و « لا أنفسهم ينصرون » ، قد وقعتا خبراً للمبتدأ ، والجمع بينهما يحقق ما تهدف إليه الآية الكريمة من تحقير هذه المعبودات ، وهذا لا يتم إلا بالجملتين معاً كما لا يخفى . . . إلى غير ذلك من الشواهد والأمثلة التي يكون هدف المتكلم من ورائها اشتراك الجملتين في الحكم الإعرابي . . كقولك : علي يقول ويكتب . . . ألم تعلم أني أحترمك وأقـــدرك . . . إني أحسنت وأسات . . يكفيك ما قلت وسمعت . . أيحسن أن تنهى عن شيء وتأتي مثله . . ولا يخفى عليك وجه المناسبة بين الجملتين في كل ما مر من شواهد وأمثلة ، فإذا انعدمت المناسبة بين الجملتين امتنع اقترانهما ، فلا تقول : هو يكتب الشعر ويأكل السمك ، حيث لا مناسبة بين كتابة الشعر وأكل السمك . . . ولهذا عيب قول أبي تمام :

لا والذي هو عالم أن النوى   صبر وأن أبا الحسين كريم

سواء أجعل من عطف المفرد على المفرد أي : عطف كرم أبي الحسين على مرارة النوى أم من عطف الجمل أي : عطف جملة : « أن أبا الحسين كريم » على جملة : « أن النوى صبر » ووقوعهما مفعولا به لقوله « عالم » . . وقد مر بنا البيت في عطف المفردات ووقفنا على دفاع من حاول الدفاع عن أبي تمام وأن يلتمس وجها للمناسبة بين كرم الممدوح ومرارة الفراق . . .

وأذكرك هنا بما قلته هناك من أن المناسبة والتلاؤم والتآلف مطلوب بين المفردات وبين الجمل سواء أعطفت أم اقترنت بدون عطف ، فكما لا يجوز أن تقول : هو يكتب الشعر ويأكل السمك ، فإنه يمتنع أيضا قولك :

---

(١) سورة الأعراف آية ١٩٧ .

هو يكتب الشعر يأكل السمك ، بدون واو وكذا يمتنع الجمع بين مرارة الفراق وكرم الممدوح بلا عطف ... فلا وجه إذاً لما صنعه البلاغيون من قصرهم المناسبة على المفردات والجمل المعطوفة ، لأن المناسبة بين المفردات أو الجمل مطلوبة عند اقترانها بالعطف أو بدون العطف .

هذا وقول البلاغيين: « إن قصدت التشريك فى الحكم الإعرابى عطفت »(١) معناه : جواز العطف وأنه هو الغالب والأكثر ولا يفهم منه وجوب العطف ، لأن مرادهم أنك إذا لم تقصد التشريك فى الإعراب يمتنع العطف حتى لا يتوهم خلاف المراد ، ومما يرجح هذا الزعم قوله تعالى : « الرَّحْمَٰنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . . »(٢) حيث اشتركت الجمل الثلاث فى وقوعها خبراً للمبتدأ ، وقد جاءت مفصولة كما ترى ... ومن ذلك قولنا : فلان أغناك بعد فقر . أعزك بعد ذل . كثرك بعد قلة . فعل بك ما لم يفعله أحد بأحد ، فماذا تنكر من إحسانه . . ؟

ومنه قول أبى هلال :

وجه تشرب ماء النعيم فلو عصر الحسن منه انعصر
يمر فأمنحه ناظرى فينثر وردا عليه الخفر

ومجىء هذه الجمل المشتركة فى الحكم الإعرابى منقطعة يشعر بأن كل واحدة منها تنهض بالغرض وحدها من غير أن ينضم إليها غيرها(٣) ...

— وكما قلت — فإن الغالب والأكثر أن تجىء الجمل التى قصد تشريكها فى الحكم الإعرابى معطوفة ، على نحو ما مر بنا من شواهد ، بل أحيانا نجد أن هذا العطف واجب قد تعين وأن تركه يوهم خلاف المراد ـ كما رأينا فى قوله تعالى : « والله يقبض ويبسط » وقولهم « فلان يعطى ويمنع ويحل ويعقد » . .

(١) انظر الإيضاح ٢/٦٣ . (٢) سورة الرحمن آية ١ — ٤ .
(٣) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٣٠٤ .

وقول الشاعر :

لاتطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

فترك العطف فى مثل هذه الشواهد يوهم إبطال الجملة الأولى والرجوع عنها ، ومن ثم وجب وصلها حتى لايتوهم خلاف المراد . .

فإذا لم يقصد تشريك الجملة الثانية للأولى فى الحكم الإعرابى تعين فصلهما، لأن الوصل عندئذ يوهم خلاف المراد ، تأمل قوله تعالى : « وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . . »[1] ، نجد أن جملة : « الله يستهزىء بهم » ، قد فصلت عن جملة : « إنا معكم » ، حيث لم يقصد التشريك بينهما فى الحكم الإعرابى ، لجملة : « إنا معكم » مقول القول ، وجملة « الله يستهزىء بهم » ، إخبار من الله عز وجل ، ولو وصلت بالأولى لأدى هذا الوصل إلى توهم أنها من مقول المنافقين . فدفعاً لهذا التوهم تعين الفصل بينهما . . . أما فصل : « إنا معكم » عن « إنما نحن مستهزءون » . فالكمال الاتصال الآتى بيانه ، وكذا لايجوز عطف : « الله يستهزىء بهم » على جواب الشرط : « قالوا » ، لأن استهزاء الله بهم غير مقيد بوقت خلوهم إلى شياطينهم . . . ولاحظ الوصل بين جملتى : « يستهزىء بهم » و « يمدهم فى طغيانهم » لوقوعهما خبرا للفظ الجلالة ، فالعطف لقصد التشريك فى الحكم . . .

ومن ذلك قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ . . »[2] لجملة : « ألا إنهم هم المفسدون » لم يقصد تشريكها فى الحكم الإعرابى لجملة : « إنما نحن مصلحون » ، لأنها ليست من مقولهم بل هى من كلام

---

(١) سورة البقرة آية ١٤ ، ١٥ . (٢) سورة البقرة آية ١١ ، ١٢ .

رب العزة، إخبار منه تعالى، ولذا وجب الفصل بينهما حتى لا يتوهم غير المراد . .

ومثله قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لاَّ يَعْلَمُونَ »(١) فقد فصل : « ألا إنهم هم السفهاء » عن : « أنؤمن كما آمن السفهاء » حتى لا يتوهم أنها من كلام المنافقين : إذ هي من كلام رب العزة ، إخبار منه تعالى ، والوصل يوهم أنها من مقول المنافقين ، وهو ما لا يخفى فساده . . . ولاحظ فى الآيتين الوصل بين جملتى : « إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » وبين جملتى : « إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » ، والوصل بينهما للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع من العطف ـ كما سنرى فى مواضع الوصل

هذا وقصد التشريك فى الحكم الإعرابى أو عدم قصده وإن كان ظاهراً بيناً فى كثير من التراكيب ، إلا أنه قد يدق ويلطف بحيث يحتاج إلى مزيد من التأمل والنظر .. انظر فى قوله تعالى : « فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ : رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . . »(٢) فقد يقول صاحب النظرة العاجلة إن الجمل : « رب إنى وضعتها أنثى . . . وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها » من مقول مريم ، أما جملة : « والله أعلم بما وضعت » ، فمن كلام الله تعالى وقد جاءت موصولة بمقولات مريم ، ولكن عندما يتأنى هذا العاجل ويتأمل يتضح له أن هـــذه الجملة : « والله أعلم بما وضعت » جملة اعتراضية وليست معطوفة على مقولات مريم ، وهنالك قراءة بضم تاء : « وضعت » وعلى هذه القراءة تكون الجملة من

(١) سورة البقرة آية ١٣ . (٢) سورة آل عمران آية ٣٦ .

مقولات مريم ، ويكون فى التركيب التفات من الخطاب فى «رب» إلى الغيبة فى : «والله» ثم التفات ثان إلى الخطاب فى : «وإنى أعيذها بك ....» ووراء هذا الالتفات سر بلاغى دقيق وهو الإشارة إلى بعد المنزلة وعلو المكانة وكمال علمه تعالى ثم إلى قربه من عباده فهو أقرب إليهم من حبل الوريد ، ولذا عندما دعت مريم خاطبت: «رب إنى ... وإنى أعيذها بك وذريتها..» وعندما أخبرت عن علمه ، التفت إلى الغيبة : «والله أعلم بما وضعت» ففى هذا الالتفات إنباء ببعد المنزلة وعلو المكانة وكمال علم الله تبارك وتعالى ...

وخلاصة القول أن الجمل التى لها محل من الإعراب إذا قصد إشراكها فى الحكم الإعرابى وصلت ، وقد ترد نادرا بلا وصل ... وإذا لم يقصد التشريك وجب فصلها ، لأن الوصل عندئذ يوهم خلاف المراد ... وهذا الحكم يختص بما هو واضح بالجمل التى لها محل من الإعراب، ثم هى تخضع لأحكام فصل ووصل الجمل التى ليس لها محل من الإعراب ، والتى سنتحدث عنها الآن ...

<u>مواضع الفصل</u> : ذكر البلاغيون أن الفصل بين الجمل ينحصر فى خمسة مواضع هى :

١ - كمال الاتصال : وهو أن تتفق الجملتان فى الإنشائية أو الخبرية لفظا ومعنى أو معنى فقط ، ويكون بينهما من الاتصال والاتحاد والتلاحم ما يمنع العطف بالواو ، لأن العطف وصل خارجى ، وهذه الجمل قد صار ما بينها من التلاحم والاتصال والترابط أقوى وأشد من الربط الخارجى ، ولذلك ينبغى أن نقول : ترك العطف بين هذه الجمل لقوة اتصالها وشدة ترابطها ، ولا يقال : فصل بينها ، وترجع قوة اتصال تلك الجمل وشدة ترابطها إلى أمور ثلاثة :

الأول : أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى تأكيدا لفظيا أو معنويا

انظر إلى قوله تعالى : « فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا »[١] ، تجد أن الجملة الثانية : « أمهلهم رويدا » ، توافق الجملة الأولى فى اللفظ والمعنى وأنها توكيد لفظى لها ، ولذا صارت الصلة قوية بين الجملتين فلا تحتاج إلى ربط بالواو ؛ لأن التوكيد والمؤكد كالشىء الواحد ، ومن ثم ترك العطف لعدم صحة عطف الشىء على نفسه ..

وتأمل قوله تعالى : « ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ »[٢] تجد أن الجملة الأولى : « ذلك الكتاب » أفادت : أن القرآن الكريم هو الكتاب الكامل الذى بلغ الغاية القصوى فى كمال الهداية وترجع هذه الإفادة إلى تعريف الطرفين : تعريف المسند إليه باسم الإشارة الدال على البعيد « ذلك » إشارة إلى بعد المنزلة وعلو المكانة ، وتعريف المسند بالألف واللام « الكتاب » ... وجملة « لاريب فيه » تفيد نفى الريب عنه وأنه لا يتطرق إليه شك ، وهذا تقرير وتأكيد لمعنى الجملة الأولى ، إذ لزم من بلوغ القرآن الكريم درجة الكمال ألا يكون محلا للريب والشك ، فجاءت جملة « لا ريب فيه » مقررة لهذا المعنى ، ومؤكدة له .. وجملة « هدى للمتقين » تفيد بلوغ القرآن فى الهداية مبلغا لايدرك كنهه ، حتى كأنه هداية محضة ، وهذا مأخوذ من تنكير « هدى » الذى يدل على التعظيم ، ومن أنه لم يقل « هاد » بل « هدى » ، وهدى خبر لمبتدأ محذوف أى هو هدى ، فهو الهداية نفسها . ولايخفى عليك تأكيد هذه الجملة لمعنى الجملة الأولى : « ذلك الكتاب » ... ولذا ترك العطف بين هذه الجمل لأن بينها اتصال قوى فهى لا تحتاج إلى ربط بالواو ..

وخذ قوله تعالى : « وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا

---

(١) سورة الطارق آية ١٧ . (٢) سورة البقرة آية ٢

نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ »(١) ، فجملة « إنما نحن مستهزءون » مؤكدة لجملة « إنا معكم » ، لأنهم ما داموا مستهزئين بالإسلام وأهله ، فهم مستمرون فى معية شياطينهم ... ولاحظ أن الجملتين قد وقعتا مقولا للقول وهذا يؤكد ماقلناه لك من أن الجمل التى لها محل من الإعراب تخضع لمواضع الفصل والوصل التى تخضع لها الجمل التى ليس لها محل ... وتأمل قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا . . »(٢) ، تجد أن جملة : « لا يؤمنون » مؤكدة لجملة : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » ، لأن معنى الثانية : يستوى عندهم الإنذار وعدمه ، وجملة : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ... ، تأكيد ثان أبلغ من التوكيد الأول لأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر ، كان فى غاية الجهل وكان مطبوعا على قلبه لا محالة ، ولذا ترك العاطف بين هذه الجمل الثلاث لما بينها من كمال الاتصال .. كما تجد أن جملة : « يخادعون الله والذين آمنوا » مؤكدة لجملة « آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » . لأن من يضمر خلاف مايظهر فإنه مخادع .. وانظر فى قوله تعالى : « وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا »(٣) تجد أن جملة « كأن فى أذنيه وقرا » مؤكدة لجملة : « كأن لم يسمعها » ، لأن معنى « كأن لم يسمعها » : أنه لم يسمعها مصادفة أو قصدا لعدم سماعها ، ومعنى الثانية : أنه لم يسمعها لفساد سمعه ، فلما كانت الثانية مقررة ومؤكدة للأولى ترك العطف لما بينهما من كمال الاتصال ...

---

(١) سورة البقرة آية ١٤ . (٢) سورة البقرة الآيات ٦ – ٩ .

(٣) سورة لقمان آية ٧ .

هذا ـ وكما ذكرت لك ـ أن الجملة الثانية المؤكدة للأولى ، إما أن تكون بمثابة التوكيد اللفظي ، وهو ما يكون مضمون الجملة الثانية فيه مؤكدا لمضمون الجملة الأولى لاتفاق مفهوميهما كما رأينا في الآية الكريمة : « فمهل الكافرين أمهلهم رويداً » . وكما في الآية الكريمة : « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » لجملة « هدى للمتقين » يتفق مفهومها مع جملة : « ذلك الكتاب » . لأن الكمال فيهما كمال في الهداية ـ كما رأينا ـ ، وإما أن تكون الثانية منزلة من الأولى منزلة التوكيد المعنوي وهو أن يختلف مفهوم الجملتين ، ويكون معنى الثانية مقررا لمعنى الأولى على نحو ما رأينا في الشواهد المذكورة ، وهذا يعني أن الجملة الثانية تتضمن معنى جديدا ، ولكنه يؤكد معنى الأولى . . . تأمل الآية : « كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا » ، تجد أن الجملة الثانية تحمل معنى جديداً يخالف معنى الأولى ، ولكنه يؤكده ويقرره . . وتأمل الآية : « ذلك الكتاب لاريب فيه » تجد أن جملة : « لا ريب فيه » تحمل معنى جديدا وهو نفي الريب عن القرآن ، وهذا المعنى يؤكد ويقرر معنى الجملة الأولى : « ذلك الكتاب » . وانظر في قوله تعالى : « اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ .. »(١) وتأمل شدة التلاحم وقوة الاتصال بين الجمل في هذا القول الكريم ، ثم لاحظ أن كل جملة تحمل معنى جديدا يغاير معنى الأخرى ، ولكنها تصب جميعا في جهة واحدة ، وتهدف إلى غاية واحدة ، ألا وهي توكيد الوحدانية . . . (٢) .

ومن أقوالهم في هذا الصدد قول المتنبي :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي   إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٥ .   (٢) ارجع إلى دلالات التراكيب ٣١٥ .

فالشطر الثانى لم يعطف على الشطر الأول ، لأنهما قد اتحـــدا فى المعنى واللفظ ، فلا حاجة إلى وصلهما بالواو لقوة الرابطة وشدة الاتصال بينهما .. وقول الأحوص :

إذا رمت عنها سلوة قال شافع   من الحب ميعاد السلو المقابر
ستبقى لها فى مضمر القلب والحشا
سريرة حب يوم تبلى السرائر

فجملة : « ستبقى لها .. » مؤكدة ومقررة لجملة : « ميعاد السلو المقابر » ولذا ترك العاطف ، لأن شدة الترابط وكمال الاتصال بينهما لا يحوجان إليه..

الثانى : أن تكون الجملة الثانية منزلة من الأولى منزلة بدل الكل أو البعض أو بدل الاشتمال ، من ذلك قوله تعالى : « وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ »(١) فصلت الجملة الثانية : « أمدكم بأنعام ... » عن الأولى : « أمدكم بما تعلمون » ، لأن الثانيه بمثابة بدل البعض من الأولى ، حيث إن النعم الأربع المذكورة بعض من النعم التى يعلمونها، فبين الجملتين ترابط قوى وكمال اتصال لا تحتاج معه إلى ربط بالواو .. ومثله قوله تعالى: « يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ »(٢). فقوله : « يفصل الآيات » بدل بعض من قوله : « يدبر الأمر » ، لأن تدبير الامر يشمل تفصيل الآيات وغيره .. وخذ قوله تعالى : « بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ . قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ »(٣)، تجد أن الجملة الثانية بمثابة بدل الكل من الجملة الأولى .. وقوله

---

(١) سورة الشعراء آية ١٣٢ – ١٣٤ .   (٢) سورة الرعد آية ٢ .
(٣) سورة المؤمنون آية ٨١، ٨٢ .

عز وجل : « قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ »(١) ، فصلت الجملة الثانية « اتبعوا من لا يسألكم أجرا » من الأولى : « اتبعوا المرسلين » لأن الثانية بمنزلة بدل الاشتمال من الأولى ، إذ المراد من الأولى حمل المخاطبين على اتباع الرسل ، والجملة الثانية أوفى بهذا ، لأن معناها : لا تخسرون شيئا من دنياكم وتربحون صحة دينكم ، فيكون لكم خير الدنيا وخير الآخرة .

ولا يخفى عليك أن الجملة الثانية التي هي بمثابة البدل اوفى بتأدية المعنى من الأولى فقوله : « أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون » ، أوفى بتأدية المعنى المراد من قوله : « أمدكم بما تعلمون » حيث دلت على المعنى بالتفصيل من غير إحالة إلى علمهم وهم المعاندون . . . وانظر في قول القائل :

أقول له ارحل لا تقيمن عندنا وإلا فكن فى السر والجهر مسلما

تجد أن قوله : « لا تقيمن » بدل اشتمال من قوله « ارحل » ، وقوله « لا تقيمن » أوفى بتأدية المراد ، إذ المقصود : إظهار شدة الكراهة لإقامته بسبب خلاف سره العلن ، وقوله : « لا تقيمن » يحقق ذلك ، لأنك إذا قلت : لا تقم عندى ، لم تقصد كفه عن الإقامة فحسب ، وإنما تقصد إظهار الكراهة لإقامته .

الثالث : أن تكون الجملة الثانية بيانا للجملة الأولى ، كما في قوله تبارك وتعالى : « فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى »(٢) ففي الجملة الأولى : خفاء وإبهام ، وفي الثانية بيان وإيضاح له ، والبيان والمبين كالشيء الواحد فلا يعطف أحدهما على الآخر لما بينهما من قوة الترابط وكمال الاتصال . . . وتكمن بلاغة هذه الصورة في

---

(١) سورة يس آية ٢١،٢ (٢) سورة طه آية ١٢٠.

أن للبيان بعد الإبهام وقعا فى النفس وأثراً حسنا ، فالشىء إذا أبهم تطلعت إليه النفس واشتاقت لبيانه ، فإذا ما جاء البيان صادف نفسا يقظة متطلعة ، فيتمكن فيها فضل تمكن ...

ومن شواهده كذلك قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ؟ »[١] فجملة الاستفهام بيان لقوله : « اذكروا نعمة الله عليكم » ... وقوله عز وجل : « وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا : مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ »[٢] فجملة : « قالوا : ما أغنى عنكم » ، بيان لجملة . « نادى أصحاب الأعراف » ... وانظر فى قول لبيد :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب
يتأكلون مغالة وخيانة ويعاب قائلهم وإن لم يشغب

تجد أن قوله : « يتأكلون مغالة وخيانة » بيان لقوله : « بقيت فى خلف كجلد الأجرب » ...

وخذ قوله تعالى : « وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. »[٣] ، تجد أن جملة : « يذبحون أبناءكم » والجملة المعطوفة عليها : « ويستحيون نساءكم » بيان وإيضاح لجملة : « يسومونكم سوء العذاب » ولذا لم يعطفا عليها بالواو لما بينها من شدة ترابط وقوة تلاحم وكمال اتصال ...

ثم انظر فى قوله عز وجل : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ

(١) سورة فاطر آية ٣ .
(٢) سورة الأعراف آية ٤٨ .
(٣) سورة البقرة آية ٤٩ .

عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ »[1] ،

نجد أن الواو فى هذه الآية من سورة إبراهيم قد وصلت جملتى : « يسومونكم سوء العذاب » ، « ويذبحون أبناءكم » ، وذلك لأن المقام مقام تذكير بنعم الله تعالى ... « اذكروا نعمة الله عليكم ... » ، وهذا يقتضى تعداد النعم ، لجعل الإنجاء من سوء العذاب نعمة ، وإنجاء الأبناء من التذبيح نعمة أخرى ، وكأن التذبيح جنس آخر لأنه أرفى على جنس العذاب وزاد عليه ، ثم جاء إنجاء النساء من الاستحياء نعمة ثالثة ، أما فى سورة البقرة فليس المقام مقام تذكير بالنعم ، بل هو سرد للقصة وعرض لها وهذا قد اقتضى أن تكون الجملة الثانية وما عطف عليها : « يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » بيانا وتفسيرا للجملة الأولى : « يسومونكم سوء العذاب » ، وليستا جنسين آخرين مغايرين لسوء العذاب ...

يقول الزمخشرى : « فإن قلت : فى سورة البقرة « يذبحون » وفى الأعراف : « يقتلون » وههنا : « ويذبحون » مع الواو ، فما الفرق ؟ قلت : الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيرا للعذاب وبيانا له ، وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر .. »[2] .

وهذا هو شأن الواو عندما تأتى بين الجمل التى بينها كمال اتصال وقوة ترابط ، لأن ما فيها من معنى التغاير الذى لا يبرحها ينعكس على هذه الجمل فيوهم أنها معان متمايزة ومختلفة ، ووراء ذلك تكمن الأسرار والدقائق اللطيفة.

انظر إلى قوله تعالى : « قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »[3] ، ثم إلى قوله عز وجل

---

(١) سورة إبراهيم آية ٦ . (٢) الكشاف ٢/٣٦٨ .

(٣) سورة الشعراء آية ١٥٢، ١٥٣ .

فى نفس السورة عن قوم شعيب : « قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »(١) ، تجد أن الواو قد ذكرت بين جملتى : « إنما أنت من المسحرين » ، « ما أنت إلا بشر مثلنا » ، فى مقالة أصحاب الأيكة لشعيب ، وتركت فى مقالة ثمود لصالح ، ويعلل الزمخشرى ذلك بقوله : « فإن قلت : هل اختلف المعنى بإدخال الواو ههنا وتركها فى قصة ثمود ؟ ، قلت : إذا أدخلت فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم : التسحير والبشرية ، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً ولا يجوز أن يكون بشرا ، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحرا ثم قرر بكونه بشرا مثلهم .. »(٢) ... وكأن أصحاب الأيكة أرادوا أن يعددوا فى مقالتهم الأسباب المنافية للرسالة ، ولذا أضافوا : « وإن نظنك لمن الكاذبين » ، فصارت الأسباب ثلاثة : كونه مسحرا وكونه بشرا وكونه من الكاذبين ، أما ثمود فكأنهم لم يقصدوا تعدادا لهذه الأسباب ولذلك ذكروا سببا واحدا وهو كونه مسحرا ثم قرروه بكونه بشرا . . وخــذ قوله تعالى : « وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ »(٣) .. وقوله عز وجل : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا »(٤) وتأمل تجد أن جملة : « ونجيناهم من عذاب غيظ » ، مؤكدة ومقررة للجملة قبلها : « نجينا هودا ... » ، وكذا جملة : « وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » مؤكدة لقوله : « أخذنا من النبيين ميثاقهم ... » ، ابين

---

(١) سورة الشعراء آية ١٨٥ – ١٨٧ .   (٢) الكشاف ٣/١٢٧ .

(٣) سورة هود آية ٥٨ .   (٤) سورة الأحزاب آية ٧ .

الجملتين كمال اتصال، وعلى الرغم من ذلك لم تترك الواو، بل جيء بها لغرض لطيف وسر دقيق، وهو التنويه بشأن الميثاق، والتفخيم والتهويل من شأن العذاب، ولذا وصف كلا منهما بالغلظ، فالعطف بالواو مع الوصف بالغلظ يوهم أن الميثاق المأخوذ من النبيين صار كأنه ميثاق آخر مغاير للأول، وأن العذاب الذى نجى منه هود ومن معه صار كأنه عذاب آخر غير الأول وفى هذا ما ينبىء بعظم الميثاق ويومىء إلى هول العذاب وفظاعته .. وانظر فى قول الشاعر :

أبى إن أملك فإنى قد بنيت لكم بنية
وجعلتكم أبناء سادات زنادكم ورية

تجد أن جملة : « جعلتكم أبناء سادات » بيان لجملة : « بنيت لكم بنية » وقد وصلهما الشاعر بالواو التى تقتضى المغايرة، وذلك لتميز المعنى الذى دخلت عليه الواو فى باب الشرف والسيادة، وكأنه يريد أن يجعله فوق ماذكره فى البيت الأول ومتميزا عنه ...

ثم تأمل الآيات الكريمة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .. »(١) .. « فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ... »(٢) .. « يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ .. »(٣) .. « أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »(٤) .. « أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(٥) فلا يخفى عليك

---

(١) سورة الحشر آية ١٨ . (٢) سورة البقرة آية ١٩٨ .
(٣) سورة آل عمران آية ٤٢ . (٤) سورة الرعد آية ٥ .
(٥) سورة البقرة آية ٥ .

بمجيء الواو في هذه الآيات بين جمل بينها قوة ترابط وشدة تلاحم وكمال اتصال ، وأن هذا المجيء ينبيء بمعان دقيقة وأسرار لطيفة ، فتكرار الأمر بالتقوى ، وعطف أحدهما على الآخر يؤذن بأن الأمر الثاني غير الأول ، ووراء ذلك إعلاء لشأن التقوى وحث عليها . وكذا وصل الأمرين بالذكر « فاذكروا الله ... واذكروه .. » ، إعلاء لشأن الذكر وحض عليه ، وكأن الأمر الثاني غير الأول .. وفي عطف الاصطفاء على الاصطفاء : « إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك ... » إيهام بأنهما متغايران وكأن الله اصطفاها أولا ثم رجع فاصطفاها ثانيا ، وفي هذا مزيد تكريم ، ومثله عطف الفلاح على الهدى .. « أولئك على هدى ... وأولئك هم المفلحون » ، وفي آية الرعد أبرزت الواو ثلاث صور متغايرة للذين كفروا ، في كل صورة منها من البشاعة والشناعة ما يجعلها شيئا قائما برأسه ، مستقلا عن غيره[1] ..

وهكذا يتضح لنا أن مجيء الواو بين الجمل التي قد اشتد ترابطها وقوي تلاحمها وكمل اتصالها وراءه من الأسرار واللطائف مالا يخفى على المتأمل الواعي والناظر الدقيق ...

* * *

٣ – كمال الانقطاع بلا إيهام : وهو أن يكون بين الجملتين تباين تام وانقطاع كامل ويرجع ذلك إلى اختلافهما إنشاء وخبرا لفظا ومعنى ، أو معنى فقط ، أو إلى فقدان المناسبة بينهما ...

ويجب أن تعلم أن البلاغيين لا يجوزون بهذا تفكك الكلام وتنافر جمله وعدم ارتباط أجزائه وتباعد معانيه بحيث لا يضمه سياق ، ولا يجمعه قران ، هم لا يقصدون بكمال الانقطاع جواز الجمع بين الجمل المتشاردة ، لأن هذه الجمل لا يضمها سياق واحد ، ولا يجمعها قران واحد سواء أعطفت

---

(١) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٣٢٢ وما بعدها ..

أم لم تعطف، وإنما يريدون به فقدان المناسبة الخاصة التى تسوغ العطف، وتجوز الوصل... وسيتضح لك هذا من خلال النصوص والشواهد...

ذكر البلاغيون أن كمال الانقطاع يتحقق فى ثلاث صور:

الصورة الأولى: أن تختلف الجملتان خبرا وإنشاء، لفظا ومعنى كما فى قوله تعالى: «وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ، ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ.»(١) فالجملة الأولى: «لا تستوى الحسنة ولا السيئة» خبرية لفظا ومعنى، والجملة الثانية: «ادفع بالتى هى أحسن» إنشائية لفظا ومعنى، والفصل بينهما لا يوهم خلاف المقصود، ولذا وجب الفصل بينهما.. ونظير ذلك قوله تعالى: «وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»(٢)، وقوله عز وجل: «بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ»(٣)، وقوله جل وعلا: «وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»(٤)، فقد فصل بين الجمل فى هذه الآيات الكريمة لاختلافها إنشاء وخبرا لفظا ومعنى، ولأن الفصل بينها لا يوهم خلاف المقصود.. وانظر فى قوله تعالى: «وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ»(٥)، وقوله عز وجل: «وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ»(٦)، وقوله تعالى: «وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...»(٧).

---

(١) سورة فصلت آية ٣٤.
(٢) سورة الحجرات آية ٩.
(٣) سورة الأنعام آية ١٠١.
(٤) سورة الأنعام آية ٩٩.
(٥) سورة الأنعام آية ١٥١.
(٦) سورة التوبة آية ١٠٣.
(٧) سورة التوبة آية ٨٤.

تجد أن الجمل الخبرية : « نحن نرزقكم .. إن صلاتك سكن .. إنهم كفروا بالله .. » قد فصلت عن الجمل الإنشائية قبلها ، وهذا الفصل إما أن يكون سببه كمال الانقطاع حيث اختلفت الجملتان خبرا وإنشاء لفظا ومعنى ، وإما أن يكون سببه شبه كمال الاتصال الآتى بيانه حيث وقعت الجملة الثانية جوابا لسؤال أثارته الأولى ..

ومن ذلك قول الشاعر :

وقال رائدهم أرسوا نزاولها ... فكل حتف امرىء يجرى بمقدار

فقد فصل جملة : « نزاولها » عن جملة : « أرسوا » لكمال الانقطاع أو لشبه كمال الاتصال ، ومثله قولك : لا تدن من الأسد يأكلك ، برفع « يأكل » ..

هذا ونرى كثيرا من الجمل التى اختلفت إنشاء وخبرا لفظا ومعنى قد جاءت موصولة بالواو ، انظر إلى قوله تعالى : « وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ »(١) ، وقوله عز وجل : « اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى . وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى »(٢) ، وقوله عز قائلا : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ... »(٣) ، وقوله عز من قائل : « وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ... »(٤) ، تجد أن الواو قد جاءت بين الجمل المختلفة إنشاء وخبرا لفظا ومعنى .. ومن

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢١ .
(٢) سورة طه آية ٨ ، ٩
(٣) سورة البقرة آية ٢٤ ، ٢٥ .
(٤) سورة ص آية ٢٠ ، ٢١ .

ذلك المثال المشهور : لا تأكل السمك وتشرب اللبن برفع « تشرب» وقولنا : باسم الله وصل اللهم على نبينا محمد ، إلى غير ذلك .. وهذه الواو قد ذهب النحاة فى توجيهها إلى أنهـــا « واو الاستئناف » وليست عاطفة للخبر على الإنشاء ، حيث يذكر ابن هشام أن الواو فى قوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ »[1] ، وفى قولهم : « لا تأكل السمك وتشرب اللبن » وفى قولك : « دعنى ولا أعود » : للاستئناف ، وليست للعطف إذ لو كانت للعطف لزم عطف الخبر على الأمر أو النهى ...[2]

وذهب البلاغيون إلى أنها لعطف القصة على القصة أى لعطف ، مضمون كلام على مضمون كلام آخـــر ... يقول الزمخشرى فى توجيه العطف فى قوله تعالى : « أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا » : « فإن قلت علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهى يصح عطفه عليه ؟ قلت : ليس الذى اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهى يعطف عليه ، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين ، فهى معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما تقول : زيد يعاقب بالقيد والإرهاق ، وبشر عمرا بالعفو والإطلاق»[3] وهذا هو معنى الاستئناف الذى ذكره النحاة ، فهو عطف لقصة على قصة ، أو بمعنى آخر : عطف مضمون كلام على مضمون كلام ، أو عطف جمل مسوقة لغرض على جمل مسوقة لغرض آخر ، سواء أجاءت هذه الواو بين خبر وإنشاء ، كما فى الشواهد المذكورة ، أم بين خبرين ، كقوله تعالى : « ... ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى »[4] ، وقوله عز وجل :

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢ .
(٢) انظر المغنى ٢/٣٣ .
(٣) الكشاف ١/٢٥٣ .
(٤) سورة الحج آية ٥ .

« مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ »(١)

وكما فى قول الشاعر :

على الحكم المأتى يوما إذا قضى قضيته ألا يجور ويقصدُ

أمْ بين إنشاءين كقوله تعالى : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ . وَأَنْذِرْ بِهِ الذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ »(٢) وقوله عز وجل : « فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى المُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا . وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ القَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ . . . »(٣)

والفاء فى ذلك مثل الواو فى إفادة الاستئناف ، والفرق بينهما أن الواو لمطلق الجمع فهى تفيد جمع قصة إلى قصة ، أى : تضم جملا مسوقة لغرض إلى جمل مسوقة لغرض آخر ، أما الفاء فترتب قصة على قصة ، أى ترتب مضمون كلام على مضمون كلام آخر . . .(٤)

وخلاصة القول أن الواو عندما تذكر بين الخبر والإنشاء فهى إما واو الاستئناف التى تفيد عطف القصة على القصة ـ كما وضحنا ـ ، وإما أن تكون عاطفة لجملة على جملة ، ويكون فى الكلام حذف ، والذى يحدد نوع الواو أهى عاطفة أم للاستئناف ، إنما هو السياق ومقتضيات الأحوال .. انظر فى

---

(١) سورة الأعراف آية ١٨٦ .

(٢) سورة الأنعام آية ٥٠ ، ٥١ .

(٣) سورة النساء آية ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٤) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٢٤٦ وما بعدها .

قـــوله تعالى : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا »(١) تجد أن الأمر « اتخذوا » مقول لقول محذوف والتقدير : وقلنا اتخذوا، فالواو عاطفة لجملة خـــبرية على أخرى مثلها . . . ومثله قوله تعالى : « كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ »(٢) ، أى : وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق . . وخذ قوله تعالى : « قَالَ : أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا »(٣) ؛ فالأمر « اهجرنى » معطوف على محذوف والتقدير : فاحذرنى واهجرنى .. أى أن الواو وصلت الجملة الإنشائية بأخرى مثلها ..

الصورة الثانية : أن تختلف الجملتان إنشاء وخبرا معنى فقط وتتفقا لفظا ، كقولنا : مات فلان رحمه الله، وقال عمر رضى الله عنه ، فجملة : « رحمه الله » ، « رضى الله عنه » كل منهما خبرية لفظا وإنشائية معنى ، لأنهما دعائيتان ، ولذا فصل بين كل منهما وبين الجملة السابقة لاختلاف الجملتين خبرا وإنشاء معنى فقط ، ومن ذلك قول الشاعر :

ملكته حبـــلى ولكنه ألقاه من زهد على غاربى
وقال : إنى فى الهوى كاذب انتقم الله مـن الكاذب

فجملة : « انتقم الله . . . » جملة دعائية فهى خبرية لفظا إنشائية معنى ولذا فصل بينها وبين جملة : « قال إنى فى الهوى كاذب » ، ويجوز أن يكون الفصل لشبه كمال الاتصال بتقدير : قلت ، حيث تقع جملة « قلت : انتقم الله من الكاذب » جوابا لسؤال أثارته الجملة قبلها ..

هذا ويشترط للفصل ألا يوهم خلاف المراد كما فى الأمثلة المذكورة، فإن أوهم خلاف المقصود وجب الوصـــل كقولك لصديق لك : أشفى أخوك ؟ فيجيبك : لا وعافاك الله ، وجب الوصل بين جملتى الجواب ؛ لأن الفصل

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٥ ؛ . (٢) سورة الحج آية ٢٢ .
(٣) سورة مريم آية ٤٦ .

يوهم خلاف المراد ، وهو أن الصديق يدعو عليك لا لك ، وسيأتي إيضاح ذلك وبيانه . .

الصورة الثالثة : أن تتفق الجملتان خبرا أو إنشاء لفظا ومعنى ولكن يفقد الجامع بينهما ، أي لا توجد المناسبة المعينة الخاصة التي تصحح العطف ، وذلك نحو قول أبي العتاهية :

الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخافا

لقد اتفقت الجملتان في الخبرية لفظا ومعنى ، ولكن لم توجد المناسبة التي تسوغ عطف الثانية على الأولى . ولذا فصل بينهما ، ومثله قول الآخر :

إنما المرء بأصغريه كل امرىء رهن بما لديه

فلا يوجد الجامع الذي يصحح عطف الجملتين على الرغم من اتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنى ولذا فصل بينهما في البيت . . .

ويعني البلاغيون بالجامع أو التناسب بين الجملتين ، أن يكون المسند إليه في إحداهما بسبب من المسند إليه في الأخرى وكذلك المسند ، هذا ما أجمع عليه البلاغيون ، والجمهور يرى أن تتوفر المناسبة أيضا في المتعلقات ، وسنفصل القول في هذا عند حديثنا عن مواضع الوصل ، والذي نريد أن ننبه إليه الآن هو أن البلاغيين لا يعنون بفقدان الجامع جواز الجمع بين جمل شاردة متنافرة ، لا يتأتى أن يضمها سياق واحد ، وأن يعد الفصل بين تلك المتنافرات مبررا لوضعها في قران ، وجمعها في سياق واحد ، بل إن مرادهم بفقدان الجامع : المناسبة الخاصة التي أشرنا إليها ، لا المناسبة العامة التي ينبغي توافرها بين الجمل سواء أعطفت أم لم تعطف ، انظر مثلا إلى تلك الجمل : « سأل زكريا ربه أن يهبه وليا يرثه واختلف النقاد في شعر أبي تمام والضحك يبطل الصلاة ويشتد الحر صيفا واليهود أعداء العرب » . . . هذه الجمل لا تقال في سياق واحد هكذا فهي فاسدة سواء أفصلت أم وصلت ، ولذا نبه البلاغيون

إلى وحدة السياق وإلى مراعاة النظير ، وتقدم من يقول البيت وأخاه على من يقول البيت وابن عمه ، وذكروا حسن التخلص من غرض إلى آخر . . .

فالمناسبة إذاً نوعان ، مناسبة خاصة وهذه إذا فقدت صح اقتران الجمل ولكنها تكون مفصولة لكمال الانقطاع وهو فقدان هذا الجامع الخاص ، ومناسبة عامة وهذه لابد من وجودها بين الجمل الموصولة والمفصولة ، وإلا فسد الكلام . . . ومما فقدت فيه المناسبة الخاصة قوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا »(١). فقد فصل بين « الذين يؤمنون » و « إن الذين كفروا . . . » لعدم وجود المناسبة التي تسوغ العطف ، أما المناسبة العامة التي تصحح جمع الجملتين في سياق واحد فهي التضاد بينهما ، وهو رابط حي ومثير لما يتضمنه من التشويق إلى معرفة القصة الثانية ، قصة الكافرة ، بعد الوقوف على قصة المؤمنين . . . ونظير الآية قوله تعالى : « طس . تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ . هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ »(٢)، وخذ قوله تعالى : « الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ »(٣) ، تجد أن الترابط قوي بين « الشمس والقمر بحسبان » وبين ما قبله ، فسياق الآيات يبرز قدرة الخالق الرحمن الذي خلق الإنسان وعلمه البيان والذي أحكم حركة الشمس والقمر . . أما المناسبة الخاصة التي تسوغ العطف فهي غير موجودة ولذا فصل بين « الشمس والقمر بحسبان » وبين

---

(١) سورة البقرة آية ١ — ٦ .

(٢) سورة النمل آية ١ — ٥ .

(٣) سورة الرحمن آية ١ — ٥ .

ما قبلها . . إلى غير ذلك مما ترى المناسبة الخاصة فيه غير قائمة ، والمناسبة العامة واضحة جلية . .

هذا - وكما ذكرت - أن الواو إذا وجدت بين جمل بينها كمال انقطاع ، فهي واو الاستئناف التي تفيد عطف القصة على القصة ، سواء أوقعت تلك الواو بين خبر وإنشاء أم بين خبرين أم بين إنشاءين ، على نحو ما مر بك من شواهد ، وتكثر هذه الواو الاستئنافية في القصص القرآني ، حيث تعطف بها القصة على القصة ، انظر في قوله تعالى « وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ : سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ . وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ . وَفِي ثَمُودَ إِذْ ... وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ »[1] نجد أن الواو قد عطفت أحداث قصة موسى على ما تقدمها من الحديث عن إبراهيم وضيفه ، ثم عطفت قصة عاد وأحداثها على قصة موسى ، ثم ثمود . . . وهكذا . . . وتسمى هذه الواو كما قلنا « واو الاستئناف » ، ومثلها « فاء الاستئناف » ، وقد مر الفرق بينهما . . . فالاستئناف ثلاثة أنواع : استئناف بالواو أو الفاء ، واستئناف بغير الواو والفاء وهو ما يكون في تلك الجمل التي تتفق إنشاء أو خبرا لفظا ومعنى ولا يوجد بينهما الجامع المسوغ للعطف فتأتي الجملة الثانية وقد استؤنف أي : ابتدىء بها معنى جديد ، واستئناف بياني وهو شبه كمال الاتصال الذي سنتحدث عنه الآن . .

* * *

٣ - شبه كمال الاتصال : ويسمى أيضا بالاستئناف البياني وهو أن تكون

---

(١) سورة الذاريات آية ٣٨ - ٤٦ .

الجملة الأولى متضمنة لسؤال تقع الجملة الثانية جوابا له كما في قوله تعالى : « قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ »(١) فالجملة الأولى: « إنه ليس من أهلك » ، أثارت سؤالا فحواه : كيف لا يكون من أهلي وهو ابني ؟ وجاءت الجملة الثانية جوابا لهذا السؤال المثار : « إنه عمل غير صالح » ولكون الجملة الثانية جوابا لسؤال تتضمنه الجملة الأولى ، وينبعث منها ، كانت مرتبطة بها ارتباطا وثيقا ، كما يرتبط الجواب بالسؤال ، ومن ثم ترك العطف بينهما لأن الجواب لا يعطف على السؤال ، لما بينهما من ترابط وثيق وصلة قوية .. انظر إلى قوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ . نَارٌ حَامِيَةٌ »(٢)، وقوله عز وجل : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ »(٣)، وقوله جل وعلا : « قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا »(٤) ، تجد الجواب قد فصل عن السؤال المصرح به في هذه الآيات الكريمة ، وفصل الجواب عن السؤال المصرح به ، إما لكمال الاتصال لما بين السؤال والجواب من صلة قوية ، وإما لكمال الانقطاع . لأن جملة السؤال إنشائية ، وجملة الجواب خبرية وكما فصل الجواب عن السؤال المصرح به ، فإنه يفصل كذلك عن السؤال المقدر الذى اقتضته الجملة الأولى وأثارته فى ذهن المخاطب وقد ذكر البلاغيون أن سبب الفصل عندئذ هو الاستئناف البيانى أى شبه كمال الاتصال ، وليس لكمال الاتصال الذى مر ، لأن الجواب ليس بيانا للجملة الأولى ، بل لشىء ينبعث منها وهو السؤال الذى أثارته واقتضته ، وقد سمى الاستئناف هنا استئنافا بيانيا وهو غير الاستئناف بالواو أو الفاء أو الاستئناف بالجملة ، أى: القطع ، لأنه استئناف يوضح ويبين جواب السؤال المثار المنبعث من الجملة

---

(١) سورة هود آية ٤٦ .
(٢) سورة القارعة آية ٨ - ١١ .
(٣) سورة البلد آية ١٢ ، ١٣ .
(٤) سورة الحج آية ٧٢ .

الأولى . فالجملة الثانية ليست منفصلة عن الأولى فى الواقع ، ومنقطعة عنها ، بل مبينة وموضحة لشيء فيها ، ولذا سميت الثانية مستأنفة استئنافاً بيانيا . .
هذا والسؤال المنبعث من الجملة الأولى قد يكون عن السبب العام ...
كما فى قول الشاعر :

قال لى كيف أنت ؟ قلت عليل   سهر دائم وحزن طويل

فجملة : « قلت عليل » ، أثارت سؤالا عن سبب العلة ، تقديره : ماسبب علتك ؟ ، وجاءت الثانية : « سهر دائم وحزن طويل » جوابا له . أما جملة : « قلت عليل » ، فمفصولة عن السؤال المصرح به قبلها لكمال الاتصال أو لكمال الانقطاع ، كما أوضحنا . .

ومن ذلك قول أبى العلاء المعرى :

وقد غرضت من الدنيا فهل زمنى
معط حياتى لغر بعد ما غرضا
جربت دهرى وأهليه فما تركت
لى التجارب فى ود امرىء غرضا(1)

فقد أثار البيت الأول تساؤلا عن سبب سأمه وضجره ، فكأن قائلا قال له : لم تقول هذا ويحك ؟ وما الذى جعلك تطوى عن الحياة إلى هذا الحد كشحك ؟ ، فأجاب البيت الثانى هذا التساؤل المنبعث من البيت الأول : « جربت دهرى وأهليه .. » ، ولذا فصل أوقل : ترك العطف بينهما لما بين السؤال والجواب من اتصال وثيق ، وترابط قوى . . وخذ قوله تعالى : « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا

---

(1) غرض : بكسر الراء : مل وسئم وضجر وبفتحها : حاجة . والغر : الفاة .
وما غرضا : لم يضجر الحياة بعد كما ضجرت . .

حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »[1] ، نجد أن جملة : « تراود فتاها عن نفسه » قد أثارت سؤالا عن سبب تلك المراودة وهو سؤال عن السبب العام ، وقد جاء جوابه : « قد شغفها حباً » ، ثم إن هذا الجواب أثار تساؤلا آخر فحواه : وما رأيكن في هذا ؟ ، فأجيب « إنا لنراها في ضلال » وتلاحظ أن هذا التساؤل الثاني ليس عن السبب ، بل هو عن رأيهن فيما صنعته امرأة العزيز من المراودة الناجمة عن حبها فتاها .

وقد يكون السؤال المثار عن السبب الخاص ، أي عن سبب معين محدد ، كما في قول الشاعر :

إذا ما الدهر جر على أناس ... كلاكله أناخ بآخرين

فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

فقد انبعث من شطر البيت الثاني تساؤل عن سبب معين ، وكأن سائلا سأل : لم تقول لهم أفيقوا ؟ هل سيلقوا كما لقيتم ؟ ، فأجيب سيلقى الشامتون كما لقينا ... ومن هذا قوله تعالى : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ »[2] ، حيث فصلت جملة : « إن النفس لأمارة بالسوء » ، عما قبلها ، لأنها وقعت جوابا لسؤال تضمنته وهذا السؤال عن السبب الخاص ، إذ فحواه : لم نفيت التبرئة عن النفس ، هل النفس أمارة بالسوء ؟ ، فجاء الجواب : إن النفس لأمارة بالسوء ... ومنه أيضا قوله عز وجل : « وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ

---

(١) سورة يوسف آية ٣٠ . (٢) سورة يوسف آية ٥٣ .

إنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ »(١) ، فقد فصلت الجملتان : « سيجزيهم بما كانوا يفترون » ... ، سيجزيهم وصفهم » .. عما قبلهما اشبه كال الاتصال ، حيث وقعت كل منهما جوابا لسؤال اقتضته الجمل قبلها ، وكأن سائلا سأل : لم هذه الافتراءات ولم تلك الأوصاف الجائرة ؟ هل سيجزون على ذلك ؟

فجاءت الإجابة : « سيجزيهم بما كانوا يفترون .. سيجزيهم وصفهم » . وواضح أن السؤال المثار فى الآيتين عن السبب الخاص ... وقد يكون السؤال المنبعث من الجملة الأولى عن غير السبب .. كما فى قوله تعالى : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلَامًا قَالَ : سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ : أَلَا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ »(٢) ، فقد فصلت الجمل : « قال : سلام » « قال : ألا تأكلون » ، قالوا : لا تخف » عما قبلها لأنها أجوبة لما تضمنته تلك الجمل من أسئلة أثيرت فى ذهن السامع ، وكأنه سأل فماذا قال إبراهيم ؟ فأجيب : « قال : سلام ... قال : ألا تأكلون ، وماذا قالت الملائكة ؟ قالوا لا تخف وبشروه ... ومثل هذا كل ماتراه فى التنزيل من لفظ « قال » مفصولا عما قبله ، غير معطوف عليه بعاطف ... ومن أقوالهم فى هذا الصدد ، قول الشاعر :

زعم العواذل أننى فى غمرة ... صدقوا ولكن غمرة لاتنجلى(٣)

فالجملة الأولى : « زعم العواذل أنى فى غمرة » ، حركت السامع وأثارت فى ذهنه سؤالا : أصدقوا فى ذلك الزعم أم كذبوا ؟ ، فأخرج الكلام مخرجه

---

(١) سورة الأنعام آية ١٣٨، ١٣٩ (٢) سورة الذاريات آية ٢٤–٢٨

(٣) الغمرة : الشدة . وتنجلى : تنكشف وتزول ..

لو كان ذلك قد قيل له ، ففصل جملة : « صدقوا . . . . » ، ومثله قول جندب ابن عمار :

زعم العواذل أن ناقة جندب
بجنوب خبت عريت واجمت
كذب العواذل لو رأين مناخنا
بالقادسية قلن : لج وذلت[1]

فقد فصل البيت الثانى عن الأول لوقوعه جوابا لسؤال فحواه أصدقن أم كذبن فى زعمهن ؟ ، وتلاحظ أن واو الجماعة فى البيت الأول فى قـــوله « صدقوا » ، قد عادت إلى لفظ « العواذل » ، إما على أنه جمع عاذل جمعا سماعيا مثل فارس : فوارس.. أو على أنه جمع عاذلة بمعنى جماعة عاذلة من الذكور . . أما فى بيت جندب فقد عاد إليه ضمير النسوة : رأين وقلن ، على أنه جمع عاذلة أى جمع مؤنث . . . كما تلاحظ أن الجملة المستأنفة أى : جملة الجواب فى بيت جندب قد وضع فيها الظاهر موضع المضمر ، فازداد بهذا أمر الاستئناف تأكيدا ، من حيث وضعه وضعا لايحتاج فيـه إلى ما قبله ، وأتى به مأتى ما ليس قبله كلام . . ومثله ـ وقد مر بك ـ قول الشاعر :

فقل للشامتين بنا أفيقوا ، سيلقى الشامتون كما لقينا

فلم يقل « سيلقوا » بل وضع الظاهر موضع المضمر ليزداد الاستئناف تأكيدا . . ومن الشواهد أيضا قول أبى تمام :

ليس الحجاب بمقص عنـك لى أملا
إن السماء ترجى حين تحتجب

---

(١) عريت واجمت : اهملت وأزيل عنها رحلها لاستراحت . لج وذلت : اشتد فى السير فأتعب ناقته . .

فكأن سائلا سأله : كيف لا يحول الحجاب بينك وبين تحقيق آمالك ومآربك ؟ فأجاب : إن السماء ترجى حين تحتجب ..

وقول الآخر :

يرى البخيل سبيل المال واحدة   إن الكريم يرى فى ماله سبلا

وكأن المخاطب عندما سمع الشطر الأول سأل ، وما رأى الكريم فى ماله؟، فأجاب : إن الكريم يرى فى ماله سبلا .. وقول الآخر :

فغنها وهى لك الفداء   إن غناء الإبل الحداء

فعندما قال الشاعر : غنها وهى لك الفداء ، توهم أن سائلا سأله : وما غناء الإبل ؟ أغناؤها الحداء ؟ أم أنك تقصد شيئا آخر غير الحداء ؟، فأجاب : إن غناء الإبل الحداء .

وترجع بلاغة هذا الأسلوب إلى مايفيده من إثارة المخاطب وتحريك ذهنه ، فهذا السؤال المنبعث من الجملة الأولى ، قد انبعث فى ذهن المخاطب أو فى ذهن المتكلم الذى أدرك أن الجمله ينبعث منها هذا السؤال ، وأن المخاطب ينتظر جوابا له وبيانا فعندما يأتى البيان ويرد الجواب يقع فى النفس أحسن موقع وأفضله . ولذا يقول المبرد عند حديثه عن بيت امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا   لدى وكرها العناب والحشف البالى

« فهذا مفهوم المعنى ، فإن اعترض معترض فقال : فهلا فصل فقال : كأنه رطبا العناب وكأنه يابسا الحشف البالى ؟ قيل له : العربى الفصيح الفطن يرى بالقول مفهوما ، ويرى ما بعد ذلك من التكرير عيا . »[1] ...

ولما قال خلف الأحمر لبشار وقد استمع لبيته :

---

(١) انظر الكامل جـ ٢ ص ٣٦ .

بكرا صاحبيّ قبل الهجير إن ذاك النجاح فى التبكير

« لو قلت يا أبا معاذ : بكرا فالنجاح ، كان أحسن » ، فقال بشار : « إنما بنيتها أعرابية وحشية .. ولو قلت: بكرا فالنجاح ، كان من كلام المولدين»... ومراده أن التكرار ، أى تكرار فعل الأمر أفاد التأكيد بوجه ظاهر لادقة فيه ، أما ما تضمنه فقد أفاد التوكيد بوجه خفى دقيق ، مرجعه إلى انبعاث السؤال من الجملة الأولى وإجابة الجملة الثانية عنه . . . وقد أجمل القزوينى سر بلاغة هذا الأسلوب فى قوله : « وتنزيل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لايصار إليه إلا لجهات لطيفة : إما لتنبيه السامع على موقعه ، أو لإغنائه أن يسأل ، أو لئلا يسمع منه شىء ، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه ، أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ وهو تقدير السؤال وترك العاطف ، أو لغير ذلك مما ينخرط فى هذا السلك . »(١)

هذا ومن الاستئناف ما يأتى بإعادة اسم ما استؤنف عنه كقولك : أحسنت إلى زيد ، زيد حقيق بالإحسان ، ومنه ما يبنى على صفته . كقولك: أحسنت إلى زيد ، صديقك القديم أهل لذلك ، وهذا أبلغ لانطوائه على بيان سبب الإحسان ..

وقد تأتى الجملة المستأنفة أى جملة الجواب بلا حذف شىء منها ، كما فى قول المتنبى :

وما عفت الرياح له محلا عفاه من حدا بهم وساقا

وكما فى قول الوليد بن يزيد الأموى :

عرفت المنزل الخالى عفا من بعد أحوال
عفاه كل حنان عسوف الوبل هطال(٢)

(١) الإيضاح ٢/٧٩ .

(٢) عفا : درس والمراد بالأحوال : الأحوال التى سعد فيها بأحبابه وسكانه . والحنان : السحاب وعسوف الوبل : شديد المطر .

. لما نفى المتنبى العفاء عن الرياح ، ولما ذكر الوليد عفاء المنزل كان مظنة أن يسأل عن الفاعل من هو ؟ أو ما هو ؟ فأجابا عن ذلك : عفاه من حدا بهم وساقا . . عفاه كل حنان ، ولم يحذف شيء من جملة الجواب ، إذ لو حذف الفعل فقيل : من حدا بهم . . كل حنان ، لما دل دليل عليه . وذكر جملة الاستئناف كاملة بلا حذف يجعلها أشد انفصالا وأتم استقلالا عن الجملة الأولى التى انبعث منها السؤال . .

وقد يحذف صدر الاستئناف لقيام قرينة عليه ، ويكثر هذا عند ذكر الشعراء للديار والأطلال ، وكذا عند المدح أو الفخر أو الرثاء أو الهجاء ، حيث يقطع الكلام ويستأنف معنى جديد . .

من ذلك قول الشاعر :

اعتاد قلبك من ليلى عوائده وهاج أهواءك المكنونة الطلل
ربع قواء أذاع المعصرات به وكل حيران سار ماؤه خضل(١)

لما ذكر أن الطلل قد هاج أهواءه المكنونة ، اشتاقت النفس إلى معرفة خبر هذا الطلل وصفته ، وكأنها سألت : ما خبر هذا الطلل ؟ وما صفته ؟ ، فاستأنف الشاعر حديثا عنه ، وبنى الكلام على حذف صدر الاستئناف « المسند إليه » فقال : ربع قواء أذاع المعصرات به . .

ومثله قول ذى الرمة :

إلى لوائحَ من أطلال أحوية كأنها خِلَلٌ مَوْشيّةٌ قُشُبُ
دار لمية إذ مى تساعفنا ولا يَرى مثلَها عُجْم ولا عرَب(٢)

---

(١) المعصرات : السحاب وكذا الحيران والسارى . أذاع به : ذهب . والخضل : الكثير . والقواء : الموحش . .

(٢) اللوائح : ما تبين ولاح . . والأحوية : بيوت مجتمعة واحدتها حواء . . والخلل : بطائن أجفان السيوف واحدتها : خلة . وموشية : منقوشة . والقشب : جدد

استأنف مبينا شأن الأطلال ، وحذف صدر الاستئناف ، إذ المراد : تلك دار لمية .. ومنه فى المديح قول الشاعر :

هم حلوا من الشرف المعلى ومن حسب العشيرة حيث شاءوا
بناة مكارم وأساةُ كَلْمٍ دماؤهم من الكَلَب الشفاء[1]

وقول الآخر :

سأشكر عمرا إن تراخت منيتى أيادى لم تمنن وإن هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

وقوله :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
نجوم سماء كلما انقض كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه[2]

إلى غير ذلك مما يقطع فيه الشعراء كلامهم ويستأنفون معانى أخرى فيحذفون عندئذ صدر الاستئناف لدلالة الدليل عليه .. فإن قلت : ألا يؤدى حذف صدر الاستئناف إلى احتياج جملة الاستئناف إلى ما قبلها ، وعندئذ لايكون انفصالها تاما واستقلالها كاملا ؟ .. قلت : ليس كل حذف يؤدى إلى الاحتياج وعدم الاستقلال ، بل إن الحذف فى الشواهد المذكورة قد ساعد على استقلال الجمل المستأنفة وعدم احتياجها إلى ما قبلها ويتضح لك هذا عندما تقدر المحذوف فتقول : ذاك ربع قواء ... تلك دار مروة ... هم بناة مكارم هو فتى غير محجوب الغنى .. هم نجوم سماء .. إذ تجد أن اسم الإشارة والضمير قد جعل تلك الجمل مرتبطة بما قبلها محتاجة إليه ، أما الحذف فيجعلها مستقلة عنه .. ولاحظ أن هناك فرقا بين هذه الشواهد

(١) الكلم : الجرح . والكلب : داء يصيب الإنسان إذا عضه كلب ..

(٢) الجزع : خرز فيه بياض وسواد .

وبين بيتي المتنبي والوليد، إذ الحذف في بيتي المتنبي والوليد يؤدي إلى الغموض واللبس لعدم وجود دليل يدل على المحذوف ، واقرأ : وما عفت الرياح له محلاً من حدائهم ... عفا من بعد أحوال كل حنان عسوف الوبل .. تجد المعنى لا يستقيم عند الحذف ، ولو فرضت استقامته فستجد أن جملة الاستئناف محتاجة إلى ما قبلها . أما حذف صدر الاستئناف في الشواهد المذكورة ، فقد ساعد على استقلالها وعـــدم احتياجها إلى ما قبلها ، كما وضح لك ...

ومما حذف فيه صدر الاستئناف من آي الذكر الحكيم قوله تعالى : « يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُـــدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ... »(١) بقراءة يُسبح مبنيا للمفعول ، وكأن سائلا سأل : من يسبح ؟ فأجيب : رجال بحذف صدر الاستئناف وهو هنا المسند .. ومن ذلك أسلوب نعم وبئس مثل نعم الرجل خالد ، وبئس رجلا عمرو ، على اعتبار أن المخصوص بالمدح أو الذم خبر لمبتدأ محذوف . وكأن سائلا سأل : من الممدوح ومن المذموم ؟ فأجيب : الممدوح خالد والمذموم عمرو .

وقد يحذف الاستئناف كله ويقوم مايدل عليه مقامه ، كقول الحماسي :

زعمتم أن إخوتكم قريش   لهم إلف وليس لكم إلاف

فقد أثار صدر البيت سؤالا تقديره : أكذبنا أم صدقنا ؟ فأجيب : كذبتم في زعمكم، وقد حذف هذا الجواب، وأقيم قوله: لهم إلف وليس لكم إلاف مقامه لدلالته عليه ، ويجوز اعتبار قوله : « لهم إلف وليس لكم إلاف » جوابا لسؤال اقتضاه الجواب المحذوف ، وكأنه لما قيل : كذبتم ، قالوا : لم كذبنا ؟ قال : لهم إلف . وليس لكم إلاف ، فيكون في البيت على هـــذا استئنافان . ويجوز أن يكون الفصل في البيت لشبه كمال الانقطاع الآتي بيانه ..

---

(١) سورة النور آية ٣٦ ، ٣٧ .

وقد يحذف الاستئناف كله لدلالة السياق عليه كقوله تعالى :
« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ »[1] . أى : نعم الماهدون نحن ، وقوله عز وجل : « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ »[2] ، أى : نعم العبد أيوب . .

هذا وقد تأتى الجملة الواقعة موقع الجواب بالفاء أو بالواو ، وتسمى الفاء فاء الاستئناف وكذا الواو تسمى واو الاستئناف ، ولكن الاستئناف بهما يختلف عن الاستئناف البيانى ؛ لأن الاستئناف بالواو يؤذن باستقلال الكلام وانفصاله ، إذ يكون المراد عطف القصة على القصة أو عطف جمل مسوقة لغرض على جمل مسوقة لغرض آخر ، كما مر بك . . ومن ذلك قوله تعالى : « يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . . »[3] .

حيث جاءت الآية الثانية بدون الواو ، فأفاد ذلك أنها متولدة عن الآية الأولى ، إذ وقعت جوابا لسؤال تضمنته ، وجاءت الآية الثالثة بالواو فآذنت بالاستقلال ، وصار الكلام معها من قبيل عطف القصة على القصة . .

ومن ذلك قول الشاعر :

أرى بصرى عن كل يوم وليلة
يكل وخطوى عن مدى الخطو يقصر
ومن يصحب الأيام تسعين حجة
يغيرنه والدهر لا يتغير

(١) سورة الذاريات الآية ٤٧ ، ٤٨ (٢) سورة ص الآية ٤٤
(٣) سورة سبأ آية ٣١ ، ٣٣ .

حيث جاء البيت الثاني مستأنفا بالواو التي تؤذن بالاستقلال .

• الاستئناف بالفاء يجعل الكلام مرتبا بعضه على بعض ، وليس متولدا بعضه من بعض . انظر إلى قول أبي تمام :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى   فالسيل حرب للمكان العالي

تجد أن الفاء قد جعلت الكلام مرتبا بعضه على بعض ... وخذ قوله تعالى : « قَالَتَا : لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ . فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ... »[1] ، تجد أن هذه الفاءات : « فسقى لهما .. فقال رب .. فجاءته إحداهما ... » قد جعلت الكلام مرتبا بعضه على بعض ..

أما الاستئناف البياني فالكلام فيه يتولد بعضه من بعض ، إذ ينبعث من الجملة الأولى سؤال وتقع الثانية جوابا له ، فالثانية مرتبطة بالأولى ارتباط الجواب بالسؤال وهو ارتباط داخلي وثيق ، وليس ارتباطا لفظيا ظاهرا ، كما في الاستئناف بالفاء ، ولا استقلالا وتباينا كما في الاستئناف بالواو ..

٤ - شبه كمال الانقطاع : وقد عرفوه بقولهم : أن تكون الجملة مسبوقة بجملتين يصح وصلها بالأولى منهما لوجود المناسبة التي تسوغ الوصل ، ولا يصح عطفها على الثانية ، فيترك العطف دفعا لتوهم العطف على الثانية ، وتصبح الجملة الثالثة بمنزلة المنقطعة عن الأولى ، بهذا الحائل ...

من ذلك قول الشاعر :

وتظن سلمى أنني أبغي بها   بدلا أراها في الضلال تهيم

فقد فصل جملة : « أراها في الضلال ... » عن الجملة الأولى : « تظن

---

(١) سورة القصص آية ٢٣-٢٥ .

سلمى ... » ، لأن عطفها عليها يوهم أنها معطوفة على جملة : « ... أبغى بها بدلا » ، فتكون هـذا من مظنونات سلمى ، وهى من كلام الشاعر ، لا من مظنوناتها ، فدفعا لهذا التوهم وجب الفصل .. ومثله قول الآخر :

يقولون : إنى أحمل الضيم عندهم
أعوذ بربى أن يضام نظيرى

فصل جملة : « أعوذ بربى » عن جملة : « يقولون » مع جـواز عطفها عليها ، حتى لا يتوهم عطفها على جملة : « أحمل الضيم ... » ، فتكون من مقولهم وهى ليست منه ، بل هى من كلام الشاعر .

ويمكن أن يكون من هذا الموضع قول الحماسى :

زعمتم أن إخوتكم قريش ‌ ‌ لهم إلف وليس لكم إلاف

فيكون فصل جملة : « لهم إلف ... » عن جملة « زعمتم » دفعا التوهم عطفها على جملة : « أن إخوتكم قريش » ؛ إذ هى ليست من زعمهم بل من كلام الحماسى .. وانظر فى قوله تعالى : « وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ »[1] ، فقد مر بك امتناع عطف جملة : « الله يستهزىء بهم » على جملة : « إنا معكم » ، أو على جملة : « قالوا » ، أما عطفها على جملة الشرط وجوابه : « إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا » فجائز ، ولكن يمنع منه توهم عطفها على إحدى الجملتين المذكورتين .. وكذا القول فى الآيات الكريمة : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ .. »[2] ؛ ولا يخفى عليك أنه يمكن رد

(١) سورة البقرة آية ١٤ ، ١٥ . ‌ ‌ (٢) سورة البقرة آية ١١ - ١٣ .

سبب الفصل فى هذه الشواهد إلى شبه كمال الاتصال كما نبه كثير من البلاغيين وبذا يلغى هذا الموضع من مواضع الفصل .

٥ — الفصل لعدم الاشتراك فى القيد : أو كما عرفه بعض البلاغيين بالتوسط بين الكمالين مع وجود المانع من العطف وهو عدم الاشتراك فى الحكم .. وقد استشهدوا لهذا بقوله تعالى «وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ . »[1] ، فقد فصل جملة: «الله يستهزىء بهم» عن جملة: «قالوا» ، لأن قولهم مقيد بوقت خلوهم إلى شياطينهم أما استهزاء الله بهم فدائم فى كل ان ، وليس مقيدا بهذا الوقت ، ولذا وجب الفصل لعدم الاشتراك فى القيد .... وأما فصل هذه الجملة : «الله يستهزىء بهم» عن جملة «إنا معكم» فلعدم قصد التشريك فى الحكم الإعرابى كما مر بك فى الجمل التى لها محل من الإعراب ... بقى أن أذكرك بما نبهتك إليه من أن الجمل التى لها محل من الإعراب تخضع لما تخضع له الجمل التى لا محل لها من الإعراب من مواضع الفصل المذكورة ، وانظر مثلا فى قوله تبارك وتعالى : «وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »[2] ، تجد ان الجمل الثلاث : «امرأة العزيز تراود ...» ، «قد شغفها حبا» ، «إنا لنراها فى ضلال ..» قد وقعت مقولا لقول النسوة فلها من الإعراب محل ، وقد فصل بينها لشبه كمال الاتصال ، إذ أثارت الجملة الأولى سؤالا فحواه ماسبب تلك المراودة ؟ ، فجاء التعليل : «قد شغفها حبا» ، وكذا تضمنت الثانية سؤالا تقديره : وما رأيكن ؟ ، فأجيب بالجملة الثالثة : «إنا لنراها فى ضلال مبين...» .. وارجع إلى ماسقناه من شواهد فى مواضع الفصل المذكورة ليتضح لك أن الجمل جميعها سواء فى تلك المواضع . وأنك لا تستطيع قصر هذه المواضع على الجمل التى لا محل لها من الإعراب ..

(١) سورة البقرة آية ١٤ ، ١٥ . (٢) سورة يوسف آية ٣٠ .

وبهذا نكون قد فرغنا من مواضع الفصل بين الجمل وننتقل الآن إلى مواضع الوصل ...

. . .

مواضع الوصل بين الجمل: - وقفنا - فيما سبق - على أن الجمل التي لها محل من الإعراب، يوصل بينها إذا قصد التشريك في الحكم الاعرابي، ووجدت المناسبة المسوغة للعطف، ولم يكن هنالك مانع يمنع من الوصل.

وقد ذكر البلاغيون موضعين آخرين للوصل بين الجمل وهما:

١ - التوسط بين الكمالين، والمراد بالكمالين: كمال الاتصال وكمال الانقطاع، وقد عرفوه بقولهم: أن تتفق الجملتان خبرا أو إنشاء لفظا ومعنى، أو معنى فقط، فمثال اتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنى قوله تعالى: « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ »[1]، وقوله عز وجل: « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ »[2]، فقد اتفقت الجملتان: « إن الأبرار لفي نعيم »، « إن الفجار لفي جحيم » في الخبرية لفظا ومعنى، ووجدت المناسبة المسوغة للعطف، ولم يمنع من العطف مانع، ولذا وصل بينهما كما ترى. وكذا القول في الآيتين: « قل اللهم ... »، ولا يخفى عليك ما يفيده الجمع بين الجمل في الآيتين، من إبراز قدرة الله عز وجل في أسمى معانيها، وتأمل: تؤتي الملك من تشاء وتنزع وتعز من تشاء وتذل ... تولج الليل في النهار

(١) سورة الانفطار آية ١٣، ١٤. (٢) سورة آل عمران آية ٢٦، ٢٧

وتولج النهار فى الليل ... وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ... لا يقدر على تلك الأضداد إلا الخالق القادر المهيمن ذو السلطان والملك . . ومثال ما اتفقت فيه الجملتان فى الإنشائية لفظا ومعنى قوله تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »[1]، فقد اتفقت الجمل : خذوا زينتكم .. كلوا .. اشربوا . لا تسرفوا، فى الإنشائية لفظا ومعنى، ومن ثم وصل بينها . . ومما اتفقت فيه الجملتان فى الإنشائية معنى، قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً . . »[2] فى الآية ثلاث جمل، الأولى : لا تعبدون إلا الله ، والثانية حذف فيها فعل الأمر وتقديرها : وأحسنوا بالوالدين إحسانا ، والثالثة : وقولوا للناس حسنا . والجملتان الثانية والثالثة إنشائيتان لفظاً ومعنى كما ترى ، أما الأولى فخبرية لفظا ، إنشائية معنى ، لأنها تعنى النهى أى : لا تعبدوا إلا الله ، وبهذا يكون اتفاق الجمل الثلاث فى الإنشائية فى المعنى فقط دون اللفظ ...

ومما اتفقت فيه الجملتان فى الخبرية معنى قوله تعالى : « قَالَ : إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ »[3] فجملة: « واشهدوا . . » إنشائية لفظا خبرية معنى ، إذ المراد : إنى أشهد الله وأشهدكم ، وبهذا يكون اتفاق الجملتين فى الخبرية معنى لا لفظاً ... وإنما عدت مثل هذه الجمل ، توسطا بين الكمالين ، ، لاتفاقها فى الخبرية أو الإنشائية مع وجود المناسبة المسوغة للوصل ، فليست من قبيل كمال الانقطاع الذى عرفته . كما أنها ليست من قبيل كمال الاتصال لعدم وجود الروابط والصلات القوية بينها والتى عرفتها فى صور كمال الاتصال ، ولذا سمى البلاغيون هذا الموضع بالتوسط بين الكمالين .

---

(١) سورة الأعرف آية ٣١ . (٢) سورة البقرة آية ٨٣ .

(٣) سورة هود آية ٥٤ .

٣ – كمال الانقطاع مع الإيهام: كقولك لتاجر: أتبيع هذه البضاعة؟ فيجيبك: لا، وعافاك الله، وقولك لصديق لك: أشفي والدك؟ فيجيب: لا، ولطف الله به. وقولك: أتاب العاصي إلى الله؟ فتجاوبه: لا، وهداه الله. فبين الجملتين كما ترى كمال انقطاع؛ لأن جملة (لا) خبرية لفظاً ومعنى، والجمل: عافاك الله، لطف الله به، هداه الله، خبرية لفظاً، إنشائية معنى، وكمال الانقطاع – كما درست – يوجب الفصل بين الجملتين، إلا أن الفصل هنا يوهم خلاف المراد، إذ يتوهم أن المجيب يدعو بعدم العافية وعدم اللطف وعدم الهداية، وأنه قد أجاب بجملة واحدة منفية، سلطت فيها (لا) على ما بعدها وليس بجملتين؛ فدفعاً لهذا الإيهام يجب الوصل بين الجملتين، ولذلك إذا اندفع هذا الإيهام بأن يسكت المتكلم قليلاً بعد النطق بالحرف (لا) أو يذكر الجملة المنفية كاملة، فيقول: لا أبيعه، ثم يذكر الجملة الدعائية (عافاك الله)، عندئذ يجب الفصل، إذ لا إيهام..

الجامع أو التناسب بين الجملتين: عرفت أن اتفاق الجملتين في الخبرية أو الإنشائية يوجب الوصل بينهما إذا وجدت المناسبة أو الجامع المسوغ للوصل، وكذا عند قصد التشريك في الحكم الإعرابي، فما مراد البلاغيين بهذا الجامع أو بتلك المناسبة؟ يريد البلاغيون بذلك: أن يكون المسند إليه في الجملة الأولى بسبب من المسند إليه في الجملة الثانية، وكذا المسند فيهما: يقول عبد القاهر «واعلم أنه يجب أن يكون المحدث عنه في إحدى الجملتين بسبب من المحدث عنه في الأخرى، كذلك ينبغي أن يكون الخبر عن الثاني مما يجري مجرى الشبيه والنظير أو النقيض للخبر الأول فلو قلت: زيد طويل القامة وعمرو شاعر، كان خلفاً؛ لأنه لا مشاكلة ولا تعلق بين طول القامة وبين الشعر. وإنما الواجب أن يقال: زيد كاتب وعمرو شاعر، وزيد طويل القامة وعمرو قصير، وجملة الأمر أنها – يقصد الواو – لا تجيء حتى يكون المعنى في هذه الجملة لفقاً للمعنى في الأخرى ومضاماً له، مثل أن زيداً وعمراً إذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشتبكي الأحوال على الجملة،

كانت الحال التي يكون عليها أحدهما من قيام أو قعود أو ما شاكل ذلك مضمومة في النفس إلى الحال التي عليها الآخر من غير شك ، وكذا السبيل أبداً . والمعاني في ذلك كالأشخاص ، فإنما قلت مثلا : العلم حسن والجهل قبيح ، لأن كون العلم حسناً مضموم في المعقول إلى كون الجهل قبيحاً ، واعلم انه إذا كان المخبر عنه في الجملتين واحداً كقولنا : هو يقول ويفعل ويضر وينفع ويسيء ويحسن ويحل ويعقد وأشباه ذلك ، ازداد معنى الجمع في الواو قوة وظهوراً وكان الأمر حينئذ صريحا .. »(١)

وقد اختلف البلاغيون في المتعلقات ، هل ينبغي ان يعتبر فيها التناسب أيضا ؟ والصواب أنه لا يعتبر فيه ذلك إلا إذا كانت مقصودة بالذات ومرادة في الجملتين ، كقوله تعالى : « وَيَا قَوْمِ مَالِى أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِى إِلَى النَّارِ »(٢) . . وكما في قول الشاعر :

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

هذا وقد تكون المناسبة بين الجمل دقيقة خفية وعندئذ تحتاج إلى تأمل السياق ومعرفة قرائن الأحوال به .. انظر إلى قوله تعالى : « أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ »(٣) تجد أن المناسبة بين الإبل والسماء والجبال والأرض ، لا تتضح لك إلا بالتأمل وإطالة النظر . إذ عند التأمل تعرف أن أهل الوبر تكون عنايتهم مصروفة إلى الإبل ، حيث ينتفعون بها في جل معاشهم وانتفاعهم بها لا يحصل إلا بأن ترعى وتشرب وذلك يكون بنزول المطر ، فيكثر تقلب وجوههم في السماء . ثم لا بد لهم من مأوى يتحصنون به ، ولا شيء لهم في ذلك كالجبال ، ثم لا غنى لهم لتعذر طول مكثهم في منزل عن التنقل من أرض إلى سواها . . وبهذا يتضح لك أن الإبل والسماء والجبال والأرض متناسبة في ذهن البدوي وأخيلة أهل الوبر ..

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٣٢، ٢٣٣ . (٢) سورة غافر آية ٤١ .
(٣) سورة الغاشية آية ١٧—٢٠ .

كما أنه قد يتحد كل من المسند والمسند إليه ولا تجد مسوغاً الوصل على نحو ما ترى فى قولك : انظر إلى غزارة علم عمرو ... وانظر إلى هذا القطع فى ثوبك ، فبل هاتين الجملتين لا يجمعهما سياق واحد لا منفصلتين ولا موصولتين ، على الرغم من اتحاد المسند والمسند إليه فى كل منهما ... وقد يختلف كل منهما فى الجملتين وتوجد المناسبة المسوغة للوصـــل ، على نحو ما ترى فى فى قوله عز وجل : « فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ . » (١) فالمسند إليه فيهما : « الضر وإخوة يوسف » مختلفان لا تناسب بينهما ، وكذلك المسندان : « المس والمجيء » ، وعلى الرغم من هذا وصل بين الجملتين لوجود المسوغ للوصل وهو ان المس سبب فى المجيء ...

محسنات الوصل : ومن محسنات الوصل أن تتناسب الجملتان فى الاسمية والفعلية ، وفى المضى والمضارعة ، وفى الأمر والنهى ، وفى الإطلاق والتقييد ... انظر إلى قوله تعالى : « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » (٢) تجد تناسب الجملتين فى الاسمية ... ومنه قول الشاعر :

أسود إذا ما أبدت الحرب نابها وفى سائر الدهر الغيوث المواطر

ومن تناسبهما فى المضى قوله تعالى : « ... فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . . » (٣) .. وقول الشاعر :

أعطيت حتى تركت الريح حاسرة وجدت حتى كأن الغيث لم يجد

ومن تناسبهما فى المضارعة قوله تعالى : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي

---

(١) سورة يوسف آية ٨٨ . (٢) سورة الانفطار آية ١٣ ، ١٤ .
(٣) سورة الأنفال آية ٢٦ .

المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ... »[1] .. وقول الشاعر :

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضى

ومن تناسبهما فى الأمر والنهى قوله تعالى : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا »[2] . وقوله عز وجل : « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالمَعروفِ وَانْهَ عَنِ المُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ .. »[3] .

ومن تناسبهما فى التقييد قول الشاعر :

دنوت تواضعا وعلوت مجدا فشأناك انحدار وارتفاع

وإنما يعد التناسب فيما ذكر من محسنات الوصل مالم يدع داع إلى المخالفة ، فلو دعا داع إلى المخالفة كان الحسن فى تلك المخالفة التى دعا إليها هذا الداعى واقتضاها المقام ، انظر فى قوله عز وجل: « إِنَّ المُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .. »[4] .

فقد آثر التعبير بالمضارع « يخادعون » ليفيد أن خداع المنافقين حادث متجدد ، وبالاسم « خادعهم » ليفيد أن فعل الله ثابت ودائم فى جميع الأحوال ، وفى هذا زيادة فى التشكيل والتعذيب .. ومن ذلك قوله تعالى : « فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ »[5] ... يقول الزمخشرى فى بيان السر

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٦ .
(٢) سورة الأعراف آية ٣١ .
(٣) سورة لقمان آية ١٧-١٩
(٤) سورة النساء آية ١٤٢ .
(٥) سورة البقرة آية ٨٧ .

البلاغى للمخالفة فى الآية : « فإن قلت : هلا قيل وفريقا قتلتم ؟ قلت : هو على وجهين أن تراد الحال الماضية، لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره فى النفوس وتصويره فى القلوب ، وأن يراد : وفريقا تقتلونهم بعد لأنكم تحومون حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم لولا أنى أعصمه منكم .. »⁽¹⁾ وبهذا يتضح لك أن المقام قد يقتضى عدم تناسب الجملتين فيما ذكر ، وعندئذ يكون الحسن فيما اقتضاه المقام ودعا إليه الحال . .

فروق فى الجملة الحالية : مر بك جواز مجىء الواو بين الصفة وموصوفها وبين الحال وصاحبها سواء أكانت الصفة مفردة أم جملة وسواء أكانت الحال كذلك مفردة أم جملة ، وعرفت ما يكمن وراء مجىء الواو أو تركها من دقائق وأسرار .. ونريد هنا أن نفصل لك القول فى الحال عندما تأتى جملة، متى تقترن جملة الحال هذه بالواو ، ومتى تمتنع الواو ، ومتى يجوز الإتيان بالواو ويجوز تركها . وقبل أن نفصل لك القول فى تلك الجمل الحالية ننبهك إلى ما ذكرناه آنفــــا من أن الواو لما فيها من معنى المغايرة فهى تؤذن بالاستقلال ، وكأن القائل عندما يقول : جاء زيد وغلامه يسعى بين يديه ، قد أخبر إخبارين ، أخبر بمجىء زيد ثم بحاله عند المجىء .. وهذا من شأنه أن يؤكد جملة الحال وأن يفيد شدة لصوقها بصاحبها .. أما إذا قال القــائل : جاء زيد غلامه يسعى بين يديه ، فهو يخبر خبراً واحداً ، يخبر عن مجىء هذه حاله وتلك هيئته .. تأمل قول عبد القاهر : « وإذ قد عرفت هذا فاعلم أن كل جملة وقعت حالا ثم امتنعت من الواو فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع فى صدرها فضممته إلى الفعل الأول فى إثبات واحد ، وكل جملة جاءت حالا ثم اقتضت الواو فذاك لأنك مستأنف بها خبراً وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول فى الإثبات. تفسير هذا أنك إذا قلت جاءنى زيد يسرع كان بمنزلة قولك : جاءنى زيد مسرعاً فى أنك تثبت مجيئا فيه إسراع

(1) الكشاف ٢٩٥/١

وتصل أحد المعنيين بالآخر ، وتجعل الكلام خبراً واحداً وتريد أن تقول جاءني كذلك ، وجاءني بهذه الهيئة ، وهكذا قوله :

وقد علوت قتود الرحل يسفعني ... يوم قُدَيدِيمةِ الجوزاء مسموم(١)

كأنه قال : وقد علوت قتود الرحل بارزاً للشمس ضاحيا ، وكذلك قوله :

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله ... والليل قد مزقت عنه السرابيل

لأنه فى معنى : متى أرى الصبح بادياً لائحاً بيناً متجلياً ، وعلى هذا القياس أبداً ... وإذا قلت : جاءني وغلامه يسعى بين يديه ورأيت زيداً وسيفه على كتفه ، كان المعنى على أنك بدأت فأثبت المجيء والرؤية ، ثم استأنفت خبراً وابتدأت إثباتا ثانيا لسعى الغلام بين يديه ولكون السيف على كتفه ، ولما كان المعنى على استئناف الإثبات احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى فجيء بالواو كما جيء بها فى قولك : زيد منطلق وعمرو ذاهب ، والعلم حسن والجهل قبيح ، وتسميتنا لها واو الحال ، لا يخرجها عن أن تكون مجتلبة لضم جملة إلى جملة »(٢) . وإياك أن يلتبس عليك الأمر فتظن أن جملة الحال قد انفصلت بهذه الواو عن صاحبها وتباعدت عنه ، إن الأمر على عكس هذا ، لأن هذه الواو قد قربت الحال من صاحبها وأبرزتها جلية واضحة شديدة الالتصاق به ، مؤكدة الانتساب إليه ـ كما وضحت لك ـ وإذ قد عرفت ذلك فاعلم أن الجملة الحالية قد يجب اقترانها بالواو وقد يمتنع وقد يجوز ... وإليك البيان .

---

(١) القتود بضم القاف جمع قتد وهو خشب الرحل المعهود . وسفعه : لفحه بحره فغير لونه ، وسفعته النار كذلك . والقديديمة : تصغير قدام ظرف مكان . والجوزاء : من منازل الشمس . ويوم مسموم : هبت فيه ريح السموم بكثرة وهى ريح حارة . .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

إذا كانت الحال جملة فعلية فعلها مضارع مثبت غير مقرون بقد امتنع اقترانها بالواو كما فى قوله تعالى : « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا »(١). وقوله عز وجل : « وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ »(٢). وقوله جل وعلا : « وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ »(٣). وقوله عز من قائل : « وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى »(٤). ومنه قول الشاعر :

وقد علوت قتود الرحل يسفعنى ... يوم قد يديمة الجوزاء مسموم

وقول الآخر :

ولقـــد أغتدى يدافع ركنى ... أحوذى ذو ميعة إضريج(٥)

أما ماجاء من نحو قول العرب : قمت وأصك عينه ، وقول عبد الله ابن همام السلولى :

فلما خشيت أظافيرهم ... نجوت وأرهنهم مالـكا

وقول عنترة العبسى :

علقتها عرضا وأقتل قومها ... زعما لعمر أبيك ليس بمزعم

فقيل : إن مافى المثال شاذ وما فى البيتين ضرورة ، وقيل إنه على حذف المبتدأ والتقدير : قمت وأنا أصك .. نجوت وأنا أرهنهم .. علقتها عرضا وأنا أقتل .. وقال عبد القاهر : ليست الواو للحال بل هى للعطف والفعل المضارع فى تأويل الماضى والمعنى : قمت وصككت .. نجوت ورهنت .. علقت وقتلت ..

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٨ . (٢) سورة المدثر الآية ٦ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١١٠ . (٤) سورة الليل الآية ١٧ ، ١٨

(٥) الأحوذى : السريع فى السفر وفى غيره ، وصف الفرس ، والإضريج : الفرس الجواد ، الواسع اللبان الشديد العدو ، وذو ميعة : ذو ليونة وسهولة فى السير .

وإن كان المضارع مقرونا بقد وجب اقتران الجملة بالواو كما قوله تعالى: « وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ . . »(١) ، وكقولك : لم لم تستعد وقد ترحل غداً ..

وإن كان المضارع منفيا جاز أمران : اقتران الجملة بالواو ، وترك الواو. والمضارع المنفي يظل مضارعا إذا كان النفي بغير لم ولما ، أما المنفي بلم أو لما فهو ماض معنى؛ لأن لم ولما يقلبانه إلى الماضي ، وهو أي المنفي بلم وبلما تجوز فيه الأمران أيضا .. فمما جاء بالواو قوله تعالى: «فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ »(٢)، في قراءة من قرأ بتخفيف النون ، وكقولهم : « كنت ولا أخشى بالذئب » ، أي : لا أخوف به ... وقولهم : يصيب ولا يدرى ويقول ولا يفعل . . وكقول مسكين الدارمي :

أكسبته الورق البيض أبا ولقد كان ولا يدعى لأب

ولقول مالك بن رفيع وكان قد جنى جناية فطلبه مصعب بن الزبير :

بغاني مصعب وبنو أبيه فأين أحيد عنهم لا أحيد
أقادوا من دمي وتوعدوني وكنت وما ينهنهني الوعيد

فكان في هذه الشواهد تامة بمعنى : وجد وقد اقترنت الجملة الحالية بالواو كما ترى وفعلها مضارع منفي . . ومما جاء بغير الواو قوله تعالى : « وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ »(٣) وقوله عز وجل : « وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . »(٤) وقول الشاعر :

إن تلقني لا ترى غيرى بناظرة تنس السلاح وتعرف جبهة الأسد

---

(١) سورة الصف آية ٥ .
(٢) سورة يونس آية ٨٩ .
(٣) سورة المائدة آية ٨٤ .
(٤) سورة النساء آية ٧٥ .

وقول الآخر :

لو أن قوما لارتفاع قبيلة　　دخلوا السماء دخلتها لا أحجب

وقوله :

عهدتك ماتصبو وفيك شبيبة　　فما بالك بعد الشيب صبا متيما

وكذلك إذا كانت الجملة الحالية جملة فعلية فعلها ماض لفظا أو معنى جاز الأمران أيضا اقترانها بالواو ، وعدم اقترانها ، والماضى لفظا لا يقع حالا إلا وهو مقرون بقد ظاهرة أو مقدرة ، والماضى معنى هو المضارع المنفى بلم أو لما - كما ذكرت - . فمما جاء بالواو قوله تعالى : « أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ . . »[1] ، وقوله عز وجل : « أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا . . »[2] ، وقول امرىء القيس

أيقتلنى وقد شغفت فؤادها　　كما شغف المهنوأة الرجلُ الطالى

وقوله أيضاً :

فجئتُ وقد نضّت لنوم ثيابها　　لدى السّتر إلا لبسة المتفضل

فالجمله الحالية كما ترى فعلها ماض لفظا وقد اقترن بالواو . . وبما جاء فعلها ماضيا معنى وقد اقترن بالواو أيضا قوله تعالى : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ »[3] ، وقوله عز وجل : « أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . . »[4] .

وقول كعب بن زهير :

لاتأخذنى بأقوال الوشاة ولم　　أذنب وإن كثرت فى الأقاويل

وقوله عز من قائل : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ

---

(١) سورة آل عمران آية ٤٠ .　　(٢) سورة مريم آية ٨ .

(٣) سورة الأنعام آية ٩٣ .　　(٤) سورة مريم آية ٢٠ .

«مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ..»[1].. ومما جاء بلا واو قوله تعالى: «أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ»[2].. وقول الشاعر:

وإنى لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

وقول الآخر:

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله والليل قد مزقت عنه السرابيل

وكقوله تعالى: «فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ»[3]

وقوله عز وجل: «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا..»[4]

وقول زهير:

كأن فتات العهن فى كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم[5]

وإذا كانت جملة الحال اسمية فالأولى أن تأتى بالواو كقولك جاء زيد وعمرو أمامه، وأتانى وسيفه فى يده وكقول امرىء القيس:

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وقوله أيضا:

ليالى يدعونى الهوى فأجيبه وأعين من أهوى إلى رواني[6]

وقد يأتى بدون الواو كقولك: كلمته فوه إلى فى، ورجع عوده على بدئه. وقول الشاعر:

ولولا جنان الليل ما آب عامر إلى جعفر سرباله لم يمزق

فإن كان المبتدأ فى الجملة الحالية ضمير صاحب الحال وجبت الواو

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٤. (٢) سورة النساء آية ٩٠.

(٣) آل عمران آية ١٧٤. (٤) سورة الأحزاب آية ٢٥.

(٥) الفتات: اسم لما انفت وتقطع من الشيء. والعهن: الصوف المصبوغ. والفنا: عنب الثعلب..

(٦) روان: جمع رانية أى: مديمات النظر.

ولا تصلح جملة الحال بدونها البتة ، كقولك : جاء زيد وهو راكب ودخلت عليه وهو على الحديث .. فلا يجوز أن تقول : « جاء زيد هو راكب » ، ولا « دخلت عليه هو على الحديث » ومن ذلك قوله تعالى : « فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »(١) ؛ وقوله جل وعلا : « وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ .. »(٢)

وإن كان الخبر فى الجملة الحالية ظرفا أو جارا ومجرورا وقدم على المبتدأ كثر فيها أن تجىء بغير الواو كقولك : قدم المقاتل على كتفه سيف وأقبل فى يده سوط ، وقول بشار :

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها خرجت مع البازى على سواد(٣)

وقول الآخر :

فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا فى رأس غمدان دارا منك محلالا(٤)

ويقل مجيئها عندئذ بالواو كقولك : جاء وعليه ثوب ، ومر وفى يده سيف وقد جاءت فى النظم الكريم بالواو وبدونها ...

قال تعالى : « وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ »(٥) ، وقال عز قائلا : « وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ »(٦) ، وقد مر بك السر البلاغى الكامن وراء ذكر الواو وتركها فى الآيتين الكريمتين ..

ومما يجىء بالواو فى الأكثر ، ثم يأتى بغير الواو فى مواضع فيلطف مكانه ، الجملة قد دخلتها « ليس » . تقول : أتانى وليس عليه ثوب ، ورأيته وليس معه

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢ . (٢) سورة البقرة آية ١٨٧ .

(٣) البازى ويقال له أيضا الباز : ضرب من الصقور وعلى سواد : أى بقية من الليل .

(٤) غمدان بضم الغين : حصن بصنعاء ، ومحلال : لينة سهلة يحل الناس بها كثيرا ، والبيت لأمية بن أبى الصلت فى مدح سيف بن ذى يزن ..

(٥) سورة الحجر آية ٤ . (٦) سورة الشعراء آية ٢٠٨ .

شيء ... هذا هو الكثير المستعمل ، وقد جاءت بدون الواو لحسن موقعها ولطف ، كما في قول الاعرابي :

لنا فتى وحبذا الإفتاء تعرفه الأرسان والدلاء
إذا جرى في كفه الرشاء خلى القليب ليس فيه ماء(١)

وقد تجد أن الجملة الاسمية جاءت بغير واو لحسنت ، ثم تنظر وتتأمل فتجد أن سبب الحسن دخول حرف على المبتدأ ، كما في قول الفرزدق :

فقلت عسى أن تبصريني كأنما بني حوالي الأسود الحوارد(٢)

فإنه لولا دخول « كأن » على المبتدأ لم يحسن الكلام إلا بالواو بأن يقال: عسى أن تبصريني وبني حوالي الأسود ..

وشبيه بهذا أن ترى الجملة قد جاءت حالا عقب مفرد فلطف مكانها وحسن ، ولو أردت أن تجعلها حالا من غير أن يتقدمها هذا المفرد لم يحسن، كما في قول ابن الرومي :

والله يبقيك لنا سالما برداك تبجيل وتعظيم

فقوله : « برداك تبجيل » في موضع حال ثانية، ولو لم أنك أسقطت «سالما» من البيت فقلت : والله يبقيك برداك تبجيل وتعظيم لم يكن شيئا(٣) ..

وقد تجد الجملة الحالية جملة اسمية والمبتدأ فيها ضمير يعود إلى صاحب الحال وعلى الرغم من هذا تمتنع الواو بلاغة ، كما في قوله تعالى :

---

(١) الأرسان : جمع رسن وهو الحبل . والرشاء : حبل الدلو . والقليب : البئر . . وخلى القليب : تركه .
(٢) الحوارد : الغضاب مفرده حارد .
(٣) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٢٢ .

« وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ »(١)، بجملة : « هم قائلون » ، حال ثانية وقد صدرت بضمير يعود إلى صاحبها ، فحقهـا أن تكون بالواو ، ولكن الواو امتنعت هنا ، وامتناعها لسر بلاغي وهو كراهة أن يتوالى حرفا عطف وهما « أو والواو » في اللفظ ، فلما استقبح توالبهما امتنعت واو الحال ..

* * *

الفصل الرابع

الإيجاز والإطناب

لكل مقام مقال ، والبلاغة كما عرفها البلاغيون ، مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فالحال قد تقتضى الإيجاز فى القول وطى الكلمات وعندئذ تكون البلاغة فى أن يوجز المتكلم ويختصر كلامه ، وقد تقتضى الإطناب وإطالة القول وعندئذ تكون البلاغة فى الإسهاب وإشباع القول وإطالة الكلام .. ولذا قال الأعرابى عندما سئل عن البلاغة : « البلاغة : الإيجاز فى غير عجز والإطناب فى غير خطل » ، وسأل معاوية صحار العبدى ، ما تعدون البلاغة فيكم ؟ فقال صحار : الإيجاز « قال معاوية : وما الإيجاز؟ فأجاب : أن تجيب فلا تبطىء وتقول فلا تخطىء »[1] ..

وقال عبد الله بن المقفع : « البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ، فمنها مايكون فى السكوت ومنها ما يكون فى الاستماع ومنها مايكون فى الإشارة ومنها ما يكون فى الاحتجاج ومنها ما يكون جوابا ومنها مايكون شعرا ومنها ما يكون سجعا وخطبا ومنها ما يكون رسائل ، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحى فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة ، فأما الخطب بين السماطين وفى إصلاح ذات البين ، فالإكثار فى غير خطل والإطالة فى غير إملال ، وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته ، فقيل له : فإن مل السامع الإطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقف ؟ ، قال : إذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/٩٦ .

يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فإنه لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شيء لاتناله ، وقد كان يقال : رضا الناس شيء لا ينال . . »[1] . . وقد امتدحوا الإيجاز كثيراً فقالوا : البلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى .. البلاغة لمحة دالة .. البلاغة كلمة تكشف عن البقية ... ولعل السبب في هذا يرجع إلى أمية العرب ، وإلى أنهم أمة صافية الذهن ، دقيقة الحس ، سريعة الفهم ، فالعربي تكفيه الإشارة وتغنيه اللمحة ، وغير العربي يحتاج إلى الإطالة وإشباع القول ، وبهذا علل الجاحظ إيجاز القرآن الكريم عند خطاب العرب والأعراب ، والبسط والإطالة عند خطاب بني إسرائيل .[2] وهذا ما يفسر لنا أيضاً سر السؤال الذي وجه إلى ابن المقفع في قوله المذكور والذي تدرك منه رائحة الاعتراض على مدح الإطناب في موضعه وفي مقامه الذي اقتضاه : « فإن مل السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف .. » ..

وبهذا يتضح لك أن للإيجاز مقامات تقتضيه ، ومواضع تلائمه ، كالحكم والأمثال ، كما أن للإطناب مقامات تقتضيه ، ومواضع تلائمه ، كالمدح والفخر والوعظ ، وما يحسن فيه الإيجاز لايحسن فيه الإطناب ، وكذلك ما يحسن فيه الإطناب لايحسن فيه الإيجاز ، ومن مقامات الإيجاز مقامات الحذف التي عرفتها في باب المسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل ، كما أن من مقامات الإطناب تلك المقامات التي وقفت عليها عند دراستك لذكر المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل[3] ..

* * *

الإيجاز : معناه وأنواعه : وقد عرفوا الإيجاز بأنه : اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل .. أو عرض المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة مع الإبانة والإفصاح ليسهل تعلقها بالذهن وتذكرها عند الحاجة إليها في المناسبات المختلفة .. وهو نوعان :

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٥ . (٢) انظر الحيوان ١/٩٣ .

(٣) ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب .

١ - إيجاز قصر . ٢ - إيجاز حذف .

فإيجاز القصر هو الدلالة على المعانى الكثيرة بألفاظ قليلة ، أى : تضمين العبارات القليلة القصيرة معانى كثيرة غزيرة ، دون أن يكون فى تراكيبها لفظ محذوف .. كما فى قوله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ »[١] ، فقد جمع فى هذه الآية الكريمة جميع مكارم الأخلاق ؛ لأن فى « العفو » الصفح والإغضاء ومسامحة من أساء والرفق فى كل الأمور ، وفى الأمر بالعرف ، صلة الأرحام ومنع اللسان عن الكذب والغيبة ، وغض الطرف عن كل محرم ، والقيام بمتطلبات الدعوة إلى الله عز وجل ، وفى الإعراض عن الجهال : الصبر والحلم وكظم الغيظ .. فهذه ألفاظ قليلة وقد فاضت معانيها إلى الغاية ، وزادت عن الحد إلى غير نهاية .. ومن ذلك قوله تعالى : « أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ »[٢] فقددلت هذه الجملة من الآية الكريمة على استقصاء جميع الأشياء والشئون ، حتى روى أن ابن عمر رضى الله عنهما قرأها فقال : « من بقى له شىء فليطلبه » ... ومنه قوله عز وجل : « أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ »[٣] ، فهذه الجملة يدخل تحتها كل أمر محبوب وينتفى بها كل صنوف المكاره .. وقوله تعالى : « انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً »[٤] ، فتلك ثلاث كلمات حوت معانى غزيرة ، إذ شملت الأمر بالنفير العام للجهاد ، وقطعت جميع الحجج والذرائع المعوقة عن الجهاد .. وقوله عز وجل : « أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا »[٥] ، فقد دلت هذه الآية الكريمة على جميع ما أخرج من الأرض قوتا ومتاعاً للناس والدواب من عشب وشجر وحطب ولباس ونار وماء وغير ذلك .. وانظر إلى قوله عز من قائل فى وصف

---

(١) سورة الأعراف آية ١٩٩ .
(٢) سورة الأعراف آية ٥٤ .
(٣) سورة الأنعام آية ٨٢ .
(٤) سورة التوبة آية ٤١ .
(٥) سورة النازعات آية ٣١ .

انتهاء الطوفان : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »(١) فقد قصت القصة مستوعبة بحيث لم يخل بشيء منها فى أوجز عبارة وأخصر قول .. ومن المشهور فى هذا الباب قوله تعالى : « وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ »(٢) ، إذ المراد به أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل قتل كان ذلك داعيا قويا له إلى أن يكف عن القتل ولا يقدم عليه فأوجب ذلك حياة الناس، فانظر كيف اندرجت المعانى المتكاثرة تحت هذه الألفاظ القليلة .. وقد كان أوجز كلام قيل فى هذا المعنى ، قول العرب : « القتل أنفى للقتل » ، ولكن الآية الكريمة بنظمها الدقيق المعجز ، وبلاغتها السامية، فاقت هذا القول من وجوه متعددة أهمها :

١ ـ فيما قالوه تكرار ، والنظم الكريم لا تكرار فيه ..

٢ ـ ليس كل قتل نافيا للقتل ، إذ لا ينفى القتل القتل إلا إذا كان على حكم القصاص ، وهذا ما تفيده الآية الكريمة دون القول المذكور .

٣ ـ فى الآية طباق لطيف بين القصاص والحياة .. والضد يظهر حسنه الضد ..

٤ ـ الآية جعلت القصاص كالأصل للحياة وذلك بدخول الحرف « فى » عليه ، وفى ذلك مالا يخفى من المبالغة الجميلة والتخييل العجيب ، إذ جعل الفناء محلا للحياة ..

٥ ـ الآية الكريمة أوجز من القول المذكور .

٦ ـ فى تنكير كلمة « حياة » إفادة للتعظيم والتنويع ، فهى حياة عظيمة فريدة ، تمتاز عن حياة البشر وكأنها حياة مستقلة خاصة ، إذ إن من هم بالقتل عندما يعلم أنه سيقتص منه فإنه يرتدع وينزجر ويكف عن القتل فيسلم صاحبه فيسلم هو فيحيا ويحيا صاحبه .. تلك حياة عظيمة فريدة ..

(١) سورة هود آية ٤٤ . (٢) سورة البقرة آية ١٧٩ .

٧ - تخلو الآية الكريمة من لفظ « القتل » المشعر بالوحشة ، وإشارتها إلى تحقيق العدل بلفظ القصاص ...

ومن شواهد إيجاز القصر أيضا قوله تعالى : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ »(١) ، أي : لاشفاعة ولا طاعة فليس المراد نفي طاعة الشفيع بمعنى أن الشفيع يوجد ولكن لايطاع ، بل المراد أنه لاشفاعة أصلا .. ومنه قول امرىء القيس :

على لاحب لايهتدى بمناره   إذا سافه العود النباطى جرجرا(٢)

أي : لامنارة ولا اهتداء .. وقول أوس بن حجر :

لايفزع الأرنب أهوالها   ولا ترى الضب بها ينجحر(٣)

أي : لا أرنب ولا فزع ، ولا ضب ولا انجحار .. ففي هذه الشواهد قد انتفى القيد والمقيد معا . والنفي موجه إلى القيد فقط ، ولايخفى عليك مافي هذا من إيجاز .. وانظر إلى قول الشريف الرضي :

مالوا إلى شعب الرحال وأسندوا
أيدي الطعان إلى قلوب تخفق(٤)

فإنه لما أراد أن يصف هؤلاء القوم بالشجاعة في أثناء وصفهم بالغرام عبر عن ذلك بقوله : وأسندوا أيدي الطعان إلى قلوب تخفق ..

---

(١) سورة غافر اية ١٨ .

(٢) اللاحب : الطريق : والمنار : العلامة تجعل على الطريق . وسافه : شمه ، والعود : الجمل المسن والنباطى : الضخم وجرجر : ضج ورغا ، وإنما يرغو الجمل لمعرفته ببعد الطريق ومشقة السير فيه ..

(٣) ينجحر : يدخل جحره .. يصف مفازة بأنها غير مطروقة للناس ..

(٤) شعب الرحال بضم الشين : خشبها ، وميلهم إليها إشارة إلى ركوبهم عليها ورحيلهم للقتال وتخفق : تضطرب اعراق الأحبة ..

وقول أبي تمام :

وظلمت نفسك طالبا إنصافها فعجبت من مظلومة لم تظلم

أراد : أكرهتها على تحمل الصعاب والمشاق فأنصفتها بذلك إذأوجبت لها مجدا عريقا وذكراً حسناً ، فصارت بهذا الصنيع مظلومة لم تظلم ..

وقول الآخر :

وإن هو لم يحمل عن النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل

فقد جمع فى البيت الصفات الحميدة من شجاعة وسماحة ومروءة ونجدة وإغاثه ملهوف وغير ذلك ؛ لأن هذه الصفات من ضيم النفس ، إذ تجد بحملها مشقة وعناء ..

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أوتى جوامع الكلم ، والكلام الجامع هو الذى تتكاثر معانيه وتقل ألفاظه ، ومن جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام : « لاضرر ولا ضرار » ، « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » ، « إن الله لايمل حتى تملوا » « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وعودوا كل جسم ما اعتاد » فتلك ألفاظ قليلة حوت معانى كثيرة يطول بك القول لوصفها والإحاطة بها ... ومن إيجاز الكتاب ، ما كتبه عمرو بن مسعدة إلى المأمون بشأن رجل يهمه أمره إذ قال فى كتابه : « كتابى إليك كتاب واثق بمن كتب إليه معنى بمن كتب له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله » ..

وما كتبه إليه أيضا يحثه على تعجيل أرزاق الجند : « كتابى إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن مايكون عليه جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، فاختلت لذلك أحوالهم والتاثت معه أمورهم » ولا يخفى عليك ما فى الكتابين من معان غزيرة صيغت فى عبارات قليلة وألفاظ موجزة ، وهذا هو شأن إيجاز القصر الذى يجرى مجرى الأمثال فى الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة ..

انظر إلى ما كتبه جعفر بن يحيى البرمكي ووقع به في كتاب رجل شكا إليه بعض عماله : « قد كثر شاكوك وقل شاكروك فإما اعتدلت وإما اعتزلت » ..

• • •

أما إيجاز الحذف ، فقد عرفه البلاغيون بأنه : التعبير عن المعاني الكثيرة في عبارة قليلة وذلك بحذف شيء من التركيب مع عدم الإخلال بتلك المعاني .. ولا بد في كل حذف من وجود أمرين : داع يدعو إليه ، وقرينة تدل على المحذوف وترشد إليه وتعينه .. والمحذوف إما أن يكون جزء كلمة ، أو كلمة أو جملة أو أكثر من جملة .. وإليك بيان ذلك :

حذف جزء الكلمة : كما في قوله تعالى : « أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا »[1] ، فالأصل : ولم أكن بغيا وقد حذفت النون تخفيفا .. وقوله عز وجل : « وَنَادَوْا يَا مَالِ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ : إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ »[2] ، في قراءة من قرأ بترخيم المنادى ، والأصل : يا مالك ، فحذفت الكاف إشارة إلى ما هم فيه من ألم وعذاب وضيق وحزن .. ومنه قول لبيد :

« درس المنا بمتالع فأبان »

أراد : درس المنازل .. ومنه قول علقمة بن عبدة :

كأن إبريقهم ظبي على شرف   مفدم بسبا الكتان ملثوم

أراد : بسبائب الكتان .. وقول الحارث الجرمي :

قومي هم قتلوا أميم أخي   فإذا رميت يصيبني سهمي

أراد : يا أميمة ، فحذف حرف النداء ، ورخم المنادى فحذف منه

(١) سورة مريم آية ٢٠ .   (٢) سورة الزخرف آية ٧٧ .

التامة. وارجع إلى باب المسند إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب لتقف على الأسرار البلاغية الكامنة وراء الحذف في هذه الشواهد.

حذف الكلمة : وله صور كثيرة أهمها :

١ — حذف الحروف ، كحذف همزة الاستفهام في قوله تعالى : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ »[1] ، إذ المراد : أمثل الجنة التي وعد المتقون كمن هو خالد في النار . . ؟ فحذفت الهمزة . وفي حذفها زيادة تصوير لعناد المعاندين ومكابرة المكابرين الذين يسوون بين الحق والباطل وبين من يتمسك بالبينة ومن يتبع هواه . . يقول الزمخشري : « فإن قلت » : مامعنى قوله تعالى : « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار . كمن هو خالد في النار » ؟ ، قلت : هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي والإنكار ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ودخوله في حيزه وانخراطه في سلكه وهو قوله تعالى : « أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ » ، فكأنه قيل : أمثل الجنة كمن هو خالد في النار ؟ ، أي : كمثل جزاء من هو خالد في النار ، فإن قلت : فلم عري من حرف الإنكار وما فائدة التعرية ؟ قلت : تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار ، وبين النار التي يسقى أهلها الحميم . . »[2] . ومنه قوله تعالى : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ

---

(١) سورة محمد آية ١٥ .   (٢) الكشاف ٣/٥٣٣ .

بَنِي إِسْرَائِيلَ »[1] ، إذ المراد : أو تلك نعمة . . ؟ وقوله عز وجل : « وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ : وَمِنْ ذُرِّيَّتِي »[2] ، أي : أو من ذريتي ؟ . . فحذفت الهمزة في الوضعين[3] . . وكحذف « لا » النافية كما في قوله تعالى : « قَالُوا : تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ »[4] ، أي : لا تفتأ . . وكحذف حرف النداء كما في الآية الكريمة : « يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا . . »[5] . . وكما في البيت :

قومي هم قتلوا أميم أخي … فإذا رميت يصيبني سهمي

إذ المراد : يا يوسف أعرض . . يا أميمة . فحذف حرف النداء[6] .

٢ ـ حذف المسند إليه أو المسند أو أحد متعلقات الفعل كالمفعول والحال والجار والمجرور ، على نحو ما مر بك في تلك الأبواب .

٣ ـ حذف المضاف ، كما في قوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا »[7] ، أي أهل القرية وأصحاب العير ، فحذف المضاف في الموضعين ، وحذفه يشير إلى شهرة السرقة وذيوعها وكأنهم يريدون : أن أمر سرقته قد اشتهر وذاع إلى حد أنك لو سألت الجمادات لأجابت ، ولو سألت الحيوانات انطقت وأخبرت . . ومنه قوله تعالى : « وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً »[8]

---

(١) سورة الشعراء آية ٢٢ . (٢) سورة البقرة آية ١٢٤ .

(٣) ارجع إلى أسرار هذا الحذف في رسالتنا الحذف في ضوء أساليب القرآن .

(٤) سورة يوسف آية ٨٥ (٥) سورة يوسف آية ٢٩ .

(٦) ارجع إلى باب المسند إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب

(٧) سورة يوسف آية ٨٢ . (٨) سورة البقرة آية ١٧١ .

إذ المراد . ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع ، فحذف المضاف وهو « داعى » رفعاً لشأنه وتنزيها له عن أن يقرن فى اللفظ بهذا الذى ينعق بما لا يسمع وأن يضاف إلى الذين كفروا . . وحذف المضاف يقع كثيرا فى النظم الكريم على نحو ما نرى فى الآيات الكريمة : « وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ » ، أى : فى سبيل الله « حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » أى : تناول طيبات . « لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ » أى : رحمة الله ونعيم اليوم الآخر . « إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً » أى : من عذابه وقد ظهرت هذه المضافات فى الآية الكريمة « وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً » . ومنه قوله عز وجل : « فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ » أى : فى مراودته .

٤ — حذف المضاف إليه : كما فى قوله تعالى : « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ »[1] ، أى : بعشر ليال ، وقوله تعالى : « لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ »[2] أى : من قبل الغلب ومن بعده .

٥ - حذف الموصوف : كما فى قوله تعالى . « وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ »[3] ؛ أى : حور قاصرات الطرف . وقوله عز وجل : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ »[4] أى : وعمل عملا صالحا فاكتفى بالصفة عن الموصوف فى الآيتين لذيوع الصفة وشهرتها .

٦ — حذف الصفة : كما فى قوله تعالى : « أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ

(١) سورة الأعرف آية ١٤٢ .
(٢) سورة الروم آية ٤ .
(٣) سورة ص آية ٥٢ .
(٤) سورة مريم آية ٦٠ .

سَفِينَةٍ غَصْبًا »[1]، أى : يأخذ كل سفينة صالحة ، بدليل قوله : « فأردت أن أعيبها .. » ، والحذف هنا يوحى بجبروت هذا الملك وإفساده وشدة ظلمه ، فغصبه ليس قاصراً على الصالح من السفن ، بل تجاوزه إلى غير الصالح ، فغايته هى الغصب والاستيلاء ، فالحذف فى الآية يصور مدى طغيان الملك وشدة ظلمه ..

٧ — حذف القسم : كقوله تعالى : « لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا »[2] ؛ أى : تالله لئن لم ينته .. وقوله عز وجل : « وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ »[3] أى : والله لئن لم يفعل، فحذف القسم فى الموضعين.

٨ — حذف جواب القسم : كقوله تعالى : « وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ »[4] ؛ فقد حذف جواب القسم لوضوحه وبيانه ، وتقديره : لتبعثنّ .

٩ — حذف الشرط : كقوله تعالى : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ »[5]، وقوله عز وجل : « فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا »[6] والتقدير : فإن تتبعونى يحببكم الله .. فإن تتبعنى أهدك صراطاً سويا.

١٠ — حذف جواب الشرط : كما فى قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »[7] ، أى : أعرضوا ،

(١) سورة الكهف آية ٧٩ .
(٢) سورة الأحزاب آية ٦٠ .
(٣) سورة يوسف آية ٣٢ .
(٤) سورة الفجر آية ١-٥ .
(٥) سورة آل عمران آية ٣١ .
(٦) سورة مريم آية ٤٣ .
(٧) سورة يس آية ٤٥ .

بدليل قوله بعده : « وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ » وهذا الحذف يشير إلى أنه كان ينبغى لهم أن يستجيبوا ويقبلوا النصح فيحذروا التقوى ، وما كان ينبغى لهم الإعراض والتولى ؛ وكأن طيه من اللفظ ينبىء بضرورة التخلى عنه وإسقاطه من الأذهان والمسارعة إلى قبول الهداية والحق . . ومنه قوله تعالى : « وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ »(١) ؛ والتقدير : حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها سعدوا وحصلوا على النعيم المقيم الذى لا يحيط به الوصف . . . وبلاغة حذف الجواب هنا تكمن فى أن النفس تذهب فى تقدير الجواب المحذوف كل مذهب ، وفى الدلالة على أنه شىء لا يحيط به الوصف ولا تتسع له العبارة . . وتأمل ماوراء هذه الواو « وفتحت » من تكريم وتشريف لهؤلاء الذين اتقوا ، فقد فتحت لهم أبواب الجنة قبل أن يأتوها تكريما لهم وتعظيما لشأنهم ، ثم انظر إلى وصف الذين كفروا : « وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا »(٢) تجد أن « فتحت » قد جاءت بدون واو فهى جواب « إذا » ، ومجيئها بدون الواو يشير إلى شدة مواجهتهم بالعذاب ، فأبواب جهنم مغلقة لا تفتح إلا عند وصولهم إليها « إذا جاءوها فتحت أبوابها » حتى تواجههم بصنوف العذاب وألوان الآلام ... أما أبواب الجنة فتفتح قبل مجىء الذين اتقوا وتجهز قبل وصولهم وتعد، تكريما لهم وتعظيما « جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ »(٣) . . ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ »(٤) . . وقوله جل وعلا :

---

(١) سورة الزمر آية ٧٣ . (٢) سورة الزمر آية ٧١ .

(٣) سورة ص آية ٥٠ . (٤) سورة السجدة آية ١٢ .

« وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ »[1]. والتقدير : لرأيت أمراً عظيماً وشيئاً فظيعاً لا يحيط به الوصف ، فقد حذف الجواب هنا قصداً إلى إفادة التهويل والتفظيع . . ومنه قوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً »[2] ، والتقدير : لو أن قرآناً أوتى تلك القوة الخارقة لكان هذا القرآن ، فحذف جواب « لو » هنا يشير إلى وضوحه وظهوره وانصراف الأذهان إليه بمجرد التلفظ بجملة الشرط . .

١١ — حذف جواب الاستفهام : كما فى قوله تعالى : « وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ »[3] ، فحذف جواب الاستفهام وتقديره : « لا يرانا من أحد » بدليل قوله : « ثم انصرفوا » ، لأنهم لم ينصرفوا إلا بعد تأكدهم من أنه لا أحد يراهم ، والحذف هنا يشير إلى حذرهم ومبلغ حيطتهم وكأن الجواب كان همساً فى الآذان وليس أصواتاً مسموعة .

١٢ — حذف المعطوف : كما فى الآية الكريمة : « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا »[4] ، أي : لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل ، فحذف المعطوف لدلالة ما بعده عليه .

حذف الجملة : والمراد بالجملة ، الجملة التامة التى تفيد معنى مستقلا ولا تكون جزءاً من كلام آخر ، ولهذا لا يدخل فيها حذف المعطوف

(١) سورة الأنعام آية ٢٧ (٢) سورة الرعد آية ٣١ .
(٣) سورة التوبة آية ١٢٧ (٤) سورة الحديد آية ١٠ .

وحذف الأجوبة : جواب القسم وجواب الشرط وجواب الاستفهام ؛ لأنها وإن كانت جملة فهي لا تستقل بالإفادة ، بل هي .. من كلام آخر ومن أجل هذا عددناها من قبيل حذف الكلمة .. ومن حذف الجملة قوله تعالى : « وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا »(١) ، والتقدير : فضرب فانفجرت ، فحذفت جملة : ضرب ، وحذفها يشير إلى سرعة إجابة موسى — عليه السلام — وامتثاله لأمر ربه .. ومنه قوله تعالى : « لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ »(٢) ، والمعنى : فعل ما فعل من كسر قوة أهل الشرك ، ليحق الحق ويبطل الباطل .. وقوله جل وعلا : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »(٣) ، فحذفت جملة الحال والتقدير : وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل وهما يقولان : ربنا تقبل منا .. وهذا الحذف يصور لنا المشهد حيا بارزا ، مشاهدا وكأنك تراه الآن ، وتشاهد إبراهيم وإسماعيل وهما يدعوان بهذا الدعاء . فكم في الانتقال هنا من الخبر إلى الدعاء من إعجاز فني بارز يكمن وراء طي جملة الحال(٤) ..

ومنه قول أبي الطيب :

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته ... فسرهم وأتيناه على الهرم

أي : وأتيناه على الهرم فساءنا ، والحذف في البيت ينبئ عما في نفس الشاعر من ضيق وألم لإدبار الدهر عنه وعدم تحقيق ما يصبو إليه من مجد وآمال ..

---

(١) سورة البقرة آية ٦٠ (٥) سورة الأنفال آية ٨ .
(٣) سورة البقرة آية ١٢٧ .
(٤) انظر التصوير الفني في القرآن ص ٥٩ .

حذف أكثر من جملة : كما فى قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ . يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ »(١). والتقدير : فأرسلون إلى يوسف لأستعبره الرؤيا فأرسلوه إليه فأتاه وقال له : يوسف أيها الصديق أفتنا .. ومثله قوله تعالى : « فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا »(٢)، والتقدير : فأتياهم فأبلغاهم الرسالة فكذبوهما فدمرناهم .. ويكثر هذا الحذف فى النظم القرآنى ولا سيما فى ميدان القصص حيث يستغنى عن التفصيلات الجزئية التى تعرف من السياق وتفهم من قرائن الأحوال ، ففى تخطيها وصول إلى العناصر الجوهرية فى القصة وإبرازها جلية واضحة ، وفى تخطيها أيضاً حث للمخاطب وتحريك لمشاعره وإثارة لذهنه ، إذ يفهم تلك المشاهد المطوية ويقف عليها من خلال تأمله وتدبره أحداث القصة ووقوفه على سياقها وقرائن أحوالها ..

قرائن الحذف : ولا بد فى الحذف من قرينة تدل على المحذوف ، وترشد إليه وتعينه ، وإلا كان الحذف عبثاً وضرباً من الهذيان إذ يؤدى عندئذ إلى اللبس والإشكال وعدم فهم المراد .. وقرائن الحذف قد تكون لفظية ، كما فى قوله تعالى : « وَاللَّائِى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِى لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ »(٣) ، فقد حذف خبر « اللائى لم يحضن » ، لدلالة خبر « اللائى يئسن » عليه وتعيينه له ، والتقدير : واللائى لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر كذلك .. ومن ذلك قوله جل وعلا : « وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ

---

(١) سورة يوسف آية ٤٥ ، ٤٦ (٢) سورة الفرقان آية ٣٦ .
(٣) سورة الطلاق آية ٤ .

رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ »(١) ، فقد حذف جواب الشرط وتقديره : وإن يكذبوك فاصبر ، ودلت عليه القرينة اللفظية وهى : « فقد كذبت رسل من قبلك ، فهذه الجملة ليست هى جواب الشرط وإنما هى علة لجواب الشرط المحذوف ، وفيها تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كى لا يحزن لإعراضهم وتكذيبهم . .

ومنها قوله تعالى : « لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا . »(٢) فقد دل المذكور : « من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » على المحذوف والتقدير : لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل . ومن أنفق من بعده وقاتل . . . هذا ولا يشترط فى المحذوف أن يكون من جنس المذكور ، بل الذى ينبغى مراعاته أن يدل المذكور على المحذوف دلالة واضحة بينة ، ولذا لا أرى عيبا فى بيت عروة بن الورد :

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا

إذ حذف الجار والمجرور من القتل الأول لدلالة « عند الوغى » عليه دلالة بينة ظاهرة ، والتقدير : إذ يقتلون نفوسهم فى السلم . . ولا فى قول الحارث بن حلزة :

والعيش خير فى ظلا ل النوك ممن عاش كدا

أراد : والعيش الناعم فى ظلال الحق خير من العيش الشاق فى ظلال العقل ، فحذف « الناعم » لدلالة « كدا » عليه ، وحذف العقل لدلالة « النوك » عليه . . ولا فى قول الآخر :

أعاذل عاجل ما أشتهى أحب من الأكثر الريث

أراد : عاجل ما أشتهى مع القلة أحب من الأكثر المبطىء ، فحذف لفظ

---

(١) سورة فاطر آية ٤ (٢) سورة الحديد آية ١٠ .

« القلة » لدلالة قوله : « الا كثر » عليه » .. ويرى كثير من البلاغيين أن المحذوف ينبغى أن يكون من جنس المذكور ولذا عدوا الحذف فى الأبيات المذكورة مخلا بالمعنى ومفسدا له ، لأن المذكور ليس من جنس المحذوف ، فهو غير واف فى الدلالة عليه ، ولا أرى - كما بينت - إخلالا فى الأبيات ، بل أرى أن القرينة اللفظية فيها قد دلت على المحذوف دلالة واضحة وافية . وهذا هو ما ينبغى أن نعتمد ه ونعول عليه ، ولا يشترط فى القرينة اللفظية أن تكون من جنس ما حذف ...

انظر إلى قول المتنبى السابق :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم

تجد أن قوله : « فسرهم » قد دل على المحذوف وتقديره : فساءنا ، دلالة واضحة بينة وهو ليس من جنسه كما ترى .. وخـــذ قوله تعالى : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا »[1] إذ المعنى - والله أعلم - أمرناهم بالطاعة ففسقوا ، فقد حذفت « الطاعة » لدلالة قوله : « ففسقوا » عليها وهو ليس من جنسها ..

وبهذا يتضح لك أن القرينة اللفظية لا يشترط فيها أن تكون من جنس المحذوف ، بل يشترط أن تكون واضحة الدلالة عليه سواء أكانت من جنسه أم من غير جنسه[2] ..

وقد تكون القرينة معنوية ، تفهم من السياق وقرائن الأحوال دون أن يصرح فى العبارة بما يدل على المحـــذوف .. كما فى قوله جل وعلا :

---

(١) سورة الإسراء آية ١٦ .

(٢) ارجع إلى الحذف فى ضوء أساليب القرآن .

« وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا »[1] ، فالمعنى - والله أعلم - وجاء أمر ربك، لأن العقل لا يجوز مجيء الرب، بل الذي يأتي هو أمره أو عذابه أو بأسه ونحو ذلك ، ومثله قوله تعالى : « هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ »[2]، أي : هل ينظرون إلا أن يأتيهم عذاب الله أو أمره . ومن ذلك قوله تعالى : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ »[3] ،

أي : حرم عليكم تناول هـذه الأشياء ؛ لأن التحريم يتعلق بالأفعال لا بالذوات وكذا القول في الآيات الكريمة : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ »[4]، أي : نكاحهن ، « قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ »[5] أي : في حبه أو مراودته ، وسياق الآيات الكريمة ينطق بالمحذوف . « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا »[6] ، ولا يعد هـذا من قبيل القرينة اللفظية . لأنه ليس مذكورا في نفس الآية ، والمخاطب يحتاج إلى مراجعة طويلة للسياق وتدبره حتى يقف على المحذوف . ومن ذلك قوله تعالى: « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا »[7] ، أي : سل أهل القرية التي كنا فيها وأصحاب العير . . . ، لأن السؤال لا يوجه إلا إلى ذوي العقول والتمييز . . وقوله عز قائلا : « قَالُوا : لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ »[8] ، أي: لو نعلم أن المكان مكان قتال ، لأنهم كانوا أخبر الناس بالحرب وفنون القتال فكيف يقولون: إنهم لا يعرفونها ؟ لابد إذاً من حذف قدره المفسرون بقولهم : مكان قتال . . ومنها قولك لمن أعرس : بالرفاء والبنين ، فقـد دلت الحال على المحذوف

(١) سورة الفجر آية ٢٢ (٢) سورة البقرة آية ٢١٠
(٣) سورة المائدة آية ٣ ، (٤) سورة النساء آية ٢٣ .
(٥) سورة يوسف آية ٣٢ . (٦) سورة يوسف آية ٣٠ .
(٧) سورة يوسف آية ٨٢ . (٨) سورة آل عمران آية ١٦٧ .

وتقديره : بالرفاء والبنين أعرست .. إلى غير ذلك من القرآن التى تدل على المحذوف وترشد إليه ...

* * *

الإطناب .. معناه وأنواعه : والإطناب فى اللغة : مصدر أطنب ، يقال : أطنب فى كلامه ، إذا بالغ فيه وطول ذيوله . وفى عرف البلاغيين معناه : زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ، أو عرض المعنى فى عبارة زائدة بحيث تحقق الزيادة فائدة ، كما فى قوله عز وجل : « رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً »(١) ، فقد أراد زكريا ـ عليه السلام ـ أن يخبر بكبره وتقدم سنه ، فجعل الألفاظ زائدة على المعانى لفائدة وهى : إظهار ضعفه ، وتأكيد الوهن ، لأنك لو قلت : رب إنى قد كبرت ، أفاد ذلك الإخبار بتقدم العمر فقط ، دون ظهور الضعف ، إذ قد تكون مع تقدم سنك قويا نشيطا ، أما الآيات فقد أخبرت عن هذا المعنى ، تقدم السن ، بوهن العظام ، واشتعال الشيب ، لتظهر ضعفا يصاحب تقدم سنه ، فالزيادة فى الألفاظ ـ كما ترى ـ إنما هى لفائدة .. ومنه قوله عز وجل : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ : هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى »(٢) ، فقد كان يكفى فى الجواب أن يقول موسى ـ عليه السلام ـ : عصا ، ولكنه أطنب وفصل فأضاف العصا إليه وذكر وظائفها بعضها مفصلا : « أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى » ، وبعضها مجملا : « لى فيها مآرب أخرى » ولعله كان يطمع فى أن يسأل عن هذه المآرب فيجيب عنها وبهذا يمتد الحديث ويطول ، لأنه فى مقام رب العزة ، وهو مقام يحلو فيه الإطناب ، لأنه مقام تعظيم وتشريف ، فالزيادة فى الجواب ـ كما ترى ـ تحقق فائدة ..

---

(١) سورة مريم آية ٤ :

(٢) سورة طه آية ١٧ ، ١٨ :

فإذا لم تحقق الزيادة فائدة فى الكلام كانت تطويلا أو حشواً ، وذلك أنها إذا كانت غير متعينة ، كالمترادفين مثل : الكذب والمين ، والنأى والبعد ، وأقوى وأقفر ، ونوم ونعاس ، وحظ ونصيب . . سميت الزيادة تطويلا . . من ذلك قول عدى بن الرقاع :

وقددت الأديم لراهشيه وألفى قولها كذباً وميناً(١)

فالكذب والمين بمعنى واحد ولا يتغير المعنى بإسقاط أحدهما . . وقول عنترة :

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

فأقوى وأقفر بمعنى واحد ، ولا يتغير المعنى بإسقاط أيهما شئت . . . وكقول الحطيئة :

قالت أمامة لا تجزع فقلت لها إن العزاء وإن الصبر قد غلبا
هلا التمست لنا إن كنت صادقة مالا نعيش به فى الناس أو نشبا(٢)

فالعزاء والصبر بمعنى واحد وكذا المال والنشب . . وكقول الآخر :

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأى والبعد

فالنأى والبعد بمعنى واحد ، وإذا أسقطت إحدى الكلمتين لا يتغير المعنى ، أى أنه لم يتعين أى الكلمتين هو الزائد . . .

هذا والحكم بزيادة كلمة من الكلمات وخلوها عن الفائدة مرتبط بالمقام والحال التى قيلت فى جوها الكلمة ، وعندما تتأمل الأبيات المذكورة لا تستطيع أن

---

(١) قددت : قطعت ، والفاعل المستتر يعود إلى الزباء ملكة تدمر والأديم : الجلد والراهشان : عرقان فى باطن الذراع والضمير المضاف إليه يعود لجذيمة بن الأبرش ملك الحيرة وقصتهما مشهورة . .

(٢) النشب بفتح النون والشين : المال الأصيل ويطلق أيضا على العقار ، يقال : نشب ونشبة وماشية .

تحكم بزيادة إحدى الكلمتين كما قال البلاغيون ؛ لأن المقام فى الأبيات يقتضى التأكيد ، ومن شأن الترادف أن يفيد التأكيد ، ثم إن الكلمات المترادفة لا تفيد معنى واحداً ، بل ذكر كثير من العلماء أن كل لفظ من الألفاظ المترادفة له ظلال جانبية وإفادات جزئية تختلف عن الآخر . . ولذا لا نستطيع القول بأن أحد اللفظين المترادفين فى الأبيات المذكورة زائد ، بل إنه مؤكد للآخر والمقام — كما ذكرت — قد اقتضى هذا التأكيد . .

وإذا كانت الزيادة متعينة سميت حشواً ، والحشو نوعان :

١ — حشو يفسد به المعنى كقول المتنبى :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب[1]

فكلمة : « الندى » فى البيت حشو أفسد المعنى . إذ المراد لا فضل فى الحياة للشجاعة والصبر والندى لولا الموت واعتقاد الشجاع والصابر والجواد أنهم ملاقو الموت ، وهذا صحيح بالنسبة للشجاعة والصبر ؛ فاسد بالنسبة للندى ، إذ الشجاع لو علم أنه خالد لن يصيبه الموت ، لكان إقدامه وشجاعته لا فضل فيهما ، لأنه أقبل على البطولة وهو على يقين بأن الموت لن يصيبه ، وكذا الصابر عندما يعلم أنه لن يموت ، يكون صبره لا فضل فيه ، وإنما تظهر مزية الشجاعة والصبر عندما يعلم صاحبهما أن الموت أمامه ثم يقبل أو يصبر فعندئذ يكون للإقدام مزية وللصبر فضل . .

أما الندى فتظهر مزيته ويبدو فضله إذا علم صاحبه أنه خالد ولن يموت ، لأن علمه بأن الموت لن يلقاه ، يدعوه إلى الإمساك وادخار المال كى ينتفع به إذ هو خالد ، فإذا جاد به عندئذ ظهر لجوده فضل وبدت له مزية ، أما إذا علم أن الموت أمامه وسيلقاه لا محالة ، فهذا يدعوه إلى البذل والعطاء ،

(١) شعوب بفتح الشين : علم جنس للمنية وهى الموت وقد جر بالكسرة من أجل الروى لأنه مما لا ينصرف جره بالفتحة .

ولا فضل للندى عندئذ ، إذ يقول لو عوتب فى بذل المال وإنفاقه : كيف لا أبذل مالا أبقى له ولا أثق بأنى سأتمتع به ؟ ولذا يقول طرفة بن العبد :

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى   وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى
فإن كنت لاتستطيع دفع منيتى   فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

ويقول مهيار الديلمى :

فكل إن أكلت وأطعم أخاك   فلا الزاد يبقى ولا الآكل

فالشجاعة والصبر لولا الموت لم يحمدا ، والندى بالضد ، ولذا كانت كلمة الندى فى البيت حشواً مفسداً للمعنى ، وقد اعتذر للشاعر بأنه يريد بذل النفس لابذل المال ، على حد قول مسلم بن الوليد :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ورد هذا الاعتذار بأن لفظ « الندى » لا يكاد يستعمل فى بذل النفس وإن استعمل فعلى وجه الإضافة ، أما مطلقا فلا يفيد إلا بذل المال .

٢ - حشو لا يفسد به المعنى ، كما فى قول زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله   ولكننى عن علم ما فى غد عمى

فكلمة « قبله » مستغنى عنها فهى حشو ، ولكن ذكرها لا يفسد المعنى ومثله قول الآخر فى رثاء أخ له :

ذكرت أخى فعاودنى   صداع الرأس والوصب

فلفظ الرأس فى البيت حشو لافائدة فيه ، لأن الصداع لا يكون إلا فى الرأس ، وليس بمفسد للمعنى ، ويؤخذ على الشاعر أيضاً ، أن مقام الرثاء لايناسبه ذكر الصداع وألم الرأس ، بل الملائم له ، ألم القلب واحتراقه .. ومنه قول أبى عدى العبلى الأموى :

نحن الرءوس وما الرءوس إذا سمت
في المجد للأقوام كالأذناب

فقوله : « للأقوام » حشو لا فائدة فيه وهو غير مفسد للمعنى .

وقول البوصيري :

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم(١)

فقوله : « من مقلة » حشو لا فائدة فيه ، لأن الدمع لا يجري إلا من العين ، وهو حشو غير مفسد للمعنى .. وقول المتنبي :

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه يا جنتي لرأيت فيه جهنما

فقوله : « يا جنتي » حشو غير مفسد للمعنى ، وقد استحسنه البعض لإفادته معنى لطيفا حيث طابق الشاعر بينه وبين « جهنم » ..

هذا - وكما ذكرت لك - ينبغي أن تعلم أن الحكم بزيادة كلمة وعدم فائدتها ، تابع للمقام والحال التي قيلت في جوها الكلمة ، ولا تستطيع أن تقطع بعدم الفائدة إلا إذا أحطت بالسياق وعرفت قرائن أحواله ، وعندما تتأمل الأبيات المذكورة والتي استشهد بها البلاغيون للحشو غير المفسد يتضح لك أن تلك الكلمات التي حكموا بزيادتها وحشوها ، قد أفادت معنى اقتضاه المقام .. تأمل : « دمعا جرى من مقلة » .. « وأعلم علم اليوم والأمس قبله » .. « عاودني صداع الرأس » .. « وما الرءوس إذا سمت في المجد للأقوام » .. تجد أن تلك الكلمات : « مقلة ، قبله ، الرأس ، للأقوام » قد أفادت تأكيدا اقتضاه المقام ، وهذا التأكيد لا ينفاد بطيها ، ولذا لا نوافق البلاغيين في قولهم بأنها حشو ولا فائدة فيها .. ونحن نقول : ذقته بفمي ورأيته بعيني وسمعته بأذني ووطأته بقدمي ، ولا يقول أحد إن تلك الكلمات :

---

(١) ذو سلم : مكان على طريق البصرة إلى مكة ..

فهى « بعينى بأذنى » بقدمى » « زائدة » لأنها أفادت تأكيداً اقتضاه المقام ، واقرأ قوله عز وجل : « إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ »(١) ، وقوله تعالى : « مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ »(٢) ، وقوله جل وعلا : « قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ »(٣) .

تجد أن التلقى لايكون إلا بالألسنة ، والقول لايكون إلا من الفم ، والقلب لايكون إلا بالجوف ، والسقف لايكون إلا من فوق ، ولا يقول قائل : إن هذه الألفاظ زائدة وليس وراءها فائدة ، لأن المقام قد اقتضاها والمعنى قد تطلبها ، فالآية الأولى مسوقة للرد على أهل الإفك وإنكار ماقالوه وخاضوا فيه ، فقد رموا بفاحشة الزنا إلى من هى ظاهرة العفاف والستر وهذا افتراء عظيم وإثم كبير ، فالمقام إذاً يقتضى أن يسجل عليهم ماخاضوا فيه ، وأنه قد خرج من أفواههم وانبعثت به ألسنتهم ، ليكون فى ذلك مبالغة فى الإنكار والرد .. وقل مثل هذا فى الآية الثانية فهى مسوقة لإنكار الظهار وإنكار التسوية بين الأبناء والأدعياء ولإفادة أن من يفعل هذا فيسوى بين الزوجة والأم فى التحريم وبين ابنه ومولاه فى الحقوق يكون كمن يجمع قلبين فى جوف واحد ، وقد اقتضى هذا أن يؤكد الكلام بذكر الجوف .. وتأمل إيثار التعبير بلفظ « لرجل » ، وما يكمن وراءه من شدة المبالغة فى الإنكار ، وذلك أن المرأة قد يتصور وجود قلبين فى جوفها ، أما الرجل فلا يمكن أن يتصور وجود قلبين فى جوفه بحال من الأحوال ..

---

(١) سورة النور آية ١٥ . (٢) سورة الأحزاب آية ٤ .

(٣) سورة النحل آية ٢٦ .

والآية الثالثة مسوقة للتخويف والترهيب وهذا يقتضى تأكيد ماحل بمن مكروا قبلهم ، فقد أتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، فكلمة « من فوقهم » أفادت من التهويل والتخويف مالا يفيده طيها ...

وبهذا يتضح لك أن الأمر يحتاج إلى مراجعة دقيقة للسياق والوقوف على قرائن أحواله . فالنظرة السريعة العاجلة تجعلك تظن أن الكلمة زائدة ولا معنى لها فى النظم فهى حشو، ولكن عند التأمل ومراجعة السياق مراجعة دقيقة واعية يظهر لك أن المقام قد اقتضاها وأن هنالك معنى دقيقاً يكمن وراءها ولو طويت لما أفيد ذلك المعنى .

• • •

أنواع الإطناب وما يكمن وراءها من دقائق بلاغية :

ويقع الإطناب فى الكلام على أنواع مختلفة أهمها مايلى :

١ - الإيضاح بعد الإبهام : وهو أن يجمل المعنى ويبهم ثم يفصل ويبين فيبدو فى صورتين مختلفتين ، وعندئذ يقع فى النفس أطيب موقع ويتمكن لديها أفضل تمكن ، لأن المعنى إذا أتى على سبيل الإجمال والإبهام تطلعت النفس وتشوقت إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح ، فعندما يأتى هذا التفصيل وذاك الإيضاح ، يكون أشد وقعاً وأقوى أثراً ؛ لأنه جاء والنفس عنه تبحث وإليه تتطلع وهم يقولون : إن الشىء إذا نيل بعد طلب ومشقة وبحث وتنقيب ، يكون أوقع فى النفس وأشد تأثيراً ، ويحدث لها بالوقوف عليه لذة ومتعة ... من ذلك قوله تعالى : « وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ »[1] فقد أبهمت الآية ماأوحى به إلى لوط - عليه

(١) سورة الحجر آية ٦٦ .

السلام – « ذلك الأمر » ، ثم فصلته و بينته : « أن دابر هـــؤلاء مقطوع مصبحين » ، ففي الإبهام إثارة للمخاطب وتحريك لفكره فيتطلع إلى إيضاح ما أبهم ، وعندئذ يأتى الإيضاح فيتقرر المعنى فى ذهن المخاطب ويقع موقعه ، وفى هذا تفخيم و تهويل للعذاب الذى حل بهم ، لأنه ذكر مرتين ، مرة على طريق الإجمال والإبهام ومرة على طريق التفصيل والإيضاح ، والشىء إذا ذكر مرتين كان آكد فى الذهن وأشد تعلقا والتصاقا بالنفس . ومنه قوله تعالى « فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى »[1] ، ذكرت الوسوسة مجملة ثم فصلت بما بعدها وعندما أجملت اشتاقت النفس وتطلعت إلى معرفتها والوقوف عليها ، فلما جاء البيان وقع فى النفس موقعاً حسناً وكذا القول فى قوله تعالى : « أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ »[2] ، ذكر ما أمدهم به مجملاً فتطلعت النفس إلى معرفته ، ثم فصل وبين فوقع فى الأنفس موقعه . . وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ »[3] ، أجملت التجارة التى تنجى من العذاب ، ثم فصلت وبينت . . ومن الإيضاح بعد الإبهام باب نعم وبئس نحو : نعم الرجل زيد وبئس الصديق عمرو ، وذلك على جعل كل من « زيد وعمرو » ، خبراً لمبتدأ محذوف ، أو مبتدأ محذوف الخبر ، فيكون الأسلوب مكونا من جملتين إحداهما مبينة ومفسرة الأخرى ، أما على جعل كل من « زيد وعمرو » مبتدأ والجملة قبله خبر ، فليس مما نحن فيـــه ؛ لأن الأسلوب عندئذ يتكون من جملة واحدة . . ومنه التوشيع وهو أن يؤتى

---

(١) سورة طه آية ١٢٠ .
(٢) سورة الشعراء آية ١٣٢ – ١٣٤ .
(٣) سورة الصف آية ١٠ ، ١١ .

في عجز الكلام غالباً مثنى مفسر باسمين أحدهما معطوف على الآخر ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « يشب ابن آدم وتشب معه خصلتان الحرص وطول الأمل . » وقوله عليه الصلاة والسلام : « الخمر من هاتين الشجرتين : النخلة والعنب » ، وقول عبد الله بن المعتز :

سقتني في ليل شبيه بشعرها شبيهة خديها بغير رقيب
فأمسيت في ليلين : شعر وظلمة وشمسين : من خمر ووجه حبيب

وقد يكون المثنى في أول الكلام ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال » ، وقد لا يكون مثنى بل جمعا ، كما في قول ابن وهيب :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها
شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

٢ — ذكر الخاص بعد العام أو العام بعد الخاص : فمن الأول قوله تعالى : « تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ . . »(١) فالروح وهو جبريل عليه السلام ، قد ذكر مرتين ، مرة مندرجاً تحت العام وهو الملائكة ومرة وحده ، وكأنه جنس آخر غير جنس الملائكة المعطوف عليهم ، وهذا تكريم له وتعظيم لشأنه ، ففي الآية إطناب طريقه ذكر الخاص بعد العام والغرض منه التنويه بشأن الخاص حيث يذكر مرتين . . ومنه قوله عز وجل : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى »(٢) ، فالصلاة الوسطى داخلة في عموم الصلوات ، وقد خصت بالذكر بعد العام تنويها إلى مزيتها وزيادة فضلها . . وقوله جل وعلا : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . . »(٣) ،

---

(١) سورة القدر آية ٤ . (٢) سورة البقرة آية ٢٣٨ .
(٣) سورة آل عمران آية ١٠٤ .

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر داخلان فى عموم الدعوة إلى الخير ، ولكنهما خصا بالذكر بعد العام إشارة إلى مكانتهما من الشرف والفضل ..
ومن الثانى قوله تعالى : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. »[1] ، فالمؤمنون والمؤمنات لفظان عامان يدخل فيهما من ذكر قبل : « لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا » ، والسر البلاغى الكامن وراء ذكر العام بعد الخاص هو العناية بشأن الخاص لذكره مرتين ، مرة بلفظه ، ومرة مندرجا تحت العام ..

٣ — التكرار : ويأتى لأغراض كثيرة ، منها إبراز المعنى وتقريره فى النفس ، كما فى قوله تعالى : « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ »[2] فقد أكد الإنذار بتكراره ليكون أبلغ تحذيرا ، وأشد تخويفاً ، وفى العطف بالحرف « ثم » ما ينبىء بأن الإنذار الثانى أقوى وأشد من الإنذار الأول ، حيث نزل بعد المرتبة منزلة البعد الزمنى فعطف بثم ، وفى هذا دلالة على التدرج فى الارتقاء .. ومن ذلك قوله جل وعلا : « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا »[3] ، فقد أفاد التكرار تأكيد المعنى وتقريره فى النفس .. ومنها استمالة المخاطب وترغيبه فى قبول النصح والإرشاد ، كما فى قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ »[4] ، ففى تكرار « ياقوم » استمالة لأنفسهم وترغيب لهم فى قبول الحق والاهتداء ، ووراء حرف النداء « يا » الموضوع لنداء البعيد تعظيم لهم وتشريف ورفع لمنزلتهم ، وفى إضافة القوم إليه « ياقوم » ، مايبدد كل شك ويزيل كل ارتياب فى نصحه وإخلاصه لهم .. ومنها التذكير بنعم الله التى لا تحصى

---

(١) سورة نوح آية ٢٨.
(٢) سورة التكاثر آية ٣ ، ٤ .
(٣) سورة الشرح آية ٥ ، ٦ .
(٤) سورة غافر آية ٣٨ ، ٣٩ .

ولا تمد ، كما في قوله تعالى : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ »[1] ، فقد ذكر جل وعلا نعمه نعمة بعد نعمة في هذه السورة الكريمة ، وعقب كل نعمة بهذا الاستفهام الذي يفيد التنبيه إلى نعمه الكثيرة والتذكير بها ، فإن قيل قد عقب بهذا الاستفهام ما ليس بنعمة كما في قوله تعالى : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ »[2] ، وقوله جل وعلا : « هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ • يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ »[3] ، قلت : العذاب وجهنم وإن لم يكونا من آلاء الله تعالى ، فإن ذكرهما ووصفهما على طريق الزجر عن المعاصي والترغيب في الطاعات ، يعد من الآلاء والنعم ، لأن التحذير من المعصية والزجر عنها نعمة منه تعالى ، إذ ينجم عن التحذير والزجر ابتعاد المؤمن عن المعاصي وعدم اقترابه منها[4] . . .

ومن أغراض التكرار المبالغة في التحذير والتنفير ، كما في قوله تعالى : « وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ »[5] ؛ فقد كررت هذه الآية الكريمة في سورة المرسلات عقب جملة من القصص والتذكير بنعمه تعالى حيث أعقب كل قصة بهذا الوعيد « ويل يومئذ للمكذبين » ، وفي هذا ما فيه من التنفير والتحذير . . ومنها الحث على التذكر والتدبر وأخذ العظة والعبرة كما في قوله تعالى : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ »[6] حيث كررت هذه الآية في سورة القمر عقب كل قصة من قصص الأمم السابقة التي كذبت وأعرضت عن رسل ربها ، فقد أخبرت عنهم السورة الكريمة وأبرزت نوع العذاب الذي حاق بكل أمة ، وأتبعت كل قصة بهذه الآية الكريمة : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » حثا على العظة والاعتبار والتأمل

(١) سورة الرحمن آية ١٣ . (٢) سورة الرحمن آية ٣٥ .
(٣) سورة الرحمن آية ٤٣ ، ٤٤ (٤) انظر الإيضاح ٢/١٢٧ .
(٥) سورة المرسلات آية ١٥ . (٦) سورة القمر آية ١٧ .

والتدبر .. ومنها أن يكرر اللفظ لطول فى الكلام كما فى قوله تعالى : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . »(١) ، وقوله جل وعلا : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .. »(٢) ، فقد كرر : « إن ربك » فى الآيتين الكريمتين لطول الكلام بين اسم إن « ربك » وبين خبرها « لغفور » ، وفيه أيضا تأكيد لمعنى الربوبية وإبراز لمعنى « الرب » المتفضل بالإنعام والمغفرة .

٤ — الإيغال : وهو ختم الكلام شعرا أو نثرا بما يفيد فائدة يتم المعنى بدونها ، كما فى قول الخنساء :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار(٣)

فقولها : « فى رأسه نار » إطناب ، لأنها شبهت أخاها « صخرا » بالعلم وهو الجبل المرتفع المعروف ووجه الشبه هو الاهتداء بكل، وقد تم التشبيه عند قولها : « كأنه علم » ، فختمت البيت بما يفيد قوة المبالغة فى التشبيه ، إذ النار فى رأس الجبل تزيده وضوحا وانكشافا وهذا أدعى لتمام الهداية وكمالها .. ومثله قول ذى الرمة :

قف العيس فى أطلال مية فاسأل

رسوما كأخلاق الرداء المسلسل

---

(١) سورة النحل آية ١١٠ .

(٢) سورة النحل آية ١١٩ .

(٣) تأتم : تقتدى والهداة : الذين يهدون الناس وإذا كانت الهداة تأتم به فمن باب أولى المهتدون بهم ..

أظن الذى يجدى عليك سؤالها دموعا كتبذير الجمان المفصل (١)

فقد تم التشبيه فى البيت الاول عند قوله : « رسوما كأخلاق الرداء » وفى الثانى عند قوله : « دموعا كتبذير الجمان » ، فاختتم البيتين بما يفيد زيادة المبالغة فى التشبيه وهو قوله : « المسلسل والمفصل » . .

ومنه قول امرىء القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب (٢)

حيث تم له التشبيه عند قوله : « الجزع » فاختتم البيت بما يفيد تحقيق التشبيه ؛ لأن الجزع إذا كان غير مثقوب كان أشبه بعيون الوحش ، فقوله : « الذى لم يثقب إيغال أفاد تحقيق التشبيه وجعله دقيقا وتاما . ومثله قوله أيضا :

حملت ردينيا كأن سنانه سنا لهب لم يتصل بدخان (٣)

حيث أتى على التشبيه عند قوله : « كأن سنانه سنا لهب » ، ثم اختتم البيت بإيغال أفاد دقة التشبيه وزيادة تحقيقه ، وهو قوله « لم يتصل بدخان » ؛ لأن سنان الرمح أكثر شبها بضوء اللهب الذى لم يتصل بدخانه . وقول زهير ابن أبى سلمى :

---

(١) العيس : الإبل يخالط بياضها سواد خفيف مفردها : أعيس . والأطلال : جمع طلل وهو ماشخص من آثار الديار بخلاف الرسوم . والأخلاق جمع خلق وهو البالى . والمسلسل : الردى النسج . ويجدى : يعطى ويفيد وعائد الموصول محذوف والتقدير يجدى به . والتبذير : التفريق . والجمان المفصل : اللؤلؤ المنظم . .

(٢) الوحش : المراد به الظباء التى يصيدونها ويرمون أعينها حول خبائهم . والخباء : ما كان من وبر أو صوف لاشعر وقام على عمودين أو ثلاثة ، وما فوقه : البيت . والأرحل جمع رحل وهو المنزل والمأوى . والجزع : خرز فيه بياض وسواد على شكل دوائر .

(٣) الردينى : رمح منسوب إلى ردينة وهى امرأة كانت تقوم الرماح . وسنا اللهب : ضوؤه . . وسنان الرمح : حديدته ، وجمعها : أسنة ، وسميت بذلك لصقالتها وملاستها . .

كأن فتات العهن فى كل منزل ... نزلن به حب الفنا لم يحطم(١)

فقد أتى على التشبيه بقوله « حب الفنا » ، ثم اختتم البيت بما يفيد دقة التشبيه وزيادة تحققه ؛ لأن حب الفنا أحمر الظاهر أبيض الباطن فهو لا يشبه الصوف الأحمر إلا إذا لم يحطم ، فقوله : « لم يحطم » إيغال حسن .
ومنه قول الأعشى :

كناطح صخرة يوما ليفلقها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل(٢)

حيث تم له المعنى بقوله : « وأوهى قرنه » ، ثم اختتم البيت بإيغال حسن وهو قوله « الوعل » ؛ لأن الوعل ينحط من قلة الجبل على قرنه فلا يضره ..

ومن الإيغال فى النظم الكريم قوله تعالى : « وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ : يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ . . »(٣) ، فقوله جل وعلا : « وهم مهتدون » إيغال إذ المعنى قد تم بدونه لاهتداء الرسل قطعاً ، والغرض منه زيادة الترغيب والحث على اتباعهم والاقتداء بهم . . وقوله تعالى : « فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ »(٤) ، فقوله : « مثل ما أنكم تنطقون » ، إيغال أفاد زيادة التوكيد والمبالغة التى اقتضاها المقام .

٥ - التذييل : وهو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها لإفادة التوكيد ، ويختلف التذييل عن الإيغال السابق من عدة جهات وهى :

---

(١) الفتات : اسم لما انفت وتقطع من الشىء . والعهن : الصوف المصبوغ . والفنا : عنب الثعلب ، شبه فتات الصوف المصبوغ الذى زينت به الهوادج بحب الفنا فى حمرته قبل تحطيمه ؛ لأنه إذا حطم تزول حمرته . .

(٢) الوعل : تيس الجبل . وجمعه : وعول واوعال ووعل ، والأنثى : وعلة .

(٣) سورة يس ٢٠ ، ٢١ . (٤) سورة الذاريات آية ٢٣ .

١ - أن الإيغال يكون بالجملة وبغير الجملة، كما رأيت في شواهده ، أما التذييل فلا يكون إلا بجملة ، كما سترى ..

٢ - الإيغال يفيد التوكيد وغيره من الأغراض التي يأتي لها ، أما التذييل فهو للتوكيد خاصة.. .

٣ - التذييل يكون في آخر الكلام وفي أثنائه ، أما الإيغال فلا يكون إلا في آخر الكلام .

والتذييل ضربان : تذييل يجري مجرى المثل وتذييل لا يجري مجرى المثل، فالأول هو أن يقصد بالجملة الثانية حكم مستقل عما قبله ، بمعنى أن جملة التذييل تفيد معنى يعلن استقلالها بإفادته عما قبلها ، كما في قوله تعالى : « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا . »[1] ، فقوله : « إن الباطل كان زهوقا » ، تذييل أتى به لتأكيد الجملة قبله ، وهو جار مجرى المثل بمعنى أن الجملة الثانية مستقلة بمعناها عن الجملة الأولى ، وجارية على الألسنة كما تجري الأمثال التي كثر استعمالها وفشا ، فهي لا تحتاج في إفادة معناها إلى الجملة السابقة .. ومن هذا الضرب قول النابغة الذبياني :

ولست بمستبق أخا لا تلمه ... على شعث أي الرجال المهذب[2]

فقوله : « أي الرجال المهذب » ؟ تذييل جرى مجرى المثل ، حيث يجري على الألسنة مستقلا عما قبله .. ومثله قول الحطيئة :

تزور فتى يعطي على الحمد ماله ... ومن يعط أثمان المكارم يحمد

فالشطر الثاني تذييل للشطر الأول ، خرج مخرج المثل ..

---

(١) سورة الإسراء آية ٨١ .

(٢) لا تلمه : لا تضمه . والشعث في الأصل انتشار شعر الرأس وتغيره لتكثر أوساخه والمراد به هنا العيب على سبيل الاستعارة ، والاستفهام في البيت استفهام إنكاري بمعنى لا يوجد . .

والثانى وهو التذييل الذى لم يجر مجرى المثل ، فهو ما لا يستقل معناه ، بل يتوقف على ما قبله ، كما قوله تعالى : « فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ . . »(١) ، فقوله : « وهل نجازى إلا الكفور » ، تذييل غير جار مجرى المثل ، لأن معناه لا يفهم إلا بما قبله ... ومنه قول الحماسى :

فدعوا نزال فكنت أول نازل ... وعلام أركبه إذا لم أنزل

فقوله : « وعلام أركبه إذا لم أنزل ؟» تذييل غير جار مجرى المثل لأن فهم معناه متوقف على ما قبله .. ومثله قول ابن نباتة السعدى :

لم يبق جودك لى شيئا أؤمله ... تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

وقد اجتمع التذييلان فى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ . . »(٢) ، فقوله : « وعداً عليه حقاً » ، تذييل غير جار مجرى المثل لاحتياجه فى فهم معناه إلى ماقبله ، وقوله « ومن أوفى بعهده من الله ؟» ، تذييل خرج مخرج المثل السائر لتحقيق وتأكيد ما تقدمه ، فهو تذييل ثان للتذييل الأول .. وكذا اجتمع الضربان فى قوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ »(٣) . فقوله : « أفإن مت فهم الخالدون » تذييل غير جار مجرى المثل

---

(١) سورة سبأ ١٦ ، ١٧ . (٢) سورة التوبة آية ١١١ .

(٣) سورة الأنبياء آية ٣٤ ، ٣٥ .

إذ يتوقف فهم معناه على ما قبله ، وقوله : « كل نفس ذائقة الموت » تذييل جرى مجرى المثل ، لجريانه على الألسنة وعدم توقف فهم معناه على ماقبله .

٦ ـ التكميل : ويسمى أيضاً بالاحتراس وهو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك التوهم ، كما فى قول طرفة بن العبد :

فسقى ديارك ـ غير مفسدها ـ صوب الربيع وديمة تهمى

فقوله : « غير مفسدها » احتراس عن المطر المسترسل الذى يسبب الخراب والدمار ، لأن الديمة هى المطر المسترسل . وتهمى بمعنى تسيل . والمطر إذا كثر وزاد عن حده سبب الخراب والدمار ، فدفع الشاعر هذا التوهم بقوله : « غير مفسدها » ، ومن أجل هذا عيب قول الشاعر :

ألا يا اسلمى يا دارىَّ على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

وقيل : لاعيب فى البيت ، لأن الدعاء قرينة على عدم إرادة الضر ، وللشاعر أن يكتفى بالدعاء فلا يحترس ، وألا يكتفى به فيضم إليه الاحتراس . ومنه قول عبد الله بن المعتز فى وصف الخيل :

وخيل طواها السير حتى كأنها أنابيب سمرٌ من قنا الخط ذُبَّلُ
صببنا عليها ـ ظالمين ـ سياطنا فطارت بها أيدٍ سراعٌ وأرجلُ

فقوله : « ظالمين » احتراس ، حيث دفع به ماقد يتوهم من أنها كانت بطيئة فى المشى ، ثقيلة فى السير ، لاتجرى وتسرع إلا بالضرب واستعمال السياط ، وهذا خلاف المقصود ، لأن المقام مقام مدح ومنه قول الحماسى :

رهنت يدى بالعجز عن شكر بره وما فوق شكرى للشكور مزيد

فالشطر الثانى من البيت احتراس ، لأنه لما صرح فى الشطر الأول بعجزه عن شكر بره ، ربما يتوهم متوهم أنه لم يقم بشىء من الشكر ، فدفع هذا التوهم بالشطر الثانى الذى أفاد أن شكره ليس للشكور وهو المبالغ فى الشكر زيادة عليه .

ومنه قول كعب بن سعد الغنوى من قصيدة له فى رثاء أخيه أبى المغوار :

حليم إذا ما الحلم زين أهله   مع الحلم فى عين العدو مهيب

فإنه لو اقتصر على وصفه بالحلم لأوهم أن حلمه عن عجز ، ولذا احترس بقوله : « إذا ما الحلم زين أهله » فأزال هذا الوهم ، ثم أكد الاحتراس بذلك التذييل : « مع الحلم فى عين العدو مهيب » .

ومنه قول السموءل بن عاديا :

وما مات منا سيد فى فراشه   ولا طلّ منا حيث كان قتيل[1]

فقد وصف قومه بشمول القتل إياهم وأنه لم يمت واحد منهم على فراشه، وهذا الوصف يوهم ضعفهم وقلة شجاعتهم ، فأزال هذا الوهم بالشطر الثانى الذى وصفهم بالانتصار من قاتليهم ..

ومنه قول المتنبى :

أشد من الرياح الهوج بطشا   وأسرع فى الندى منها هبوبا

فإنه لو اقتصر على وصفه بشدة البطش ، لأوهم ذلك أنه عنف كله ، ولا لطف عنده ، فأزال هذا الوهم بوصفه بالسماحة والندى . ولم يتجاوز فى الوصفين صفة الريح التى شبهه بها .

ومما جاء من هذا النوع فى النظم الكريم قوله تعالى : « لاَ يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ ــ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ ــ وَالمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ .. »[2] ، فقوله جل وعلا : « غير أولى الضرر » ، احتراس يدفع توهم أن القاعد بعذر داخل فى مفهوم عدم الاستواء المذكور .. وقوله تعالى : « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. »[3]

---

(١) طل : بمعنى أهدر دمه ولم يقتص له ..

(٢) سورة النساء آية ٩٥ .   (٣) سورة النمل آية ١٢ .

فقوله : « من غير سوء » احتراس من نحو البهق والبرص ...

هذا ولا يخفى عليك بالنظر فى الشواهد المذكورة ان الاحتراس قد يتوسط الكلام ، وقد يقع فى آخره .

٧ - التتميم : وهو أن يؤتى فى كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة مثل المفعول أو الحال أو الجار والمجرور، ونحو ذلك مما ليس بجملة مستقلة ، ولا ركنا من أركان الكلام ، وذلك لإفادة نكتة بلاغية كما فى قوله تعالى: « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا »[1] وقوله جل وعلا : « وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ .. »[2] وقوله عز وجل : « لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. »[3] ، فإن قوله عز من قائل : « على حبه » ، « مما تحبون » فضلة ، وتركها لا يجعل الكلام موهما خلاف المقصود ، وقد أتى بها فى النظم الكريم لنكتة بلاغية وهى إفادة المبالغة فى مدح هؤلاء الذين يؤثرون على أنفسهم ويطعمون وينفقون مالا قد أحبوه وطعاماً قد اشتهوه وأرادوه .. وقيل إن الضمير فى قوله : « على حبه » . لله عز وجل لا للمال ، أى : على حب الله ، وعندئذ فلا إطناب فى الآيتين ، لأن الإنفاق لا يمدح شرعا إلا إذا كان ابتغاء وجه الله ، لا لرياء ونحوه ، فالجار والمجرور « على حبه » صار عندئذ مراداً، لا زائداً على أصل الكلام .

ومنه قول زهير :

من يلق يوماً على علاته هرما ... يلق السماحة منه والندى خلقا[4]

---

(١) سورة الإنسان آية ٨ (٢) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٣) سورة آل عمران اية ٩٢.

(٤) على علاته : العلات جمع علة والمراد بها ماينوبه من قلة ذات اليد والعوز والاحتياج ..

فقوله : « على علاته » تتميم حسن أفاد المبالغة فى المديح ..

وقول الآخر :

إنى على ماترين من كبرى   أعرف من أين تؤكل الكتف

يريد أنه داهية ، لأن الكتف تؤكل من أسفلها ويشق أكلها من أعلاها ؛ ولذا يكنى عن الداهية بقولهم : يعرف من أين تؤكل الكتف ، ويضرب هذا القول مثلا للإنسان الذى يعرف دواخل الأمور ، وكيف يصل إلى المكنونات داخل الإنسان ، فقول الشاعر : « على ماترين من كبرى » ، تتميم جميل أفاد به المبالغة فيما وصف به نفسه .

ويتضح لك مما سبق أن التتميم يختلف عن الإيغال من جهتين :

١ — التتميم مقيد بكونه فضلة ، والإيغال لا يتقيد بهذا ..

٢ — التتميم يكون فى وسط الكلام وفى آخره ، أما الإيغال فلا يكون إلا فى آخر الكلام .. كما يختلف التتميم عن التكميل من جهتين أيضاً :

١ — التكميل يدفع به توهم غير المراد ، والتتميم لا يدفع به إيهاما وإنما يؤتى به لنكتة بلاغية أخرى ..

٢ — التتميم مقيد بكونه فضلة ، والتكميل لا يتقيد بذلك ..

٨ — الاعتراض : وهو أن يؤتى فى أثناء الكلام الواحد أو بين كلامين متصلين فى المعنى بأن يكون ثانيهما تأكيداً لأولهما أو بيانا له أو بدلا أو معطوفا ، بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة سوى دفع الإيهام ، وذلك كالتنزيه فى قوله تعالى : « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ — سُبْحَانَهُ — وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ »[1] فجملة « سبحانه » جملة اعتراضية والغرض منها : تنزيهه تعالى عن اتخاذ

---

(١) سورة النحل آية ٥٧ .

البنات ... و « سبحان » جملة ؛ لأنها واقعة موقع المصدر الذي هو التنزيه والمعنى : أنزهه تنزيها ... وكالتعظيم في قوله جل وعلا : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ »[1].
فقد اعترض بين القسم وجوابه بقوله : « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ، وداخل هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الصفة والموصوف وهو « لو تعلمون » وقد أريد بالاعتراضين تعظيم القسم وتفخيم أمره ، وفي ذلك تعظيم للمقسم عليه وهو القرآن الكريم ، وتنويه برفعة شأنه .

وكالتقرير في قوله تعالى : « قَالُوا : تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ .. »[2] فجملة « لقد علمتم » جملة معترضة بين القسم والجواب لتقرير علم المخاطبين بالبراءة من الفساد والبعد عن تهمة السرقة ...
وكالدعاء في قول الشاعر :

إن الثمانين — وبلغتها — قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

يخبر الشاعر بتقدم سنه وضعف سمعه حتى قد صار يحتاج إلى من يكرر له القول ليسمع ، وجملة : « وبلغتها » جملة معترضة أريد بها الدعاء للمخاطب بطول العمر ، وإثارة عطفه على الشاعر .

وكالتصريح بما هو المقصود في قول كثير عزة :

لو ان الباخلين — وأنت منهم — رأوك لعلموا الناس المطالا

فقوله : « وأنت منهم » جملة اعتراضية أريد بها التصريح بما هو مقصود من ذمها ، وتأكيد انصراف الذم إليها .

والتنبيه كما في قول الشاعر :

واعلم — فعلم المرء ينفعه — أن سوف يأتي كل ما قدرا

(١) سورة الواقعة آية ٧٥ — ٧٧ .
(٢) سورة يوسف آية ٧٣ .

لجملة : « فعلم المرء ينفعه » جملة معترضة ، الغرض منها التنبيه على فضل العلم ونفعه لصاحبه . . ومثله قول الآخر :

فلا هجره يبدو - وفي اليأس راحة -
ولا وصله يبـــدو لنا فنكارمه

فجملة : « وفي اليأس راحة » ، اعتراضية ، أريد بها التنبيه إلى سبب طلبه الهجر ، وذلك لأن طلب هجر الحبيب وتمني وقوعه أمر فيه غرابة ، فبين الشاعر بالجملة الاعتراضية أنه لم يتمن هذا إلا بعد اليأس وانقطاع الأمل من وصله : « وفي اليأس راحة » .

وكالاستعطاف في قول المتنبي :

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه
- ياجنتي - لرأيت فيـــه جهنم

فقوله : « يا جنتي » جملة اعتراضية ، لأنها بمعنى : أدعو ، والغرض منها الاستعطاف والاستلطاف ومما جاء بأكثر من جملة قوله تعالى : « وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ - حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ - أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . »(١) فقوله : « أن اشكر لي ولوالديك » تفسير لقوله : « وصينا » ، وقوله « حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين » اعتراض بينهما ، وقد أريد به تأكيد التوصية بالأم والتذكير بحقها العظيم على الأبناء لما عانته وقاسته من آلام . . . وقوله عز وجل : « قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ . . »(٢) ، فقوله جل وعلا : « والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى » ، اعتراض وقع بين قولي امرأة عمران يفيد تأكيد ماأخبرت به ... وقوله تعالى: « فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ

---

(١) سورة لقمان آية ١٤ . (٢) سورة آل عمران آية ٣٦ .

اللهُ . إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ . . »[1] ، فقوله : « نساؤكم حرث لكم » بيان لقوله « فأتوهن من حيث أمركم الله » ، وقد اعترض بينهما بقوله عز وجل : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، والغرض من هذا الاعتراض : الترغيب فيما أمر الله به والتنفير عما نهى عنه ، إذ الغرض الأصلى فى الإتيان هو طلب النسل ، لا قضاء الشهوة ، فلا تأتوهن إلا من حيث يتأتى من الإتيان تحقيق هذا الغرض ، وفى الاعتراض بما ذكر ترغيب فى الأمر وتنفير من النهى .

هذا ويتضح لك من الشواهد المذكورة أن الاعتراض قد يأتى بغير الواو والفاء ، وقد يأتى بإحداهما فتسمى - الواو أو الفاء ، عندئذ واو الاعتراض أو فاء الاعتراض ، وتختلف واو الاعتراض . عن واو العطف أو الحال ، والتمييز بين تلك الواوات ، قد يكون بينا واضحا وقد يدق ويغمض بحيث يحتاج إلى مزيد من التأمل والتروى ، انظر إلى قوله تعالى : « وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ . ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ . . . »[2] ، تجد أنَّ الواو فى قوله : « وأنتم ظالمون » ، صالحة لأن تكون واو الحال ولأن تكون اعتراضية ، لأنه إذا قصد تقييد الاتخاذ بالجملة ، كانت الواو حالية والمعنى : ثم اتخذتم العجل حال كونكم ظالمين باتخاذه ، وإذا قصد استقلال جملة : « أنتم ظالمون » عن الاتخاذ ، كانت الواو اعتراضية والمعنى : « ثم اتخذتم العجل وأنتم قوم عادتكم الظلم ، فتكون جملة اعتراضية أتى بها تأكيد الظلمهم ولم يقصد بها الارتباط بالاتخاذ المذكور . . . ولذا نجد أن تمييز واو الحال ومثلها واو العطف ، من واو الاعتراض ، قد يدق ويغمض بحيث يحتاج منك إلى مزيد من التأمل ومراجعة السياق .

(١) سورة البقرة آية ٢٢٢ ، ٢٢٣ . (٢) سورة البقرة آية ٥١ ، ٥٢ .

ومما ينبغي أن تقف عليه وتعلمه ، أن الإطناب ليس مقصورا على تلك الأنواع التي ذكرناها ، بل قد يقع بغيرها ، فمن مقاماته: مقامات الذكر التي مرت بك في أحوال المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل . ومنها ما يكون بالإفاضة في جواب الاستفهام حيث يقتضي المقام الإطناب وامتداد القول ، كما رأينا في قوله تعالى : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ : هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى . . »(١) . . وكما في قوله تعالى : « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَا تَعْبُدُونَ . قَالُوا : نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ . . »(٢) ، فقد كان يكفي أن يقال في الجواب . « أصناما » ، ولكنهم أطنبوا فذكروا كلمة : « نعبد » ثم أضافوا : « فنظل لها عاكفين » ، ليظهروا ابتهاجهم بعبادتها ، وافتخارهم بالمواظبة على تلك العبادة ، ويريدون بهذا الإطناب أن يزداد غيظ السائل وهو إبراهيم عليه السلام . . . ومن الإطناب زيادة بعض الأحرف في النظم لتحقيق غرض من الأغراض البلاغية، كزيادة «أن» بعد « لما » في قوله تعالى : « فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا . »(٣) ، فزيادة « أن » بعد لما في الآية الكريمة ، دلت على أن المجيء لم يكن على الفور بل كان هناك تراخ وتباطؤ ، لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام ، وكذا قوله تعالى : « فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ : يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ . »(٤) فقد زيدت « أن » بعد لما ، للدلالة على أن موسى عليه السلام لم يسارع إلى قتل الثاني كما سارع إلى قتل الأول ...

وكزيادة « ما » بعد « إذا » في نحو قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ

(١) سورة طه آية ١٨ .
(٢) سورة الشعراء آية ٦٩ - ٧١ .
(٣) سورة يوسف آية ٩٦ .
(٤) سورة القصص آية ١٩ .

كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ .. »[1] ، فزيادة « ما » فى الآية الكريمة دلت على ندرة حدوث الغضب من هؤلاء فهم لا يغضبون إلا قليلا وإذا ما غضبوا هم يغفرون ويعفون عن أغضبهم . . . وفى قول الشاعر :

إذا ما غضبنا غضبـــة مُضَرية

هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دَماً

دلت زيادة « ما » على أنهم لا يغضبون إلا حين يوجب الحزم أن يغضبوا ، فهم يعفون كثيرا ولا يغضبون إلا نادرا ، وحين يضطرهم الغير إلى الغضب ينتقمون شر انتقام ، فغضبتهم إنما هى غضبة الحليم . . . ومن الإطناب زيادة بعض الكلمات التى يفيد زيادتها تأكيدا اقتضاه المقام ، على نحو ما رأينا فى مثل قولهم رأيته بعينى وسمعته بأذنى وقلته بفمى . . . وقوله تعالى : « إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ .. »[2] ، وقوله تعالى: « مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ .. »[3] ، وقوله تعالى : « قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .. »[4]

فالرؤية لا تكون إلا بالعين والسمع لا يكون إلا بالأذن والقول لا يكون إلا بالفم والألسنة ، والقلب لا يوجد إلا فى الجوف والسقف

(١) سورة الشورى اية ٣٧ .
(٢) سورة النور آية ١٥ .
(٣) سورة الأحزاب آية ٤ .
(٤) سورة النحل آية ٢٦ .

لا يكون إلا من فوق ، وقد زيدت تلك الكلمات لإفادة التوكيد الذى اقتضاه المقام على نحو ما وضحت لك فيما سبق .

وبهذا يتبين لك أن الإطناب ليس مقصورا على تلك الأنواع المذكورة، بل يتعداها إلى كل زيادة فى النظم أفادت معنى يقتضيه المقام ويتطلبه .

* * *

المســـاواة

قالوا فى تعريفها : إنها تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له ، بأن تكون الألفاظ على قدر المعانى ، لا يزيد بعضها عن بعض ، ولا ينقص . . . وقد اتخذوا من متعارف الأوساط مقياسا يقيسون عليه الكلام ، فالكلام إذا قل عن متعارف الأوساط كان إيجازا ، وإذا زاد عنه كان إطنابا ، وإذا جاء على حد متعارف الأوساط فهو المساواة وهى فى باب البلاغة لا تحمد ولا تذم . واستشهدوا لها بنحو قوله تعالى: « وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إلاَّ بِأَهْلِهِ »[1] وقوله عز وجل : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ . . »[2] ، وقول الرسول — عليه الصلاة والسلام — : « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات » وقول النابغة الذبيانى :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقول طرفة بن العبد :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقول زهير :

ومهما يكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

---

(١) سورة فاطر آية ٤٣ .

(٢) سورة الأنعام آية ٦٨ .

هذا ولم تسلم هذه الشواهد التى استشهد بها البلاغيون للمساواة ، لأنك عند التأمل تجدها راجعة إما إلى الإيجاز أو إلى الإطناب، فمثلا فى الآية الأولى إذا رجعت إلى سياقها فى النظم الكريم : « اسْتِكْبَاراً فِى الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ » تراها قد وقعت تذييلاً ، والتذييل — كما عرفت — من أنواع الإطناب ، ثم إنها أسلوب قصر ، والقصر من الإيجاز ، وقوله تعالى : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا . . . » الآية ، وقول الرسول — صلى الله عليه وسلم . « الحـــلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات » ، لا يخفى عليك رجوعهما إلى إيجاز القصر ، لأن المعانى التى تكمن فى الآية الكريمة والحديث الشريف معان كثيرة غزيرة ، وألفاظهما قليلة — كما ترى — وهذا هو إيجاز القصر الذى مر بك . . . وتجد الشطر الثانى من بيت النابغة : « وإن خلت أن المنتأى عنك واسع » تذييلا غير جار مجرى المثل ، كما تجد فى الشطر الأول من بيت طرفة إيجازا بحذف الجار والمجرور والتقدير : ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا به ... وفى بيت زهير تجد قوله : « وإن خالها تخفى على الناس » اعتراضا بين الشرط وجوابه .

وهكذا تستطيع أن ترجع ما استشهد به البلاغيون للمساواة ، إما إلى الإيجاز وإما إلى الإطناب ، فالأولى أن تجعل المساواة قاصرة على كلام الأوساط لأنها نادرة الوقوع فى التعبيرات الجيدة والكلام البليغ ، ولأن البلاغيين قد جعلوها خالية من جميع الاعتبارات البلاغة وقالوا : إنها لا تحمد ولا تذم فى باب البلاغة .

تم بحمد الله تعالى فى ٢٨ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٧ هـ .

الموافق ٢٩ من ديسمبر سنة ١٩٨٦ م .

والحمد لله أولا وآخراً . . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أهم مراجع الكتاب

١ ـ الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى طبعة الحلبى ١٣٩٨ هـ .

٢ ـ أسرار البلاغة لعبد القاهر . ط : دار الطباعة المحمدية ١٣٩٢ هـ
ت : محمد عبد المنعم خفاجى .

٣ ـ الأسلوب للدكتور أحمد الشايب . طبعة السعادة . الطبعة الخامسة .

٤ ـ أساليب الاستفهام فى القرآن الكريم من الوجهة البلاغية للدكتور
بسيونى عبد الفتاح مخطوط بالأزهر (رسائل) .

٥ ـ إعجاز القرآن للباقلانى . ط : دار المعارف ١٩٧٧ م ت : السيد صقر .

٦ ـ أمالى المرتضى ط : الحلبى ١٣٧٣ هـ ت : محمد أبو الفضل إبراهيم .

٧ ـ الإيضاح للقزوينى وبهامشه البغية للصعيدى ، ط : صبيح ١٣٩٢ هـ .

٨ ـ البرهان فى علوم القرآن للزركشى ، ط : دار إحياء الكتب العربية
١٩٥٧ م ت : محمد أبو الفضل .

٩ ـ البلاغة القرآنية فى تفسير الكشاف للدكتور محمد أبو موسى ، ط :
دار الفكر العربى .

١٠ ـ البيان والتبيين للجاحظ ، ط : الخانجى ، ت عبد السلام هارون .

١١ ـ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، ط الحلبى ١٣٧٣ هـ .

١٢ ـ تنزيه القرآن عن المطاعن لعبد الجبار ، ط : دار النهضة ـ بيروت .

١٣ ـ ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، ط : دار المعارف ١٩٧٦ م .

١٤ ـ جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ، ط : جامعة الإمام
محمد بن سعود ، ت : محمد الهاشمى .

١٥ ـ حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى ، ط : دار الطباعة الخديوية .

١٦ ـ الحيوان للجاحظ ، ط : الساسى ١٩٥٠ م .

١٧ - الخصائص لابن جني ، ط : دار الهـــدى ببيروت ، ت : محمد علي النجار .
١٨ - خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ، ط : دار التضامن ١٩٨٠ م
١٩ - دلائل الإعجاز لعبد القاهر ، ط: الفجالة ت: محمد عبد المنعم خفاجي .
٢٠ - دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ، دار المعلم ١٣٩٩ هـ .
٢١ - روح المعاني الألوسي ط : دار إحياء التراث العربي ببيروت .
٢٢ - سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، ط : الخانجي ، ت : علي فودة .
٢٣ - شروح التلخيص .
٢٤ - شرح المعلقات للزوزني ، ط : المطبعة التجارية ١٩٧١ م .
٢٥ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ط : دار المعارف ١٩٦٧ م ، ت : أحمد شاكر .
٢٦ - الصاحبي لأحمد بن فارس ، ط : المؤيد ١٣١٨ هـ .
٢٧ - الصناعتين لأبي هلال العسكري ، ط : الحلبي ١٩٧١ م .
٢٨ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، ط : المدني ، ت : الأستاذ محمود شاكر .
٢٩ الطراز ليحيى بن حمزة العلوي ، ط . المقتطف ١٣٢٢ هـ .
٣٠ - عقود الجمان للسيوطي ، المطبعة الشرقية ١٣٠٥ هـ .
٣١ - العمدة لابن رشيق ، ط : دار الجيل ، ت : محمد محي الدين .
٣٢ - عيار الشعر لابن طباطبا ، ط : شركة فن الطباعة ١٩٥٦ م .
٣٣ - الكتاب لسيبويه ، ط : الهيئة المصرية ١٩٧٧ م ، ت : عبد السلام هارون .
٣٤ - الكشاف للزمخشري ، ط : الحلبي ١٣٩٨ هـ .
٣٥ - الكامل للمبرد ، ط : نهضة مصر ١٩٥٦ م ، ت: محمد أبو الفضل .
٣٦ - لسان العرب لابن منظور ، ط : دار المعارف .

٣٧ - متشابه القرآن لعبـــد الجبار ، ط : دار النصر ١٩٦٩ م ، ت : عدنان زرزور .
٣٨ - المثل السائر لابن الأثير ، ط : الحلبي ، ت : محمد محي الدين .
٣٩ - مجمع الأمثال للميداني مطبعة السعادة ١٣٧٩هـ ت محمد محي الدين .
٤٠ - مجاز القرآن لأبي عبيدة ، ط : الخانجي ، ت : محمد فؤاد .
٤١ - معاني القرآن للفراء . ط : الهيئة المصرية ١٩٨٠ م .
٤٢ - المطول لسعد الدين التفتازاني .
٤٣ - معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسي ، ط السعادة ، ت : محمد محي الدين .
٤٤ - المغني للقاضي عبد الجبار جـ ١٦ في إعجاز القرآن ، ط : وزارة الثقافة .
٤٥ - مغني اللبيب لابن هشام مطبعة المدني ، ت : محمد محي الدين .
٤٦ - مفتاح العلوم للسكاكي . ط : الحلبي ١٣٥٦ هـ .
٤٧ - المفضليات للضبي ط : دار المعارف ، الطبعـــة الخامسة ، ت : محمود شاكر .
٤٨ - مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث للدكتور إبراهيم الخولي ، مخطوط بالأزهر (رسائل) .
٤٩ - من أسرار التعبير القرآني الدكتور محمد أبو موسى ، ط : دار الفكر العربي ١٣٩٦ هـ .
٥٠ - من بلاغة النظم العربي للدكتور عبد العزيز عرفة ، ط : دار الطباعة المحمدية ١٤٠٢ هـ .
٥١ - مناهج تجديد لأمين الخولي ، ط : دار المعرفة ١٩٦١ م .
٥٢ - الموطأ للإمام مالك ، ط : الحلبي ١٣٧٠ هـ .
٥٣ - الموازنة للآمدي ، ط : المعارف ١٣٨٠ هـ ، ت : السيد صقر .
٥٤ - النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز مطبعة السعادة ١٣٨٩ هـ .

٥٥ - النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمي هلال ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١ م .

٥٦ - النقد الأدبي لسيد قطب . ط. دار الفكر العربي ١٩٥٤ م .

٥٧ - النقد المنهجي عند العرب للدكتور محمد مندور ط : نهضة مصر ١٩٧٢ م.

٥٨ - نقد الشعر لقدامة ، ط : مطبعة أنصار السنة ١٩٤٩ م ت كمال مصطفى.

٥٩ - نقد النثر (البرهان في وجوه البيان) لابن وهب ، مطبعة مصر ١٩٣٩ م ت : طه حسين وعبد الحميد العبادي .

٦٠ - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي . مطبعة الآداب ١٣١٧ هـ .

٦١ - الوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبد العزيز الجرجاني . ط : الحلبي ت : محمد أبو الفضل .

٦٢ - يتيمة الدهر للثعالبي ، ط : الصاوي ١٩٣٤ م .

محتويات الجزء الثانى

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة